في ظلال الأنبياء

قصصهم في القرآن والأحاديث الصحيحة



محمد حمد عبدالله الصوياني

العبيكان
Obeikan



محمد حمد عبدالله الصوياني

العبيكان
Obeikan


بسم الله الرحمن الرحيم

الإهداء

إلى أخوي وصديقي العزيزين

أبي عبدالله محمد الفريح،

وأبي معاذ فواز المحرج

آدم ﷺ جمال في الجنة

في الملأ الأعلى.. فوق السماوات.. في مكان لا يمكن وصفه، ولا لغة تبوح بجلاله وهيبته.. في مكان تجوبه الأنوار والأجنحة والملائكة والمشاعر، ويزينه التسبيح والتقديس لله تعالى.. تترقب الملائكة حدثًا عظيمًا، بعد أن تلقت أمرًا من الجبار سبحانه بالسجود لمخلوق جديد.. مخلوق ينتمي إلى تربة تلك اللؤلؤة السابحة في الكون، التي تسمى الأرض.. مخلوق ينتمي إلى تربة ذلك الكوكب الملون الصغير. وذلك بعد أن قال لهم الجبار سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿إِنِّي خَٰلِقُۢ بَشَرًا مِّن صَلۡصَٰلٖ مِّنۡ حَمَإٖ مَّسۡنُونٖ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيۡتُهُۥ وَنَفَخۡتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ﴾.

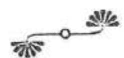
لم تعترض الملائكة على السجود والخضوع، لكنها دخلت في حوار مؤدب مع ربها سبحانه، حين أخبرهم بالمهمة العظيمة، التي كلف بها هذا المخلوق الجديد، وهي عمارة الأرض، والإبداع فيها بأمرين اثنين: (توحيد الله)، (والعدل)، فقال لهم: ﴿إِنِّي جَاعِلٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ خَلِيفَةٗ﴾. حينها قالت الملائكة: ﴿أَتَجۡعَلُ فِيهَا مَن يُفۡسِدُ فِيهَا وَيَسۡفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحۡنُ نُسَبِّحُ بِحَمۡدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾. فهل عاشت يا ترى في الأرض مخلوقات سفكت الدماء، ثم انقرضت قبل خلق آدم؟ أم أن الملائكة تتحدث عن الصراع الدموي من أجل البقاء، الذي تمارسه الحيوانات على الأرض؟ وإذ بالجبار الحكيم سبحانه يقول: ﴿إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾.

أدرك الملائكة أن وظيفة الإنسان سامية، فآدم نبي، والله يقول عن أول رسائله لأنبيائه: ﴿وَلَقَدۡ بَعَثۡنَا فِي كُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولًا أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ﴾. أما الرسالة الثانية فهي إقامة النظام، حيث يقول سبحانه: ﴿لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا رُسُلَنَا بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلۡنَا مَعَهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلۡقِسۡطِ﴾.

حدث الأمر، وخلق الله آدم، وصوره في أحسن صورة.. صورة معجزة مذهلة، ثم تركه ساكنًا، كتمثال وسط عالم من الجمال المبهر، والمساحات



الملونـة، وسـط الجنـة.. ظـل آدم دون روح.. دون حـراك.. بين الثمـار اللذيذة، والأنهـار والأشـجار والطيور والزهـور، والمناظـر الخلابة، والروائح المنعشـة، وفـي إحـدى سـاعات سـكون آدم.. دب بيـن أشـجار الجنـة مخلـوق ينتمي إلى عالـم الجـن.. عالم مختلف عـن عالم الملائكـة، فالملائكة خلقهـم الله من نور، أمـا الجـن فخلقهم الله ﴿مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ﴾. انسـاب الجني الذي يحمل اسـم (إبليـس) فـي فضـول بيـن الأغصان.. يريـد اكتشـاف هـذا المخلوق، الـذي أُمر بالسـجود لـه قبـل خلقـه.. اقتـرب مـن هـذا التمثال بـارع الجمـال، الـذي ينتظر الحيـاة، ويشـتاق للروح.. بـدأ يطوف حولـه.. يتأمله، وفجأة اجتاحـه الفرح، فقد رأى شـيئًا فـي آدم، أصابـه بالزهـو والخيلاء، بـل أعلن تفوقـه عليه.



لحظات السجود والتمرد

ظـل إبليـس يحـدق بتكويـن آدم الجميـل، وبقامتـه الممشـوقة.. تأمـل عينيه الشـاخصتين، وثغـره الصامـت، وشـعره الجميل، وجسـده الغض، وفجأة شـعر بالتفـوق علـى هـذا الصامت، فقـد اكتشـف شـيئًا، جعله يعتقـد أنه أفضـل منه.. اكتشـف أن هـذا البشـر الطينـي يحتـوي فراغًـا داخـل جسـده، وأنـه (أجـوف لا يتمالـك) عندهـا أعلـن ازدراءه لـه.. أعلـن حربًـا ضـد شـخص لم يتحـرك.. لم يتكلـم بعـد، بـل وليـس بـه روح، ثـم قـال فـي نفسـه: (ظفـرت بـه خلـق لا يتمالـك)[1].

بـدأت نـار الحسـد تتأجـج داخلـه، حتـى جـاءت اللحظـة الحاسـمة، حيـن نفـخ الله الـروح فـي آدم، فـإذ بالملائكـة تضـع أجنحتهـا خضوعًـا لأمـره.. كان المشـهد مهيبًـا، يأخـذ بالمشـاعر، لم يشـوهه سـوى غطرسـة إبليـس، الـذي

---

(١) رواه مسلم (٢٦١١) وابن حبان (٦١٦٣) واللفظ له.

رفض السجود. انتهت لحظات السجود، واشتد غضب الجبار على عبده إبليس، الذي حوله الحسد من مخلوق جميل إلى شيطان رجيم.. لم يسحق الجبار سبحانه عبده الحقود.. لم يقذفه في جهنم، بل منحه حرية مسؤولة، وأعطاه فرصة ليرد، بعد أن سأله عن سبب تمرده، وقال: ﴿مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ﴾، وإذ بالحسود المتكبر يقول: ﴿أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾.

لقد منحه الله سبحانه فرصة ليتراجع ويتوب، لكن إبليس كابر، وقال لربه معاندًا: (﴿لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُۥ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾ أصبح إبليس أول متكبر مفاخر بأصله.. احتقر آدم لأنه من طين، مع أنه لا ذنب لآدم، ولا فخر لإبليس في ذلك، فالأصل ليس إنجازًا.. هو هبة من الله، واختبار لشكر المخلوق أو صبره، لكن الكبر أعماه، فلم ير في آدم سوى الطين.. الصلصال، لم يدرك دقة خلقه.. عشرات المليارات من الخلايا، وعشرات الأميال من الشرايين والأوردة، تذهل العالم قبل الجاهل. أعماه الكبر حتى عن نعم الله عليه، فانشغل بالتنقيب عن عيوب غيره.. تناسى أن الله أكرمه، وجعله في الملأ الأعلى، لكنه الحسد.. يهوي بصاحبه من التحليق في السماء، إلى اللهاث خلف أحذية المحسود.

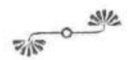
انتهت مرافعة إبليس، ثم سكت بانتظار الحكم، أما آدم فأنعم الله عليه بأنيس يشاطره الحب والحياة.. حواء: الفتاة الجميلة، التي ملأت قلبه، وآنست وحدته، ثم عرض عليهما شيئًا عظيمًا، هو الإرادة أو الأمانة. أمر اعتذرت السماوات والأرض والجبال عن حمله: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ﴾. قبل آدم وحواء تحمل الأمانة والإرادة، لذا جعل الله سكنهما الجنة دائمًا، لكنه مشروط بشيء يتعلق بإرادتهما، فما هو ذلك الشرط؟ أمام بوابة الخلود أو الوهم.

سكن الحبيبان الجنة، وبدأ اختبار إرادتهما، حين أباح الكريم سبحانه لهما كل شيء فيها.. كل شيء في الجنة لكما، عدا ثمار هذه الشجرة التي أمامكما. كان اختبارًا سهلًا للوهلة الأولى، بل إن الحق سبحانه زاد من وعي الحبيبين، حين حذرهما الخروج من الجنة، ولن يكون ذلك إلا بالإنصات لوسوسة عدو لا يعرفانه، لكنه يعرفهما.. حذرهما من إغراء وإغواء (إبليس)، فقال: ﴿يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ﴿١١٧﴾ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ﴾.

كسا الله آدم وحواء من ملابس الجنة الفاخرة، وظلا ينعمان في أجوائها الحالمة.. يتهاديان عبر المساحات الساحرة وبين أنهارها وشلالاتها.. تتضوع الأماكن بالعطور، وأنغام الطيور، والسعادة الغامرة.. لا يعكرها سوى وسوسة أو رؤية إبليس بين الفينة والأخرى، فتحذير ربهما منه جعلهما يتوجسان، لذا ظل إبليس يدرس سلوكهما، حتى أدرك نقطة قوة وضعف فيهما، وهي الشغف.. الطموح، لذا توصل إلى فكرة قد تنجح في طردهما من هذا النعيم.. فكَّر وفكَّر، وأخيرًا وجدها، حين وجد شغفهما يوقفهما أمام تلك الشجرة، وكأنهما يقفان أمام لغز مثير. اقترب منهما، ليقذفهما بأول أكاذيبه ووسوساته.. كذبة قال فيها: إن في ثمار تلك الشجرة سر الخلود، وأنهما سيصبحان ملكين خالدين، بمجرد تناولها، بل أقسم لهما: أنه ناصح، يريد الخير بهما ﴿وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّى لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾.

تأجج الشغف داخلهما.. أنساهما نصيحة خالقهما، فالطمع يعمي الإنسان عن الكثير الذي بين يديه، ليجعله يحدق بالقليل الذي عند غيره.. ظل فضول آدم وحواء يطوف حول تلك الشجرة، وكأنها الوحيدة في الجنة.. يتغافلان عنها لكن سرعان ما تعيدهما كلمات الشيطان. ظلا يترددان عليها، يتأملانها، ويتأملان الجنة الساحرة من حولهما.. لا يريدان مغادرتها، ولا يريدان للموت

أن يأخذهما عنهـا، وفي إحدى المـرات تهاديا نحوها.. اقتربا حتـى وقفا أمامها، وكأنهمـا يقفـان أمـام بوابـة الخلـود.. ازدادت خفقـات قلبيهمـا، وهمـا يمتلئـان بالأحـلام الزائفـة، وفـي لحظة ضعف بشـرية عجزا عـن المقاومة.. مـدا أيديهما نحـو ثمارهـا، وكأنهمـا يسـتلمان مفاتيح الخلـود، وبعد تـردد قبضا علـى ثمرها وقطفـا، بينمـا كان الشـيطان يراقبهمـا، وحقـده يفـرك يديـه حماسًـا.. يتحـرق لرؤيتهمـا مطرودين.. قـرب آدم وفتاته الثمرة الحلم من أفواههمـا ثم تذوقا منها.



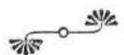
رحلة الهبوط المريرة

أكل آدم وفتاتـه مـن الشـجرة.. لم تكـن حواء هي السـبب.. كانا شـريكين في الأمـر.. ظـل طعـم الثمـرة يجول فـي رأسـيهما، وهمـا ينتظـران سـريان الخلود فـي جسـديهما، وفجـأة حـدث شـيء أذهلهمـا عـن الثمـار والخلـود وعـن كل أحلامهمـا.. لم تظهـر لهمـا أجنحـة، ولـم تتحـور أجسـادهما، ولكـن سـقطت عنهمـا ملابـس الجنـة.. أصبحا عاريين.. أدركا أنهمـا لم يعودا ينتميـان للجنة.. أدركا أنهمـا وقعـا ضحيـة مكيـدة شـيطانية خبيثـة.. مكيدة أنسـتهما ثمـار الجنة، التـي لا تعـد ولا تحصـى، وأشـغلتهما بشـجرة واحـدة.. شـجرة لـن يضيرهمـا تركهـا.. مكيـدة انتزعتهمـا من مسـاحات الحـلال، التـي لا حدود لهـا، ورمتهما في مستنقع صغيـر هـو الحرام.

ذهل أبونا الشـاب، وأمنا الشـابة عن تلك الشـجرة المحرمة.. انطلقا يركضان نحو الشـجر الحلال، عله يسـترهما بعد أن عراهما الحرام.. توجها نحو الأوراق الكبيـرة منهـا.. بدأا ينتزعانها، ويلفانها حول جسـديهما، بعـد أن لفتهما الفاجعة، ثـم توقفـا وبقيـا في حالة وجـوم وخوف ونـدم قاتل، وانتظـار لما بعـد المعصية، وإذ بالجبـار الكريـم الـذي منحهمـا الجنة، من أقصاها إلى أقصاهـا دون مقابل، يناديهما: ﴿أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾.

لم يكابرا كما كابر إبليس.. اعترفا بخطئهما، وتحملا مسؤولية الحرية التي منحت لهما، و﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾، ﴿وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ﴾، لكن إغواء آدم جعله يندم ويستغفر ربه، فـ﴿اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ﴾، لكن هناك مقدمة، وهناك نتيجة.. هناك قدر لا مفر منه، فالأكل من الشجرة المحرمة معصية، لكنه لا يعني دخول النار، بل يعني الخروج من الجنة، فإلى أين؟ غادر آدم وزوجته النعيم والبذخ والثراء والساحات الغناء، والقصور الفارهة، والعوالم المدهشة، التي لا تعرف الكد ولا الشقاء، ولا الحر أو العراء.. تهاديا عبر أحد أبوابها، وهما يحملان حقائب الندم الثقيلة، ولكن إلى أين؟ إنهما الآن خارج بوابة الجنة، ينتظران وجهة السفر الآتية، والمحطة المقبلة.

خرجا من الجنة؛ لتبدأ رحلة الهبوط المريرة إلى الأرض، عبر مسافات هائلة، وسرعة اختفى فيها الزمن.. نزل آدم وحواء، ونزل معهما إبليس، ليستأنف ضدهما حرب الكراهية على الأرض.. حرب الحقد، التي بدأها في السماء، فأي مشاعر اجتاحت أبوينا، حين هبطا في العراء.. ما مشاعر أول يوم لهما على الأرض.

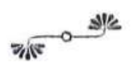


من مشاعر أول يوم على الأرض

قبل نزول آدم أراد الحكيم سبحانه أن يري الملائكة قدرات هذا المخلوق الجديد، فعرض عليهم أشياء يجهلونها.. ربما كانت من اختراع الإنسان المستقبلية، فسألهم عنها، فلم يعرفوا أسماءها ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَٰؤُلَاءِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٣١) قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾، ثم قال سبحانه لآدم: ﴿يَا آدَمُ أَنبِئْهُم بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنبَأَهُم بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾.

أدرك الملائكة مهمة آدم وحواء وذريتهما العظيمة، ثم نزل آدم وحبيبته إلى الأرض.. لامست أقدامهما الحافية وجهها.. سارا على تربتها.. على صخورها.. صعدا جبالها، وهبطا عبر أوديتها.. آه كم يفتقدان إلى نعومة طرقات الجنة وجمالها.. استنشقا هواء الأرض النقي، فلم يجدا عبير تلك العطور.. فارق مهول بين جنة رصفت بالأحجار الكريمة.. حصباؤها اللؤلؤ، وترابها الزعفران، وبين أرض يكسوها التراب والحجارة.. فارق بين أنهار وبحار وبحيرات صافية، قاعها منقوش باللؤلؤ، وبين أنهار قيعانها الطين والطمي.. ارتفع ذلك القرص المتوهج في السماء من جهة الشرق، فبدأت الحرارة بالارتفاع.. ما هذه القطرات التي يراها آدم، تنساب من جبهة حواء، وعلى صدره وذراعيه.. إنه العرق.. لأول مرة يعرقان.. ثم يشعران بالظمأ، بعد أن كانا في جنة، لا يظمأ ساكنها ولا يضحى. شربا من الماء، وشعرا بالارتواء والانتعاش، ثم مرت الساعات، فقرصهما الجوع.. دبا في أرجاء المكان، يبحثان عن تلك الثمار الدانية، والفواكه الملونة، التي لا حصر لها.

إنها أرض ابتلاء، لا تنال ملذاتها إلا بالكد والتعب.. حصلا على بعض الطعام، فأكلا وحمدا الله، ثم بدأ القرص المنير يميل نحو الجهة الأخرى نحو الغروب، ثم بدأ شيئًا فشيئًا ينغمس في الأفق الأحمر، حتى غاب، وشيئًا فشيئًا خيم ظلام موحش.. لم يعودا يريان شيئًا.. حتى إبليس اختفى، لا يستطيعان رؤيته، لكنهما يتذكرانه جيدًا، ويتذكران تهديده.. شعرا بالوحشة.. رفعا أعينهما للسماء، فإذا نجوم تتلألأ.. ظل قلباهما معلق بالله، ولساناهما يلهج بذكره، فلا ملجأ ولا منجا منه إلا إليه.. شعرا بالتعب والخمول، بدأت أجفانهما تثقل، ثم لم يعودا يقدران على فتحها، ثم استلقيا وغرقا في أول نومة لهما على الأرض.



التأقلم مع أجواء الأرض

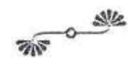
أشـرق الفجـر، فنهـض آدم وزوجته نشـيطين.. ذهـب ذلك التعـب والنعاس، وشـعرا بالحيـاة تسـري مـن جديـد فـي جسـديهما وعلـى الأرض.. طيـور هنا، وطيـور هنـاك، وحيوانات تمـر، وأخرى تُطـارِد أو تُطـارَد.. بدأا يمارسـان مهامًّا لم تكـن فـي الجنـة، فقـد تغيـرت الأحـوال والظـروف، ولـم يعـودا كمـا كانا.. أصبحـا خاضعيـن لقوانيـن الأرض.. أجسـام تتعـب، تفـرز، تعـرق، تتسـخ.. تحتـاج لصيانـة دائمـة.. أمـور لم يكونا بحاجـة إليها في الجنـة. إنه النظـام الذي وضعه الله للأرض، والسـنة التي سـنها لسـاكنيها.. بـدأا الإبداع البشـري وعمارة الأرض فيهـا.. صنعـا بيتًـا يقيهما حـرارة الشـمس، والمطر، وبرد الشـتاء.. صنعا ملابسـهما.. تعلمـا تربية المواشـي المستأنسـة، وركـوب بعضها.. تعلمـا الصيد والادخـار، وإشـعال النـار، والشـي عليهـا، والاسـتدفاء بهـا.. تأقلـم الحبيبـان مـع الأرض.. يحدوهمـا الوحـي والتوحيـد والصـلاة لله والشـوق للجنـة، وبعد مـدة لاحظـت حـواء أن بطنهـا يسـتدير.. يكبر، وبعـد أشـهر، بدأت تشـعر بآلام كالمـوت.. رزقـت بعدهـا بمولـود، ينسـيها آلامهـا.. تلاعبـه، ويؤنـس وحشـة الأرض مـن حولهـا، ثم تـرزق بآخـر، وأخرى وأخـرى... كانـوا ذكـورًا وإناثًا.. بـدأ الأنـس البشـري يزيـن الأرض، وغـدت الأرض أجمـل، ببـراءة الأطفـال وضحكاتهـم وبكائهـم، وابتسـاماتهم العذبة، وأجسـامهم الغضـة.. كبر الأولاد، وكبرت المسـؤوليات، ونشـأهم أبواهم علـى التوحيد، لكن خلافًـا بين الأخوين حـدث ذات يـوم، حـول أمر مـن الأمور، فبـدأ آدم يمـارس ثاني مهمـات الأنبياء وهـي العـدل.. طلـب منهمـا أن يقربـا لله قربانًا.



أحضـر كل واحـد قربانًـا مما يملـك، وأوحـى الله لآدم ﷺ أن الله تقبل قربـان (هابيـل)، ولـم يتقبـل قربان أخيـه (قابيـل). كابـر قابيل وغضـب، وتفاقم غضبـه، وحرضتـه الأنانيـة على التخلص مـن أخيه، فهدده قائـلًا: ﴿لَأَقْتُلَنَّكَ﴾،

فـرد بهدوء وخوّفـه بـالله قائـلًا: ﴿لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَۖ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

فرقـت الدنيـا بيـن الأخويـن.. أصبحـت المسـافة بينهمـا بعيـدة، وفـي أحـد الأيـام كان هابيـل في مـكان بعيد عـن والديه وأخواتـه، وإذ بقابيل يتسـلل نحوه، والشـر فـي عينيـه، ثـم يضربه ضربة أسـقطته أرضًـا وهو ينـزف. يتلبط فـي دمه.. يهتز جسـده، ثم يسـكن شـيئًا فشـيئًا، حتى صعـدت روحه، وفـارق الحياة. وقف القاتـل يتأمـل جثـة أخيه.. تأمل نفسـه، وقـد أصبح بـلا أخ.. تلفت ندمـه، فوجد أرضًا فسـيحة، تتسـع لكليهمـا، بل لمليارات البشـر.



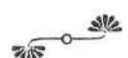
القاتل الأول

وقـف قابيل أمام جثة أخيه.. يتأمل الأرض، فإذا هي فسـيحة، تتسـع لكليهما، بـل تتسـع للمليـارات من البشـر. أصبح أتعس مـن علـى الأرض.. لم يكن الأمر يسـتحق كل هـذا العنـف.. أثقلـه النـدم حتـى عجز عـن مغـادرة المكان.. شـعر بالشـوق لأخيـه الطيـب، فحملـه وسـار بـه يشـخب دمـه.. دار بـه حتـى تعب.. ضاقـت بـه الحيـل.. لا يـدري أين يضعـه، ولا إلـى أين يتجـه.. لم تعـد الأرض فسـيحة كمـا كانـت.. لم تعـد جميلـة.. شـوهتها الجريمة. جلـس ابـن آدم يقطر حزنًـا وندمًـا: هـل يذهب به إلـى والديـه فيفجعهمـا، أم يتركه طعامًـا للوحوش، أم مـاذا يفعـل؟ وفجأة شـعر بحركة قريبـة منه.

التفـت فرأى مشـهدًا أخذ منـه كل حواسـه.. رأى غرابًا ينبش تـراب الأرض، وبجـواره جسـد غـراب ميـت.. ﴿فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي ٱلْأَرْضِ لِيُرِيَهُۥ كَيْفَ يُوَٰرِي سَوْءَةَ أَخِيهِ﴾، انتهـى الغراب من النبش، بعـد أن حفر تجويفًا في الأرض، ثـم بدأ يزحزح جسـد الغـراب الميت بمنقـاره، حتى وضعـه فيه، ثم دفنـه. حينها

أفاق قابيل على إحدى كوارث الجريمة، فقال لنفسه: ﴿يَٰوَيْلَتَىٰٓ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا ٱلْغُرَابِ فَأُوَٰرِىَ سَوْءَةَ أَخِى ۖ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ﴾، ثم نهض، وبدأ بحفر شق في الأرض، يتسع لجسد أخيه المظلوم، ثم عاد وانحنى عليه، وحمله ووضعه داخل التجويف، وأهال عليه التراب، ثم أفاق مرة أخرى على عالم آخر.. عالم بلا أخ.. غاب ذلك الطفل، الذي كان يعدو ويلعب معه، ويسابقه نحو أحضان حواء الحبيبة، أو ذراعي آدم اللطيف.. رحل الصديق، الذي كان يؤنس وحشته، والفتى الذي كان يرافقه للصيد.. رحل من أجل ماذا؟ إنه الطمع.. الحسد، الذي جعل العالم أسود في عينيه.. نهض من عند قبر أخيه، ينفض يديه من ترابه؛ لتبدأ خطواته الثقيلة سيرها للمجهول.. هائمًا على وجهه، تطوف به الأسئلة الباكية: ماذا ستقول لحواء الحبيبة، حين تسألك عنه؟ أي حزن سيحرق كبدها، حين تكتشف أنك قد حرمتها منه؟ من سيجيب آدم إن خيم الليل، وخرج عبر الأودية، ينادي حبيب القلب: أين أنت يا هابيل؟ ماذا ستقول لأخيك يوم البعث، حين يسألك: لم قتلتني يا أخي؟

وقبل ذلك، ماذا ستقول للجبار سبحانه، حين يسألك: لم قتلت عبدي؟ أدخلته الجريمة عالمًا معتمًا، وسن سنة القتل، فـ «لا تقتل نفس ظلمًا، إلا كان على ابن آدم الأول كفل من دمها، لأنه كان أول من سن القتل»[1].. سار قابيل هائمًا حزينًا حتى التقت عيناه بعيون أمنا وأبينا.



بداية الوثنية والشرك

سار قابيل هائمًا على وجهه من شدة الحزن والندم.. شُل تفكيره، حتى عجز عن التصرف بجثة أخيه هابيل، فكيف سيخبر والديه بجريمته.. الأمر

(١) صحيح البخاري (٣٣٣٥)، ومسلم (١٦٧٧).

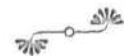
فـوق طاقتـه.. التقـت عيناه بعينـي أمنا حـواء وأبينا آدم بعـد مدة.. تنهـدت حواء وأنَّـت.. بكت، وارتفـع نحيبها، وطال حزنها، وسـافرت خناجـر الحزن في قلب آدم، الـذي فجعـه الخروج مـن الجنة، وفجعـه ابنه بابنـه. وبكت الأخـوات بكاء مرًّا.

أي حـزن أدخلتـه يا قابيـل علـى أسـرتك الصغيـرة والوحيـدة؟ أهكـذا يكون البـر بأبوين، أسـعداك ورعيـاك، أم هكذا يكون التعامـل مع أخ لم تر منه سـوءًا.. لم يأخـذ مالـك، ولـم يمد يده لك بسـوء، بل آثرك على نفسـه، وحقن دمك؟ طال الحـزن علـى هذه العائلـة، وطال، ثم مر مـع الأيام والأعوام، وكثـرت ذرية أولاد آدم وحـواء، وواصلـت الأعـوام مرورهـا، وكبر أبونـا وأمنا عَلَيْهِمَاالسَّلَامُ، وكسـاهما الشـيب، وأنهكتهمـا الشـيخوخة، ثـم حانـت سـاعات الفـراق للدنيـا بأسـرها.. بحلوهـا ومرهـا.. بذكريـات الجنـة، ومعانـاة الأرض. رحلا فبكاهمـا الأولاد والأحفـاد والأسـباط، ثـم مـات الأبناء، ومـات قابيل ورحـل، وظل بعـده أحفاد آدم وحـواء وأسـباطهما، يعمرون الأرض بالتوحيد، والبناء والتشـييد والابتكار.. برعـوا فـي الزراعـة والصناعة الخفيفـة، التي تجعل الحياة أيسـر وأسـهل.. ظلوا علـى التوحيـد، لا يعبـدون إلا الله وحـده، لا شـريك له. جيـلًا بعد جيـل، طوال عشـرة قـرون.. لم تعـرف الأرض شـركًا بـالله خلالهـا.. لا عبـادة لأحجـار، ولا لأشـجار، ولا لحيـوان، رغـم محاولة الشـيطان المتكررة، التي أكسـبته خبرة في فهم السـلوك البشـري.. بعدهـا لاحت له فكرة شـريرة، وكأنه قد انتشـلها من الجحيـم.. فكرة سـيغوي بها ذريـة آدم؛ ليبعدهم عـن التوحيد، دون أن يشـعروا، فكـرة غلفها بشـعارات تحمـل حب الله.

وسـوس لهـم الشـيطان: أن يكرمـوا بعض الأموات مـن الأوليـاء الصالحين، مـن أمثـال: (ود وسـواع ويغـوث ويعوق ونسـر)، اصنعـوا لهم تماثيـل، تذكركم بعباداتهـم وصلاحهـم.. تماثيـل إذا رأيتموهـا نشـطتكم للعبادة، وبعد تـردد. نفذ أحـد الأجيال تلـك الفكرة الشـيطانية، فصنعـوا تماثيل لإحياء الذكرى، وتنشـيط

الذاكرة فقط، ثم جاء جيل آخر، فشاهد تكريم تلك التماثيل، فظن أن أرواحًا تسكنها، وتؤثر فيمن يخاطبها، ثم جاء جيل تعلق بالحجارة نفسها، وأغفل الخالق سبحانه.

هنا بدأت الوثنية لأول مرة، وكثرت الأصنام، حتى ولد وسط هذا العالم الوثني طفل سماه أهله (نوحًا).



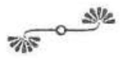
نوح وعالم الوثنية الأول

بعد أكثر من ألف عام من التوحيد النقي لله سبحانه على الأرض.. بدأت الوثنية تحت شعار تكريم الصالحين، وتخليد ذكراهم، ثم انتشرت انتشارًا مخيفًا، حتى طغت على سكان الأرض قليلي العدد، وفي وسط ذلك الجو الوثني، ولد طفل سماه والداه بـ (نوح).. كبر نوح ونضج.. كان ذكيًّا حر التفكير.. تأمل أصنام قومه، فأدرك أن من البلاهة والحمق: أن يعبد الإنسان العاقل حجرًا أصم، صنعه بيده، بل صنعه بالأساس، لتخليد ذكرى بشر مثله، فاصطفاه الله سبحانه، وأنزل عليه الملاك جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ، ليكلفه بتلقي الرسالتين، اللتين بشر بهما جده الأول آدم (التوحيد والعدل).



انطلق نوح يبشر بهما قومه، كلما أتيحت له فرصة.. في معابدهم.. في مجالسهم.. في أنديتهم، وبأي وسيلة ممكنة. بدأ الناس يتهامسون حوله، يشيرون إليه حتى اشتهر، فأثار غيرة الوجهاء، وسدنة الأصنام، لكنه لم يتراجع، فبدأ نجمه يعلو ويرتفع.. وهو يردد في كل مسمع كلماته الرحيمة الحانية العاقلة: ﴿يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾، كلمات أثارت حفيظة سدنة الأصنام والتقاليد المنتفعين من بلاهة عابديها السذج.

أدركـوا أن هذا الرجـل يصرف الناس عنهـم، ويصرف الأموال عـن جيوبهم، وأن التوحيد سيكشـف دجلهم واسـتغلالهم للبسـطاء، فبدؤوا بتسـفيه رأيه، حتى ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾، لكن جدية نوح أفشـلتهم.. خاطب عقولهـم برقـي، فقـال: ﴿أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا۟ وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾، لكنهـم لم يأبهوا، بـل انتقلوا لتلفيق التهـم له، والتحريض عليـه، كـي يسـهل التخلـص منـه، بـل واغتيالـه، لكن نوحًـا عَلَيْهِ السَّلَامُ تجاهـل تلك العقول الخشـبية لكبار القوم، واتجه للبسـطاء والفقراء، الذيـن وجدوا فيه إنصافًا وعدالة وإنسـانية، فثارت ثائرة الوجهاء مـرة أخرى.. هاجوا وماجوا، ليحولوا بينه وبيـن العامة من النـاس.. توجهوا للبسـطاء يحذرونهم منه ومـن التوحيد، بحجة غبية، ويقولون: ﴿مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ﴾، لكـن نوحًـا ظل مقنعًا يدعو بلا يـأس.. هنا عقد كبـار قومه اجتماعًا حاسـمًا، وبعـد المداولات قـرروا أن ينصبوا لـه فخًا.. قرروا القيام بخدعة يكسـبون من خلالها كل شـيء، ويخسـر نوح معها كل شـيء.



خدعة قوم نوح

قـرر قادة الوثنيين تحطيم مصداقية نبـي الله نوح صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أمام أتباعه بخدعة، هـي أن يطالبوه بطرد أتباعه المسـاكين، كشـرط أول لإسـلامهم، لأنـه إن طردهم فسيكتشـف النـاس أنـه حامل شـعارات لا أكثـر، ولا تهمه سـوى مصلحتـه وهنا سيتركونه.. بعدها سيوجهون له ضربة قاضية برفض التوحيد، فيخسر الطرفين معًا.

وافـق المجتمعـون على تلك الخطـة، ثم توجهوا نحو نـوح ليقدموا عرضهم، واثقيـن أنه سـيفضلهم، ويفضـل وجاهتهم ودعمهـم على أولئك الفقـراء. قابلوه وصارحـوه، ثـم سـكتوا بانتظار الـرد، وإذ بنـوح يصدمهـم.. يبين لهم أنـه مجرد حامـل رسـالة أميـن، وأن كنوزهم لا تسـاوي عنده إسـلام فقير واحد.

قال ثقة بربه: ﴿وَيَٰقَوۡمِ لَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مَالًاۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِۚ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۚ إِنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمۡ وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمۡ قَوۡمٗا تَجۡهَلُونَ ٢٩ وَيَٰقَوۡمِ مَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمۡۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ٣٠ وَلَآ أَقُولُ لَكُمۡ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّي مَلَكٞ وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزۡدَرِيٓ أَعۡيُنُكُمۡ لَن يُؤۡتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيۡرًاۖ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا فِيٓ أَنفُسِهِمۡۖ إِنِّيٓ إِذٗا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

جن جنون الصناديد.. أصيبوا بالذهول، وهم يرون الإسلام لا يفاضل بين الناس حسب موروثهم ولا أموالهم، بل حسب إنجازهم وقربهم من الله.. تهوروا، فأعلنوا القطيعة مع أي مجلس يتحدث فيه، لكن نوحًا واصل دعوتهم، فلم يزدهم إلا فرارًا، حتى بلغ السخف ببعضهم أنهم كانوا إذا سمعوه ﴿جَعَلُوٓاْ أَصَٰبِعَهُمۡ فِيٓ ءَاذَانِهِمۡ﴾، ومنهم من يقوم بحركة بالغة الوقاحة.. كانوا إذا سمعوه شوشوا عليه ﴿وَٱسۡتَغۡشَوۡاْ ثِيَابَهُمۡ﴾، وغطوا بها رؤوسهم لإشعاره بالإهانة، لكنه ظل صابرًا محتسبًا متحملًا تفاهاتهم.

طال عمر نوح، وطالت معاناته، ويبدو أن معجزته كانت في طول عمره المديد.. تمر السنوات وهو صامد لا يتزحزح.. مسجلًا نفسه أول أولي العزم من الرسل.. ينوع أسلوب دعوته حسب الظروف والأشخاص، حتى وصف معاناته معهم قائلًا: ﴿إِنِّي دَعَوۡتُهُمۡ جِهَارٗا ٨ ثُمَّ إِنِّيٓ أَعۡلَنتُ لَهُمۡ وَأَسۡرَرۡتُ لَهُمۡ إِسۡرَارٗا﴾، أغراهم بمستقبل جميل قائلًا: ﴿ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارٗا ١٠ يُرۡسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡكُم مِّدۡرَارٗا ١١ وَيُمۡدِدۡكُم بِأَمۡوَٰلٖ وَبَنِينَ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ جَنَّٰتٖ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ أَنۡهَٰرٗا﴾، لكن صلفهم وعنادهم جعلهم يتحدونه أن يأتي بالعذاب بل هددوه بالقتل.. هنا نزل الوحي يأمره بأمر مخيف، فإذ به يتوجه إلى المؤمنين ويحولهم إلى شعلة من النشاط والحركة، وذلك حين طلب منهم أن يقوموا بتحويل أحد الأمكنة إلى ورشة ضخمة.. التف حولها الوثنيون جاعلين منها مسرحًا للضحك والسخرية والتندر.

الورشة المخيفة

لم يؤمن مع نوح ﷺ سوى القليل، حتى تحدته الأكثرية قائلة: ﴿يَٰنُوحُ قَدْ جَٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ (٣٢) قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ﴾، فضاق به قومه، وهددوه بالقتل قائلين: ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمَرْجُومِينَ﴾، بل إن إحدى زوجاته وأحد أبنائه خذلاه. ضاقت الأرض بهذا النبي الصابر، بعد هذا العمر المديد، ﴿وَأُوحِىَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾.

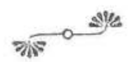
هنا نادى نوح ربه: ﴿أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ﴾، دعا الجبار سبحانه دعاء مظلوم، فقال: ﴿رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا (٢٦) إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾، ولا يلام، فعشرات السنين من العناد تخلق اليأس، فكيف بقرون، وفجأة نزل الوحي، يأمره بأمر أثار استغراب المؤمنين، بل فجر سخرية الوثنيين.

نزل الوحي يأمره بصنع سفينة ضخمة، لكن نوحًا لا يسكن أرضًا على البحر، ولا يعرف كيف تصنع السفن الضخمة، التي تسمى الفلك، لكن الجبار سبحانه أمره بصنعها بتوجيه من الوحي، الذي سيخبره بتصميمها، وقال له: ﴿وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ﴾ . بدأ نوح بتنفيذ الأمر.. انطلق هو والقلة المؤمنة معه نحو الغابة.. بدؤوا بقطع الأشجار العملاقة، وتشذيبها، وإعداد الدسر، وهي المسامير الكبيرة.. حدد نوح مكان الورشة، فحملت تلك الأشياء إليها.



بدأت المناشير والمطارق عملها، حتى بدأ شكل الألواح الخشبية يتجسد شيئًا فشيئًا.. كان الوثنيون يمرون بنوح وفريق عمله.. يتأملون جباههم اللامعة، وسواعدهم التي تتصبب عرقًا، فيرفعون حواجبهم وكأنهم يقولون: لقد جن نوح، بل قالوا: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌۢ بِهِۦ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا۟ بِهِۦ حَتَّىٰ حِينٍ﴾، تحولت الورشة إلى مسرح كبير مفتوح في الهواء الطلق.. يتحلق حوله الوثنيون..

يتهامسـون.. يفرغون ما بأنفسـهم من حقد وبذاءة.. تردد الغابة قهقهات السـخرية التـي يطلقونهـا، بينما كان البيت الخشـبي العملاق يرتفع شـيئًا فشـيئًا، وأصوات الاسـتهزاء ترتفـع كلمـا ارتفـع، وفـي أحـد الأيـام توقـف العمـل. اكتمـل البناء، وعيـون الوثنييـن المتلصصة تكاد تختـرق جدرانه بنظراتهـا، ووجوههم المتطفلة تتلفـت داخـل غرفـه، منذهلة مـن دقة الصنـع وروعة التصميـم، وفجأة بـدأ أتباع نـوح يقومون بعمل أثـار جنـون الوثنيين.



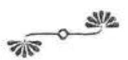
واهتزت الفلك

اكتمـل بناء سـفينة نوح ﷺ، وسـط قهقهات الوثنيين، التـي آلمت نوحًا ومـن معه، فلم يطـق صبـرًا ﴿وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُوا۟ مِنْهُ ۚ قَالَ إِن تَسْخَرُوا۟ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ﴾، ظـل نـوح ينتظـر بقيـة الأوامر، وفجـأة رأى العلامـة.. تلبـدت السـماء بالغيوم حتى حجبت السـماء، وبـدأ الماء يفـور مـن باطن الأرض.. اقتربت سـاعة الصفر، فجمع نوح أتباعـه وأخبرهم بأن موعـد الرحلـة المخيفـة قد حـان، فانطلقـوا إلى من آمـن من أهلهـم وأصدقائهم علـى الفـور وأخبروهم.. تداعـت آلاف الخطوات نحو السـفينة، بينمـا كان نوح وبعـض أصحابـه يجمعون مـن كل حيوان مـن الحيوانـات التي حولهـم زوجين اثنين، لتتناسـل في تلـك الأرض البكر.

ربمـا لأنها سترسـو علـى أرض ليس فيهـا حيوانات مستأنسـة، يـؤكل لحمها ويشـرب لبنهـا، وتحمل الإنسـان في تنقلاته وأسـفاره، فقد أوحـى الله عَزَّوَجَلَّ لنبيه، فقال: ﴿فَإِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ ۙ فَٱسْلُكْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ مِنْهُمْ ۖ وَلَا تُخَـٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ ۖ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ﴾، سيقت البهائم المنتقاة، وأدخلت حظيرة أعدت لها داخل السـفينة، وهنا أطلق نوح النداء الأخير للمسافرين: ﴿ٱرْكَبُوا۟ فِيهَا بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْر۪ىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

اكتملت أعداد المسافرين وسط اتساع أعين المشركين، الذين ابتلعوا ألسنتهم، وتلاشت سخريتهم، ولم يبق سوى زوجة نوح وابنه المعاند. بدا المشهد مخيفًا ومرعبًا، حين بدأ فوران الماء يزيد، والوجوم يكسو وجوه الوثنيين.. ارتفع الماء شيئًا فشيئًا.. ارتفع إلى مستويات غير مسبوقة.

وفجأة اهتزت الفلك.. ثارت حولها براكين الماء المخيفة.. دب الهلع في المكان، وتفرق المتفرجون الوثنيون.. فروا يبحثون عن ملاذات.. عن مرتفعات لا يصلها الماء.. يركضون هنا.. يهربون هناك.. ينطلقون هلعًا في كل اتجاه، والنوافير العملاقة تتفجر تحت أرجلهم.. تطوح ببعضهم كالبراكين.. لم تكن الأرض وحدها غاضبة.. السماء بدأت تقصف.. انشق الغمام الأسود شلالات عملاقة وهائلة.. اختفت الأرض.. الأرض ماء، والسماء ماء، والأمام ماء، والخلف ماء، وكأن الكون ماء.. طفت السفينة العملاقة، والوثنيون صراخ.. بعضهم يتسلق شجرة، والبعض يتشبث بخشبة، وآخرون يركضون نحو الجبال، واليائس يحاول ملامسة السفينة، التي كان يسخر منها بالأمس، لكن الطوفان حوت يبتلع كل شيء، وفجأة صاح نوح من الألم.



نوح يصيح من شدة الألم

مخرت السفينة عباب السيل.. تشق أمواجًا كالجبال، بعد أن نزل الوحي على نوح صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول له: ﴿فَإِذَا ٱسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلْفُلْكِ فَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى نَجَّىٰنَا مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، امتثل النبي الشكور، وامتلأت السفينة بحمد الركاب وتسبيحهم للجبار، وخلال اصطفاق الموج التفت نوح التفاتة خطفت قلبه.. فتى منعزل يصعد بصعوبة سفح جبل.. حدق به فإذا هو فلذة كبده، فاجتاحته عاطفة كالأمواج وصاح به: ﴿يَٰبُنَىَّ ٱرْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾، التفت الفتى ونظر لأبيه، وقد أخذته العزة بالإثم، و﴿قَالَ سَـَٔاوِىٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِى

مِنَ ٱلْمَآءِ﴾، فصاح نوح: ﴿لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ﴾، وقبل أن يجيب الابن المغرور ارتفع سد هائل بينهما.. جدار هائل من الأمواج ابتلع الابن ومضى بينما كان الربان على حافة السفينة يحدق.. ينتظر رد ابنه التعيس، لكن كل شيء قد اختفى.. اختفى الجبل والابن والكلمات، ولم يبق سوى الحسرات تمزق قلب الابن الحنون ﴿وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ﴾، موج هائل ابتلع الابن ومضى، فلم يعد نوح يرى ابنه.

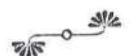
نزف قلب النبي الحنون، الذي استنفد كل طاقته في إقناع هذا الابن العاق، الذي هوى مع بقية الوثنيين للقاع، بينما كانت السفينة ترتفع.. تعلو بالمؤمنين ﴿وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَٱلْجِبَالِ﴾، وهم يتمسكون بمقاعدها.. بسواريها.. بحوافها، وقبل ذلك بوعد ربهم، وهي تمضي بهم، متجاوزة أرض العناد، والأصنام التي غرقت، وغرقت معها صناديدها.

ذابت الوثنية في مياه الطوفان.. لم يعد فوق الماء سوى التوحيد وأهل التوحيد، وبعد مدة من السفر لا يعلمها سوى الله نزل أمر الجبار سبحانه: ﴿يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِي مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقْلِعِي﴾.

بدأ السحاب المحارب يغادر سماء المعركة، وتوقفت براكين الماء، وبدأ غضب الأمواج يهدأ، وقلوب الركاب تهدأ، وبعد مدة علت الابتسامات، وابتهجت النفوس، وفاضت دموع السعادة أمام مشهد ساحر.. ماء وسماء وسحابات متفرقة، تتخللها أشعة الشمس، وتصبغ الأفق بألوان الطيف.. بدأ منسوب الماء ينخفض، والسفينة تنخفض وتنخفض، حتى اقتربت من مكان يسمى الجودي، ﴿وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِيِّ﴾، ورست عليه، فارتفعت أصوات الشكر، وفاضت العيون، امتنانًا لله سبحانه.

توقفت السفينة، لكن مشاعر الأبوة لم تتوقف، ولهب الفقد لم تطفئه مياه الطوفان، فقلب نوح لا يزال يحترق على ابنه، فالله أمره بإركاب أهله في

الفلك، وابنه من أقرب أهله، لذا توجه لربه حزينًا مناشدًا متسائلًا، وقال: ﴿رَبِّ إِنَّ ٱبۡنِي مِنۡ أَهۡلِي وَإِنَّ وَعۡدَكَ ٱلۡحَقُّ وَأَنتَ أَحۡكَمُ ٱلۡحَٰكِمِينَ﴾.



ماذا بعد نوح؟

احترق قلب النبي نوح صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على ابنه، وهو يتذكر وعد الله، لذا توجه لربه حزينًا مناشدًا متسائلًا، وقال: ﴿رَبِّ إِنَّ ٱبۡنِي مِنۡ أَهۡلِي وَإِنَّ وَعۡدَكَ ٱلۡحَقُّ وَأَنتَ أَحۡكَمُ ٱلۡحَٰكِمِينَ﴾، وإذ بالجبار سبحانه يصحح له معلومة خاطئة.. قال تعالى: ﴿يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيۡسَ مِنۡ أَهۡلِكَۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيۡرُ صَٰلِحٖۖ فَلَا تَسۡـَٔلۡنِ مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٌۖ إِنِّيٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾.

أفاق نوح.. وفتح الوحي عينيه على مسؤولياته، فإرغام الناس على الإيمان ليست مهمة الأنبياء.. مهمتهم هي التعليم، ونشر الوعي، والقيادة. والقيادة لا تدار بالعواطف، ومتى ما حركتها العواطف أو الغرائز أوردتها المهالك، وبعد هذا العتاب الرباني، أدرك نوح أن الوثنيين ليسوا من أهله، وعلى ابنه تحمل ضريبة الحرية، التي أعطاها الله إياه، ودفع ثمن عناده.

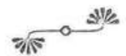


هدأ نوح، وأدرك المسافة الشاسعة بينه وبين ابنه، فاستغفر ربه، وقال: ﴿رَبِّ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِكَ أَنۡ أَسۡـَٔلَكَ مَا لَيۡسَ لِي بِهِۦ عِلۡمٞۖ وَإِلَّا تَغۡفِرۡ لِي وَتَرۡحَمۡنِيٓ أَكُن مِّنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾، ثم أفاق على كلمات ربه، تبشره بالنصر المبين، وتفتح عينيه على المستقبل، حين أمره الله بالنزول، وقال: ﴿يَٰنُوحُ ٱهۡبِطۡ بِسَلَٰمٖ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيۡكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٖ مِّمَّن مَّعَكَۚ وَأُمَمٞ سَنُمَتِّعُهُمۡ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾.

هبط نوح، ولامست قدماه أرض التوحيد الجديدة، وهو يقول: ﴿رَّبِّ أَنزِلۡنِي مُنزَلٗا مُّبَارَكٗا وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡمُنزِلِينَ﴾، ظل نوح كثير الشكر والامتنان لربه، حتى امتدحه الله سبحانه، فقال: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَبۡدٗا شَكُورٗا﴾، نزل الرجال والنساء والأطفال

مـن السـفينة آمنيـن مؤمنيـن، يرددون عبـارات الشـكر للكريـم سـبحانه، وتوجه البعـض نحـو تلـك الحظيـرة، وأخرجـوا الحيوانات منها، ثـم أنزلوهـا بطريقتهم من السـفينة.. انتشـر المؤمنون كالحب على تلك الأرض البكر، واسـتقروا فيها، وعمروهـا بالتوحيد، وزرعـوا فيها، وزرعـوا، وصنعوا، وكثروا وكثـرت بهائمهم، ومـرت الأعـوام تلو الأعـوام توحيدًا وعدلًا، ثم شـاخ نـوح ﷺ، وضعف ضعف المـوت وآن الرحيل.

كان أحد أبنائه المؤمنين عند رأسـه، فنظر إليـه ﷺ بعينه وقلبه، وأوصاه قائـلًا: **إنـي قاص عليـك الوصية، آمـرك باثنتين، وأنهـاك عن اثنتين: آمـرك بلا إله إلا الله، فـإن السـماوات السـبع والأرضيـن السـبع، لو وضعن في كفـة، ووضعت لا إلـه إلا الله فـي كفة لرجحـت بهن،** ثم أوصاه **بسـبحان الله وبحمـده،** قائلًا: **إنها صـلاة كل شـيء، وبها يرزق كل شـيء**[1]. ثم نهاه ﷺ عـن أمرين خطيرين ومهلكين.



عودة الشرك بعد نوح

أوصـى نـوح ابنه وهو علـى فراش الموت، فقـال: «آمرك باثنتيـن، وأنهاك عن اثنتيـن: آمرك بلا إله إلا الله، فإن السـماوات السـبع والأرضين السـبع، لو وضعن فـي كفة ووضعت لا إلـه إلا الله في كفة لرجحت بهن، ولو أن السـماوات السـبع والأرضين السـبع كن حلقة مبهمة لقصمتهن لا إله إلا الله، وسبحان الله وبحمده، فإنها صلاة كل شـيء، وبها يرزق كل شـيء، وأنهاك عن الشـرك والكبر»[2].

(١) سنده صحيح، رواه البخاري في الأدب المفرد (رقم ٥٤٨)، وغيره من طرق عن الصقعب بن زهير، عن زيد بن أسلم عن عطاء بن يسار، عن عبدالله بن عمرو قال: كنا جلوسا عند رسول الله ﷺ وعطاء وزيد عالمان ثقتان، والصقعب ثقة أيضًا.

(٢) هو جزء من الحديث السابق.

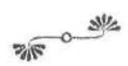
لم يكـن نوح يقصـد بالكبر لبـس فاخر الثيـاب والأحذية، وسـكن الفخم من المنـازل، واقتناء أفخر المراكب، ولا أن يحف بالمرء خدم أو حشـم أو أصحاب يجلسـون إليـه.. الكبـر الذي حـذر منه نوح هـو باختصار: (سـفه الحق، وغمص النـاس)[1]، أي رفض الحـق، واحتقار الناس.

بعـد تلـك الوصية البليغة بمـدة فارق نوح الحيـاة، بعد عمـره المديد بالنضال والدعـوة ونشـر الوعي، فبكاه أهله وأبنـاؤه وأحفاده، وبكته أمتـه، وظلت تحمل رسـالته مـن بعـده، جيلًا بعـد جيـل.. رسـالة التوحيد والعـدل، وكثـر أحفادهم، حتـى أصبحـوا شـعوبًا وقبائل، ثم تفرقـوا في قـارات الأرض.. يـروون للأجيال قصـة التوحيـد والطوفـان، الـذي اجتـاح أرض الأجـداد.. تفرقـوا فتشـققت من لغتهـم التـي لا يعلمهـا إلا الله لهجـات، ثم تطـورت تلـك اللهجات إلـى لغات، ونشـأت مـن بين تلـك اللغـات اللغـة العربية، وقـد انتشـرت القبائـل الناطقة بها فـي منطقة على شـكل شـبه جزيرة، سـميت فيما بعد شـبه الجزيـرة العربية، ومن بيـن تلـك القبائـل قبيلة اسـتقرت فـي جنوبها.. قبيلـة يقـال لها (عاد).. سـكنت مناطـق تتوافـر فيها الواحات الشـاعرية والعيـون العذبة.. في مسـاحات تمتد من حضرموت إلـى عمان.

منطقـة جميلـة، يقال لها (الأحقاف)، والأحقاف كثبـان رملية، أقل من الجبال ارتفاعًا.. كثبان تتشـكل بطريقـة طولية ومائلة جميلة، ويمكـن اليوم رؤية خطوط تلـك الأحقـاف الرمليـة البديعة عن طريـق صور الأقمـار الصناعيـة، وكان أهلها قـد برعـوا في بعض الحرف، حتـى أصبحت بلادهم مضرب المثـل في الإتقان.. اشـتهروا بفـن البناء، كما برعـوا بصنع الخيـام الضخمـة، ذات العمـاد الطويلة.. يتفننـون في صنع تلـك الخيام وجاهة وترفًا.. إنهـا ﴿إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ۝٧ ٱلَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي ٱلْبِلَـٰدِ﴾، مـرت سـنوات طويلـة، وإرم علـى التوحيد، تزداد قـوة ونهضة،

(١) سنده صحيح وهو جزء من الحديث السابق.

لكنَّ وباءً خطيرًا بدأ ينتشر في تلك البلاد الجميلة، وبين تلك الأمة القوية.. وباء متى ما حل بأمة قوَّضها وجعلها آيلة للسقوط، حتى لو كانت عملاقة ومهابة بين الأمم.



هود بن إرم

تغيرت قبيلة (إرم) الموحدة، التي حكمت جنوب الجزيرة العربية.. تسلل الغرور إليها.. أصبحت مزهوة بقوتها.. خاصة عندما انتشر بين قادتها وأفرادها شيء يهدد وجودها.. الشرك بالله، والظلم.. مصيبتان تعلنان بداية النهاية للأمم القوية. أصبحت (إرم عاد) باطشة ظالمة، وتفاقم الظلم والزهو حتى تجاوز الحد، وفي أجواء الغرور والوثنية تلك ولد طفل سماه أهله (هود).

نشأ هود على توحيد الله، ليكبر فيزيده الإسلام وعيًا وإدراكًا بتفاهة عقول تعبد خشبًا، تنجرها بأيديها، أو حجارة تقدها من جبل.. ظل هود بعيدًا عن أصنام قومه.. مناجيًا خالقه، وفي أحد الأيام هبط عليه جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ بالوحي، وأخبره أن الله سبحانه قد اصطفاه رسولًا، وأمره بالدعوة للتوحيد والعدل، فالله هو وحده الخالق والرازق ومالك الملك، وأعظم ذنب عنده هو الشرك.

امتثل هود صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وبدأ يدعو قومه، فإذ بمأساة نوح تتكرر.. رماه قومه بالسفه، واتهموه بالكذب، فقال لهم: ﴿يَٰقَوۡمِ لَيۡسَ بِي سَفَاهَةٞ وَلَٰكِنِّي رَسُولٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٦٧ أُبَلِّغُكُمۡ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَأَنَا۠ لَكُمۡ نَاصِحٌ أَمِينٌ﴾، لكن إرم ركبوا رؤوسهم.. رفضوا أن ينصتوا للنبي نشأ بينهم. حاول عَلَيْهِ السَّلَامُ إنعاش ذاكرتهم بما حدث لأسلافهم قوم نوح، وقال: ﴿أَوَعَجِبۡتُمۡ أَن جَآءَكُمۡ ذِكۡرٞ مِّن رَّبِّكُمۡ عَلَىٰ رَجُلٖ مِّنكُمۡ لِيُنذِرَكُمۡۚ وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ جَعَلَكُمۡ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعۡدِ قَوۡمِ نُوحٖ وَزَادَكُمۡ فِي ٱلۡخَلۡقِ بَصۜۡطَةٗۖ فَٱذۡكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾.

ظل يطوف بين سكان تلك العيون والواحات الساحرة والخيام المميزة.. يناشدهم التعقل، لكن صلفهم زاد، فلم يُسلم إلا قلة منهم، لكن هودًا لم ييأس.. ظل يحذرهم من الاغترار بما وصلوا إليه من قوة اقتصادية وعسكرية، ومظاهر عمرانية مبهرة، وأن عليهم شكر الله، فهو من أمدهم بأسباب القوة، وهو قادر على سلبها منهم في أي وقت، قائلًا: ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾ وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٣٠﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٣١﴾ وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمَدَّكُم بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ ﴿١٣٣﴾ وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٣٤﴾ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾، وإذ بالحجة البليدة تتكرر: الأصنام تراثنا وميراثنا الثقافي، ولن نتخلى عنه مهما قلت، و﴿سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ الْوَاعِظِينَ ﴿١٣٦﴾ إِنْ هَٰذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ﴾.. مرت سنوات لكن عناد إرم لم يمر، بل ازداد وتفاقم، حتى ارتكبوا شيئًا محا إرم، وطوّح بخيامها تلك الأحقاف.



حين تمطر السماء عذابًا

أصيبت إرم بالغرور.. استخفوا بكل شيء، حتى قالوا: ﴿مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾، تجاهلوا مناشدة ابنهم البار (هود ﷺ) بالتعقل.. تجاهلوا تذكيره بعذاب الله للمتجبرين، الذي أصاب قوم نوح، لكن صناديدهم كرروا تهور صناديد قوم نوح، حين طالبوه أن يأتيهم بالعذاب قائلين: ﴿أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَاؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾.

حينها اشتد غضب هود لهذا الصلف والاستخفاف بقوة الجبار سبحانه، ومن أجل ماذا؟ من أجل أخشاب وصخور يستطيع حتى الأطفال صنعها، لذا دعا عليهم، وقال: ﴿قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَءَابَاؤُكُم مَّا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ فَانتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ﴾، لم يكترث أولئك المتغطرسون، بل كابروا وقالوا:

﴿وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾، وفجأة نزل الوحي يخبره أن الوقت قد حان، وأن على المؤمنين المغادرة.

توجه هود لأتباعه فأمرهم بالاستعداد للرحيل المر، لينطلقوا بعدها نحو بيوتهم.. يجمعون أمتعتهم وما يحتاجونه، ثم شدوها على ظهور جمالهم، وودعت قلوبهم مراتع الصبا والذكريات، وعيونهم تفيض حزنًا على تلك العيون والواحات والذكريات، وما أقسا الرحيل عن الأوطان. أخذوا أزمَّة مطاياهم عبر الواحات.. بين الخيام العملاقة والنخيل الباسقة، ثم بدأت أقدامهم تنقش خطوات الوداع على الرمال.. غابت قافلتهم.. ترفعها أحقاف، وتخفضها أحقاف، فتنفس الطواغيت الصعداء، فلن ينغص الدعاة عليهم بعد اليوم عبادة أصنامهم ولا عبثهم، بل شعروا أن رحيلهم فأل حسن، فها هي السماء تحتفل معهم بسحاب، يحمل مطرًا، تتلمظ لقطراته الصحراء.. ابتهجوا، فقالوا: ﴿هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا﴾.

اقبل السحاب، ولما اقترب تغير.. أصبح داكنًا جدًّا.. أظلمت الأرض، وكأن الليل قد هبط قبل أوانه.. اقترب فإذا هو ليس بسحاب، بل إعصار يطاول السماء، يلتف حول نفسه.. يتلوى كقمع هائل، يكبر ويتضخم حتى سد الأفق.. خيم الليل في رابعة النهار، وتلاشى الحلم بالمطر.. بدأت حواف القمع تصل.. تملأ الأفواه والعيون والبيوت بالرمال.. فإذا هي ريح عقيم.. صرصر عاتية، تقتلع من في طريقها.. تقتلع الأعمدة الضخمة، وتجتث الخيام، تقل أطنانًا من الرمال، وكأنها تطوح بالأحقاف على إرم. كل شيء فوق الأرض يطير: الكثبان.. الجرائد.. الآلهة.. العسبان.. النخيل. وحتى الإنسان.

إرم يبتلعها الإعصار.. أجساد الأحياء وجثث الأموات، تتطاير طوال اليوم.. طوال الليل. دخل اليوم الثاني في الظلام، وكأن الإعصار قد طوح بالشمس.. أقبل اليوم الثالث والرابع والخامس وكذلك السابع بلا شمس بلا طعام أو شراب، من لم يمت بالريح مات جوعًا أو عطشًا أو تحت الرمال.. لا الليل ليل ولا النهار نهار.. رعب لا يتوقف، ولا يستثني أحدًا، وفي اليوم الثامن بدأت الريح تخف شيئًا فشيئًا حتى توقفت، وكأنها لا تريد التوقف غضبًا للجبار سبحانه.

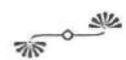
هبطت حبات الرمال الغاضبة على الأرض، وانقشع الظلام، وظهرت الشمس لأول مرة منذ أسبوع، فإذا الأرض غير الأرض.. لا عيون ولا آبار ولا واحات ولا نخيل ولا خيام ولا أصنام.. انطمرت تحت ملايين الأطنان من الرمال. أشرقت الشمس فإذا مدينة إرم بقايا مساكن.. امحت أمة أنساها الغرور قوة خالقها.. أصبحت كثيب رمل وقصصًا تروى، بينما أصبح هود وأصحابه عَلَيْهِمُ السَّلَامُ على أرض أخرى آمنة برحمة الله.. يعمرونها ويعيدون الاستفادة من خبرتهم التقنية في التشييد والإبداع بالتوحيد والعدل، لتمضي السنون، وتمضي سنة الله، فيكبر هود ويشيخ، ثم يموت ويموت صحابته، فتتلوهم أجيال من بعدهم أجيال وقبائل على التوحيد.. انتشرت في الأرض، وقد رحل بعضهم ليسكنوا بلادًا في جهة الشمال.. راقت لهم تضاريسها، فتفننوا في التعامل معها، حتى حولوها إلى أغرب بلاد الأرض.. يدخلها المسافر فيحتار: أبيوت هي على شكل جبال، أم جبال على شكل بيوت، أم معارض فنية في الهواء الطلق؟



تلك كانت المدائن أو ما يسمى بـ(الحجر): جمال ورمال ونخيل وبساتين ومنحوتات أبدعتها. قبيلة عربية أخرى تدعى ثمود توحد الله، وتبرع في فن

النحـت.. تتفنـن في تحويـل الجبل إلى قصر.. إلى بيت إلى نسـر إلى سـبع.. يمر بها المسـافرون، فتدهشـهم وتبهرهم، حتى تسـلل العجب إلى نفوس أهلها، بعد أن امتـلأت رؤوسـهم بالمديح، فظنـوا أن لا أحد مثلهم.

زهو أنسـاهم فضـل خالقهم عليهم. هنـا بدأ الانحراف، فبدلًا من أن يشـكروا الله، ويسـتمروا فـي الإبـداع.. انصرفـوا للابتـداع فـي الديـن.. لم يعـد النحـت فنًّـا فقـط.. تعلقـت الأجيـال الجديـدة منهـم بالمنحوتات، فكسـوها بالأسـاطير والخرافـات، حتـى غـدت أصنامًـا وآلهة يعبدونهـا، لتقربهـم إلى الله، ثـم تعلقوا بهـا ونسـوا خالقهم سـبحانه، وفي وسـط هـذه الثقافة بالغـة التخلـف، ولد طفل اسـمه (صالح).



الآية المخيفة

كبـر صالـح علـى التوحيـد.. مـدركًا أن هـذه المنحوتـات مهما بلـغ جمالها، تظـل صمـاء، لا تنفـع ولا تضـر، فاصطفـاه الله، وأنزل عليـه الوحـي؛ ليعيد قومه للتوحيـد. حـاول ﷺ تفعيـل عقولهـم، قائـلًا: ﴿يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ وَٱسۡتَعۡمَرَكُمۡ فِيهَا﴾.

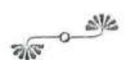
كان يذكرهـم بنعـم خالقهم سـبحانه، والناس تحب من يحسـن إليها بالقليل، فكيـف تتنكـر لخالقهـا ومانحهـا النعم، التـي لا تقدر بثمن. اسـتبد الغـرور بقوم صالـح، فلـم يؤمن معه إلا قلـة، أما الأكثريـة فأعمت العـادات والتقاليـد عقولها وقلوبهـا.. تكـرر الأقوال السـائدة والنمطية، التي كررها قوم نـوح وهود، وتقول: ﴿يَٰصَٰلِحُ قَدۡ كُنتَ فِينَا مَرۡجُوّٗا قَبۡلَ هَٰذَآۖ أَتَنۡهَىٰنَآ أَن نَّعۡبُدَ مَا يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِي شَكّٖ مِّمَّا تَدۡعُونَآ إِلَيۡهِ مُرِيبٖ﴾، لكـن صالحًـا بيـن لهـم أن دعوتـه ليسـت اختراعًـا منـه قائـلًا: ﴿يَٰقَوۡمِ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي وَءَاتَىٰنِي مِنۡهُ رَحۡمَةٗ فَمَن يَنصُرُنِي مِنَ

ٱللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُۥ فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ﴾، ظل يدعو وهم يكذبون، حتى أشرق ذلك اليوم المخيف.

يوم صمت فيه الجميع.. الشوارع والمارة.. اتسعت الأعين، وقطع المتحدثون أحاديثهم، وترك النحاتون تماثيلهم، والباعة بضائعهم ودكاكينهم.. تحولوا إلى تماثيل.. شلت المدائن.. شل كل شيء فيها أمام مشهد أخاذ.. نبي الله صالح صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يدخل المدينة، يتهادى في شوارعها، ومعه مخلوق مخيف، وكأنه يقتاد ديناصورًا ضخمًا.

ناقة عملاقة لا مثيل لضخامتها وطول رقبتها، ولا لارتفاع سنامها. من أين أحضرها؟ هل سيمزقهم بها، أم ستطحنهم بأخفافها، التي تهز الأرض.. نظرات السكان خائفة زائغة، لكن صالحًا صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ طمأنهم، وقال: ﴿يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً ۖ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ ۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾، ثم ذكرهم بالنعم التي أغدقها خالقهم سبحانه عليهم، فقال: ﴿وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا ۖ فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾.

سكنت مخاوفهم من الناقة، لكنهم لم يستفيدوا من ظهورها، فظهورها آية على صدق نبوة صالح، لكن الجشع والوسوسة والمنافكة بدأت تقلقهم تسألهم: ما الذي سيكفي هذا المخلوق العملاق من طعام وشراب؟ وقبل أن يفصحوا عما بأنفسهم، بين لهم صالح طريقة التعامل مع الناقة.. طريقة أثارت تسعة مجرمين منهم.



الناقة والمجرمون التسعة

قـدم النبـي صالح صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لقومه الناقـة آية من عند الله.. كانـت ناقة وحيدة، وليـس صحيحًـا أن لهـا ولـدًا (فصيـلًا)، لكـن منظرهـا الهائـل جعـل المشـاعر حولهـا، تتحـول إلـى حكايـات وقصـص، تتزيـن بهـا مجالسـهم، أمـا صالـح صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فأرشـد قومـه أهـل الحجر إلى طريقـة التعاطي معها، وهـي أن يتناوبوا علـى ورود العيـن، بحيـث يشـربون يومًا، ثـم يتركوا لهـا العين، لتشـرب هي في اليـوم الـذي بعده.

ثـم كرر صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تحذيره من المسـاس بهـا، قائـلًا: ﴿قَالَ هَٰذِهِۦ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿١٥٥﴾ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾، فهـي آيـة على صـدق نبوتـه، وهـم من طلـب آية تـدل على صـدق نبوتـه، لكن كل مـن يختلف معـك قـد يتفـق يومًـا، إلا المعانـد والحاقـد، وهـؤلاء المعانـدون شـعروا أنهم تورطـوا بهـذه الآية، ووجودها بينهـم يحرج بقاءهم على الوثنيـة.. وجودها يثبت صحـة نبوة صالـح، وهو أمر يثيـر جنونهم، لا سـيما وهم لا يعلمون مـدة بقائها، فكلمـا طالـت مدة بقائهـا طـال إحراجهم، لذا انقسـم أهـل الحجر حـول الناقة، ﴿فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ﴾.

قسم مع الحق مع التوحيد والعدل.

وقسم آخر مع الفوضى والوثنية وتقديس العادات والتقاليد.

أمـا الناقة فظلت تجـوب الحجر، وتدهـش المدائن.. يتمايل سـنامها الضخم فـي الطرقـات، وهـي تـدب دون قائد في اليـوم المحدد لشـربها، ثـم تتوقف أمام العيـن، فتخفض رأسـها، وتحنـي رقبتها العملاقـة، لتعب من المـاء حتى ترتوي، ثـم يحلبونها بكميـات هائلة، تزيد يقين المؤمنين، وشـكر الشـاكرين، وتثير حقد الوثنيين، وتُشـعرهم بالهزيمة فيـزدادون صلفًا.

مـرت الأيام والحقد يتورم، كسرطان في نفوس الوثنيين، وكان من أشرسـهم ﴿تِسۡعَةُ رَهۡطٖ يُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا يُصۡلِحُونَ﴾، تسـعة أشـقياء يعرفـون الحق، ويصـرون علـى حربـه، فالحقـد ينغـص عليهـم طعامهـم وشـرابهم، ويقـض مضاجعهـم.. لهم وشوشـة فـي الطرقات، كلمـا رأوا صالحًا وما جاء بـه.. بدؤوا يعقـدون الاجتماعـات علهـم يصلون إلى طريقـة، يتخلصون بها منـه، فلن يطيب لهـم عيـش، إلا بالتخلـص منـه، ولـن يطيقـوا الحجـر، وهو يمشـي على ثـراه.. طفـح كيلهم، فعقـدوا اجتماعًا أخيـرًا.. تداولوا الأفكار الشـريرة، وبعـد التداول والتشـاور انتهـى الاجتماع، وتفرق الأشـرار التسـعة بعـد أن اتفقوا علـى أمرين: أحدهما أسـوأ مـن الآخر.

أمران أقسموا على عدم التراجع عنهما مهما كانت الأسباب.



من هو قدار بن سالف؟



عقـد الوثنيون الأشـرار التسـعة اجتماعًا حاسـمًا، اتخذوا فيـه قرارين: الأول: القضـاء علـى صالـح ﷺ وأسـرته، ثم القسـم علـى إنـكار أن لهم يـدًا في المجـزرة، وقـد حكـى القـرآن ذلك فـي قـول الله تعالـى: ﴿وَكَانَ فِي ٱلۡمَدِينَةِ تِسۡعَةُ رَهۡطٖ يُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا يُصۡلِحُونَ ﴿٤٨﴾ قَالُواْ تَقَاسَمُواْ بِٱللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهۡلَهُۥ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِۦ مَا شَهِدۡنَا مَهۡلِكَ أَهۡلِهِۦ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ﴾.

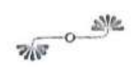
أمـا الأمـر الآخر، فهو القضـاء على آية صالـح، ودليل صدقه، وهـي (الناقة)، لأن بقاءهـا وترددها بينهم يعنـي المزيد من الإحراج، وقد تطـوع للقيام بالجريمة الثانيـة شـقي يميـل لونـه للحمـرة، اسـمه (قـدار بـن سـالف). انفـض الاجتماع بحمـاس شـديد، بينما كان الشـر يفرك يديـه فرحًا.

مـرت الأيـام وجاء موعـد الغدر بصالـح وعائلته، لكـن العملية أجلـت، ربما لصعوبـة المهمـة وكثرة المسـتهدفين، لذا تـم الانتقـال للخطة الثانيـة، وهي عقر الناقـة، لأنها هـدف واحد، وهدف سـهل.

حـدد الأشـقياء موعـد التنفيذ، وتصـدى الأحيمر (قـدار بن سـالف) للمهمة، وفي اليوم المحدد تسـلل المجرمون الثمانية: كالحيـات لرصد الطرقات المؤدية إلـى مـكان الناقة.. يتلفتـون، يرصدون، ويتهامسـون، حتى خلت لهـم الطرقات، وصفـت الأجواء، وأصبحت الناقـة لوحدها، وإذ بقدار يتعاطى رمحه أو سـهمه، ويقبـل كالشـيطان نحوهـا.. وضـع سـهمه القاتل فـي كبد القـوس، ثم شـد الوتر إلـى منتهـاه، ثـم أطلق السـهم قذيفة، شـق أزيزهـا الهـواء، حتـى اخترقت جوف الناقة.

دوى فـي الحجـر صـوت رغاء هائـل.. رغـاء رددت الجبـال صداه، فانقشع الجنـاة من الطرقات، وفروا مـن مكان الجريمة كالفئران، لكنهـم تركوا بصماتهم عنـد عـلام الغيـوب. انفجـر جـرح الناقـة العملاقـة شـلالًا مـن الدمـاء، وبدأت تترنـح، ورقبتهـا تتمايـل، ورغاؤهـا الحزين يذيـب القلوب.

فتحـت الأبـواب، وخـرج أهـل الحجـر مـن البيـوت فزعيـن.. نزفـت الناقـة ونزفـت، ثـم هـوى جسـدها الضخم بـالأرض، وارتطـم ببحيـرة الدمـاء، فتطاير الـدم حولهـا، وكأنـه يسـتنجد.. ظلـت رقبتهـا تتلـوى، تتلـون بالـدم مـن الألم، ورغاؤها يخفت شـيئًا فشـيئًا حتى اختفى، وسـكنت الناقة سـكون الموت، وكأن قلـب المدائـن قد توقـف.. صعـق المارة ببركـة الـدم، وركض البعـض يصيح.. يخبـر صالحًـا بما جـرى.. صُـدم ﷺ بالخبـر، فأقبـل مفجوعًا، ثـم توقف أمـام السـاحل الأحمر.. يتأمل الناقـة الغارقة، يتأمـل آية الله بعينيـن غارقتين، وإذ بـه يأمـر أتباعه بأمـر مخيف.



تمتعوا ثلاثة أيام فقط

أقبل النبي صالح ﷺ نحو الناقة مفجوعًا، ولما توقف أمام بحيرة الدم، تأمل آية الله بعينين تفيضان.. أوجعه صلف الوثنية، وغطرسة طواغيتها.. انتهت المدائن بالنسبة له، ولم يعد في الحجر الحبيبة متسع، لذا توجه نحو عيون أصحابه الدامعة حزنًا، وطلب منهم التأهب للرحيل، فانطلقوا على الفور نحو بيوتهم وبساتينهم، يجمعون أمتعتهم وطعامًا يبلغهم في سفرهم، ثم التفت صالح بحزن إلى قومه المتكبرين، الذين أمضى معهم عشرات السنوات من التنوير والدعوة للتوحيد.

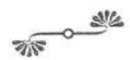
حدق بوجوههم الصفيقة المبتهجة بقتل حيوان، كل ذنبه أنه دليل على صدق التوحيد، وصدق نبيهم، وأنه يمدهم بالغذاء، لكن صالحًا ليس هو من سيغادر رغم رحيله.. هم من سيغادر رغم بقائهم. تأمل عيونهم، التي يتطاير منها الشرر، وتصفح تقاسيمهم المتشفية، ثم نطق بأحرف كالموت: ﴿تَمَتَّعُواْ فِي دَارِكُمْ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍۖ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ﴾.



سارت قافلة المؤمنين خلف نبيهم، الذي اعتصر قلبه حزنًا، وهو يودع دياره.. ساروا بين الجبال المنحوتة، وقلوبهم تعصف بها لوعة فراقها.. تركوا المدائن للوثنيين، الذين اختلطت مشاعرهم: منهم الفرح بمغادرة المؤمنين، حتى تخلو لهم أجواء الفساد والوثنية، وهناك الإمعات التي تقاد.. لا تعرف معروفًا، ولاتنكر منكرًا.. إمعات تتساءل: لماذا ثلاثة أيام. ها قد غابت شمس اليوم الأول، ثم طلعت شمس اليوم الثاني ثم غابت، ثم طلعت شمس اليوم الثالث وارتفعت، فارتفعت معها مشاعر الترقب والقلق، ثم غابت، وفي صبيحة اليوم الرابع صحا الوثنيون من نومهم المضطرب.

وفجأة فتحوا عيونهم لكنهم لم يغلقوها.. دوت صيحة هائلة في سماء المدائن.. صيحة صدعت الجبال، وارتجفت منها الأرض، وخلعت القلوب، وانتزعت الأرواح ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَـٰثِمِينَ﴾.

أصبحت ثمود متحفًا مهجورًا للتماثيل والجثث.. اكتسحتها غزوة بلا غزاة، فإذا هم قتلى بلا سيوف بلا رماح، فالدم المسفوح كان دم الناقة فقط.. جثث هنا وجثث هناك.. جثث في الغرف والممرات والأبواب وعلى الأسطح وفي البساتين والطرقات والساحات، وغربان هنا ونسور هناك.. تنقر الجماجم والعيون، وتبقر البطون، وتلتهم الأحشاء.. لم تعد المدائن جميلة.. لم يعد أحد يريد النزول بها، ولا الشرب من مائها.. كل الذي يفعله العابرون هو تغطية الأنوف، فرائحة المدائن تزكم الأنوف عفنًا.



إبراهيم في العراق

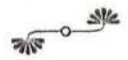
لم تعد مدائن صالح جميلة.. لم تعد نظيفة.. تناثرت على أرضها الجثث.. تنهشها الحيوانات الرامة والنابشة، وازدحمت السماء بالغربان والنسور.. كان ساكنوها يتطيرون، ويتشاءمون بصالح وصحابته المؤمنين، ويقولون له: ﴿ٱطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ ۚ قَالَ طَـٰٓئِرُكُمْ عِندَ ٱللَّهِ ۖ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ﴾، فحولتهم الغطرسة إلى مدينة مشؤومة.

المدائن الفاتنة أصبحت مدينة أشباح، تجوبها الغربان والرعب، أما صالح صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فعلم بما جرى، وأن قومه ﴿فَأَخَذَتْهُمْ صَـٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾، صاعقة دمدمت عليهم حتى أفنتهم، فخاطبهم من بعيد بعد أن تولى ﴿عَنْهُمْ وَقَالَ يَـٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَـٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّـٰصِحِينَ﴾، حل المؤمنون في أرض جديدة، فعمروها بالتوحيد والإبداع

والعدل، ومرت القرون تلو القرون، والحجر مهجورة تبكي التوحيد.. تبكي صالحًا وأصحابه الطيبين، ويبث صمتها شوقًا للأحبة لا يطاق.. عاد التوحيد للانتشار، لكن الشيطان ظل يوسوس للبشر.. يغريهم بالشرك.. بعبادة الحجر والشجر وحتى البقر.. بعبادة أي شيء.

المهم عند الشيطان أن لا يعبدوا الله وحده، ومن العبادات التي انتشرت.. عبادة الكواكب خاصة في العراق والشام، وكان في العراق رجل وثني اسمه آزر، وقد رزق بعدة أبناء، من بينهم طفل سماه إبراهيم.. نشأ الطفل في تلك البيئة، لكن عقله كان أكبر من أن يكون وعاء للتقاليد البالية.. تزوج من فتاة عاقلة، بارعة الجمال تدعى سارة.. كان كثير التأمل لهذا الكون وكواكبه، فأدرك أن له خالقًا ليس كمثله شيء، لذا فهو وحده سبحانه يستحق العبادة، أما تلك الأصنام فليست سوى حجارة، لا تصلح حتى للزينة، فاصطفاه الله لرسالته، وأنزل عليه الوحي، وأمره بإيقاظ قومه.

بدأ إبراهيم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالأقربين.. بدأ بأبويه. خاطب والده بأسلوب عذب ولطيف، فقد كان إبراهيم متعلقًا بأبيه.. يحبه ويجله، ويتمزق قلبه وهو يراه على الوثنية لذا خاطبه، قائلًا: ﴿يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا﴾، العقل يقول ذلك، والوحي يؤكده، وأن ما سوى التوحيد هراء وتخاريف، فلا الأصنام تنطق أو تتحرك أو تمنح أو تمنع.. كان إبراهيم متعلقًا بأبيه.. يحبه ويجله، ويتمزق قلبه وهو يراه على الوثنية. قال إبراهيم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لأبيه: ﴿يَٰٓأَبَتِ إِنِّى قَدْ جَآءَنِى مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِىٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا﴾، لكن يبدو أن قلب الوالد قد قسا، كتلك الحجارة التي يعبدها.. انفجر في وجه ابنه البار، وهدده برجمه بالحجارة إن لم يكف عن دعوته للتوحيد.





حوارات إبراهيم

لم يتراجع النبي إبراهيم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن دعوة والده، وكيف يتراجع ورؤية والده عاكفًا على الأصنام كالخنجر في قلبه، وهل هناك أقسى على قلب ولد بار من رؤية والد مشرك يعبد غير خالقه سبحانه، لذا توجه إلى أبيه آزر، وأخبره عن الشيطان، الذي لن يقنع من ذرية آدم إلا بالركوب معه للجحيم، وقال: ﴿يَٰٓأَبَتِ لَا تَعۡبُدِ ٱلشَّيۡطَٰنَۖ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ كَانَ لِلرَّحۡمَٰنِ عَصِيّٗا ﴿٤٤﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٞ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيۡطَٰنِ وَلِيّٗا﴾.

انتفض آزر.. فقد صوابه.. أخذته العزة بالإثم: كيف لطفل الأمس أن يوجه أباه الذي وخطه الشيب.. غلا تعصبه للموروث على العقل، وقدم التقليد على التفكير، فطلب من ابنه إبراهيم عدم التحدث معه في هذا الموضوع، بل هدده قائلًا: ﴿أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنۡ ءَالِهَتِي يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُۖ لَئِن لَّمۡ تَنتَهِ لَأَرۡجُمَنَّكَۖ وَٱهۡجُرۡنِي مَلِيّٗا﴾، شعر إبراهيم بحزن شديد على أحب الناس إليه.. والده الذي يريده أن يكون من أهل التوحيد والجنة.. نظر إليه بعينين تفيضان رحمة، وخاطبه بكلمات تقطر برًا، وقال: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيۡكَۖ سَأَسۡتَغۡفِرُ لَكَ رَبِّيٓۖ إِنَّهُۥ كَانَ بِي حَفِيّٗا﴾.

خرج صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من عند والده مجروحًا، لكن النبوة أمانة، والتوحيد رسالة، ولا بد أن يوصلها لكل فرد من قومه، وخسارته لوالده لا تعني إهمال غيره.. توجه لقومه في أنديتهم وأسواقهم وشوارعهم وبساتينهم، وحتى في بيوتهم.. لم يترك وسيلة ناجعة إلا استخدمها، ولا حجة إلا أفحمهم بها.. يخاطب عقولهم: كيف يقارنون خالقهم العظيم بجذع نخر أو صخرة صماء، ﴿قَالَ لِقَوۡمِهِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُۖ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿١٦﴾ إِنَّمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوۡثَٰنٗا وَتَخۡلُقُونَ إِفۡكًاۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمۡلِكُونَ لَكُمۡ رِزۡقٗا﴾، نبههم إلى أنهم عائدون إلى الله، فبم سيجيبونه غدًا؟ وقال: ﴿فَٱبۡتَغُواْ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزۡقَ وَٱعۡبُدُوهُ وَٱشۡكُرُواْ لَهُۥٓۖ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾.

انتفض الوثنيون انتفاضة والده آزر.. طلبوا أن يكف، ففي تراثهم الوثني ما يكفي، قائلين: ﴿وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ ﴿٥٣﴾ قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾، ثم أخبرهم أنه حامل رسالة، ولا طموح له بمنصب أو جاه أو مال، حتى يتهموه.

ذكرهم بشيء مفزع.. ذكرهم بمصير الأمم الطاغية قبلهم، قائلًا: ﴿وَإِن تُكَذِّبُوا۟ فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ۖ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾، كانت غربة إبراهيم مرة.. لم يؤمن به سوى زوجته وابن أخيه (لوط)، ولا يسليه سوى ذكر ربه، حتى إنه طلب منه سبحانه يومًا طلبًا غريبًا.



إبراهيم والطيور الأربعة

كان الرسول إبراهيم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يعيش بين قومه في غربة، لا يذهبها سوى مناجاة ربه وحبيبه سبحانه، حتى إنه طلب من ربه طلبًا غريبًا، فقال: ﴿رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾، فقال له الجبار: ﴿أَوَلَمْ تُؤْمِن﴾ فقال: ﴿بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى﴾، فأوحى إليه: أن يأخذ أربعة طيور، ثم يقطعها كيفما شاء، وقال: ﴿فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا ۚ وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾.

أخذ إبراهيم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الطيور الأربعة، ثم ذبحها وقطعها قطعًا، ثم خرج حتى أصبح بين مجموعة من الجبال. انطلق نحو جبل، فصعده ووضع قطعة على قمته أو سفحه، ثم اتجه نحو ذاك الجبل، وكرر فعله.

ظل إبراهيم يصعد هذا الجبل، وينحدر من ذاك، حتى انتهت القطع، ثم مشى حتى أصبح في نقطة تحيط بها كل تلك الجبال، ثم توقف، وقلبه يخفق بانتظار معجزة خالق السماء والأرض، وما بينهما من مجرات ومخلوقات..

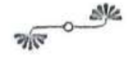
الجبـار الـذي إذا أراد شـيئًا قال له: كن فيكون، ثم رفـع ﷺ عقيرته، وصاح بالأوصـال.. هتف بمزع اللحـم يناديها.

وفجـأة اقشـعر بدنـه، وزاد خفقـان قلبـه، وسـبح ربـه، وهـو يشـاهدها تلتئم، ترفـرف في السـماء، ثم تقبل عليه؛ لتسـتقر بين يديه اللتين قطعتهـا قبل قليل.. آية شـحنته يقينًـا ومعنويـات، لا حـدود لها، فتناسـى عنـاد قومه، وعـاد لدعوته بطاقة لا حـدود لهـا.. ظل يدعو باللطف بالحسـنى، فلم يجد إجابة، لا مـن بقية عائلته، ولا مـن قومـه، بـل تفاقـم عنادهـم، وتعاظـم تعصبهـم، فالتقاليـد والموروثـات أمسـت كالجـرح المتعفـن، وتطهيرها سـيثير ألمـًـا لا يطاق، ويحتـاج إلى عزم، وإبراهيـم مـن أولي العزم، لذا قـرر ﷺ القيام بصدمة، قـد توقظهم من هذه البـلادة والغبـاء، فاختـار للقيـام بذلك وقتًـا ملائمًا، وهـو ليلة احتفالهم بمناسـبة وثنيـة، يقدمـون فيها طقوسًـا أو طعامًا وقربـات لأصنامهم.

نظـر إبراهيـم للسـماء، وحـدق بالنجوم.. إنـه الموعـد، وها هم فـي طريقهم لاحتفالاتهـم وبعـض قومـه ينادونـه للمشـاركة. اعتـذر إبراهيـم، وقـال: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾، فانصرفـوا وتركوه، وفي أثنـاء انصرافهم همس ﷺ قائلًا: ﴿وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ﴾.

سـمعه بعضهـم، لكنهم لم يأبهـوا، بل توجهـوا لمعبدهم، وقاموا بطقوسـهم، وقدموا قرابينهم لأخشـابهم وحجارتهم، التي يسـمونها آلهة، بينما كان ﷺ يراقـب من بعيد.

انتهـت الطقـوس، وبـدأ الكهنة والـزوار بالمغـادرة، حتى خلا المعبد، وسـاد فيـه الصمـت، ولما خلـت الطرقات تسـلل إبراهيم نحـو المعبد يحمل فأسًـا.



القبض على إبراهيم

دخل النبي إبراهيم صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ المعبد بعد انصراف الوثنيين.. يحمل بيده اليمنى فأسًا، أو أداة معدنية، تستخدم لتحطيم الصخور أو الاحتطاب. وقف الخليل أمام مدخل المعبد.. جال بصره بداخله، فلم يجد فيه حركة، سوى انتفاض ألسنة لهب المشاعل.. تهادى بين الأصنام البليدة، ثم وضع الفأس على الأرض، ثم مد يده والتقط طبق طعام تركه قومه بعد احتفالهم، ثم تهادى به حتى وقف أمام أحد الأصنام، ومده نحو فمه.

حدق بوجهه، الذي تلونه أضواء المشاعل، ثم خاطبه وخاطب غيره من الأصنام، قائلًا: ﴿أَلَا تَأْكُلُونَ﴾؟، لم تتحرك تلك الشفاه الصخرية، وساد الصمت، فصاح في وجوهها: ﴿مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ﴾؟، ولو رآه أحد عابديها لقال: لقد جن إبراهيم، كيف يخاطب حجارة؟ لكن الوثني لن يسأل نفسه: كيف أعبدها؟ طاف إبراهيم بينها، فلم يجد إجابة، فوضع الطبق على الأرض، فاليوم ليس يوم طعام، ثم انحنى نحو فأسه، والتقطه بيمينه، ثم عاد لإكمال حواره.

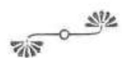
وإذ بالفأس ترتفع في الهواء، ثم تهوي كالقذيفة على هاماتها البليدة، ﴿فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ﴾، ضربة بعد أخرى.. تتوالى الضربات، والجدران تردد صدى الضرب، وارتطام الحطام بين بقايا الطعام، والأصنام تترنح.. تتشقق.. تتحول إلى شظايا ﴿فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ﴾، ثم وقف أمام أكبر الأصنام فلم يحطمه.. تركه شاهد عيان، ثم ألقى الفأس عنده، وغادر المعبد بعد أن حول الآلهة إلى نفايات.. منتظرًا نتيجة الصدمة، التي ستدوي غدًا؟

ارتفعت الشمس، واستيقظ كهنة الدجل، ثم توجهوا نحو معبدهم، ومصدر رزقهم.. دخلوا ببطء، لكنهم خرجوا بسرعة، للشوارع، للميادين، يصرخون، يولولون. لم يستغيثوا بآلهتهم. كانوا يستغيثون لآلهتهم.. لشظايا آلهتهم.

علا الصـراخ واللطـم والعويـل فـي الطرقـات، ففتحـت الأبـواب والنوافـذ، وأطلـت الـرؤوس تتلفـت.. تبحـث عـن مصـدر الصـوت.. انطلقـت عشـرات الأسـئلة، فانتشـر خبـر التحطيم، فخـرج الوثنيـون مذهوليـن.. أطلقوا سيقانهم نحـو المعبـد، ولمـا دخلـوا اتسـعت أعينهـم، وتعالـى الصيـاح: ﴿مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، امتـلأ المعبـد بالضجيـج.

وفجـأة صاح الذين سـمعوا إبراهيـم، وهو يهدد الأصنـام، فقالوا: ﴿سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ﴾، أجـل.. إبراهيـم، ومن غيره؟

صدر أمر الكهنة بالقبض عليه، و﴿قَالُوا۟ فَأْتُوا۟ بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعْيُنِ ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ﴾.



اتركوا إبراهيم فالجاني أمامكم

انطلقـت مجموعـة مـن الوثنييـن تبحـث عـن رسـول الله إبراهيم ﷺ، فلـم يجـدوا صعوبة فـي العثور عليـه، فتم اقتيـاده مخفـورًا نحو مـكان النفايات، وهـو في غاية السـكينة، كان يتهادى بهدوء، عبر سـرادق من الوجـوه المكفهرة.. تـكاد تحرقه بنظراتها وشـتائمها، حتى أوقفوه أمام كبار الكهنـة المتاجرين بعقول البسـطاء، ليبـدؤوا اسـتجوابه: ﴿ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ﴾؟.

تأملهـم، فقـرر كشـف حجم عقولهـم.. رفع يـده، ومدها نحو أكبـر الأصنام، فالفأس تحته، وقـال: ﴿بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ﴾.

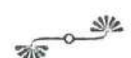
اضطـرب المعبد، ونظر الوثنيـون إلى بعضهم، وتعالى الضجيـج واللغط، بل هنـاك مـن اعترف، وأيد إبراهيـم قائلًا: ﴿إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾، نجـح إبراهيم في تفعيـل تلك العقول الخشـبية، فتسـاءلت: كيف نلومـه، والفأس بيـن يدي صنمنا الأكبـر؟ ألا يمكن أن يكـون هو الفاعل؟ أو ليـس هو إلهنا؟

لكن، ألسنا نحن من قطعه من الغابة، أو قده من الصخر؟

شعروا بالخجل.. بالغباء، لأنهم لا يستطيعون طرح سؤال قصير ومباشر على الصنم، مع أنهم يدعونه، ويستغيثون به ليل نهار، ويقدمون له القرابين؟ سؤال من عشرة أحرف (أأنت فعلتها؟) لن يكلفهم طرحه شيئًا، لكنهم سينكشفون إن هم فعلوا.. يا لها من ورطة! وضعهم فيها الخليل صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

فكروا وفكروا، فقرروا الفرار إلى الأمام.. إلى العناد: أجل إنهم سيعبدونها، حتى وإن كانت بكماء صماء. هنا وصف الله انتكاسهم وصفًا مذهلًا، فقال سبحانه: ﴿ثُمَّ نُكِسُواْ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ﴾ نكسوا، وكأن عقولهم تحولت إلى أحذية ليست للتفكير، بل للتبرير.. تبرير العادات، فقال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُواْ نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ ﴿٧١﴾ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴿٧٣﴾ قَالُواْ بَلْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ﴾.

تأفف إبراهيم من تفاهة العقول، وأدرك أن قومه أعداء للتفكير، قائلًا: ﴿أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾، ثم أعلن المفاصلة ﴿قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّيٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٧﴾﴾، ثم كشف لهم الفارق بين الانحطاط والسمو.. وبين أخشابهم وبين خالق الكون سبحانه ﴿ٱلَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَٱلَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَٱلَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِيٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيٓـَٔتِي يَوْمَ ٱلدِّينِ﴾، كلمات أصابتهم بالجنون، فتشاوروا، وقرروا القيام بعمل أسوأ من الجنون.



محاكمة بلا قضاة

زلزلت كلمات إبراهيم صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ المعبد والأصنام والوثنيين.. كلمات تفيض تمجيدًا وعرفانًا للخالق سبحانه.. كلمات تقول: لو أنكم عرفتم الله



حقًّا لما عبدتم حجرًا أو خشبة من خلقه. عجزوا عن الرد، فلجؤوا لحيلة الفاشل.. قرروا محو ملف إبراهيم تمامًا، فهو إن استمر في طرح أدلته العقلية، ووحي ربه المقنع، فسيكسب أتباعًا، ويسقط دينهم المزيف، لذا حبسوه، ريثما يقررون طريقة للتخلص منه، ثم عقدوا اجتماعًا تداولوا فيه كيفية ذلك، وبعد المداولات قرروا ما يلي:

أولًا: حرق إبراهيم حيًّا.

ثانيًا: تكون عملية الحرق مؤلمة لإبراهيم ورادعة لغيره، وذلك ببناء برج مرتفع، يوضع إبراهيم على قمته، ثم يرمى وسط نار عظيمة تحت البرج، ليشهد الجميع مصيره. قالوا: ﴿ٱبْنُوا۟ لَهُۥ بُنْيَٰنًا فَأَلْقُوهُ فِى ٱلْجَحِيمِ﴾، تم إصدار الأمر بالبناء، فانطلقت سواعد العمال والبنائين تقد الصخر وتبني، وكلما وضعوا حجرًا دنا الموت من إبراهيم، وبعد أيام ارتفع البناء ارتفاعًا، يمكن الجماهير من رؤيته، وهو يهوي في النار.

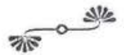
تم تحديد يوم الإعدام، فانطلقت مجموعة من الحطابين، تحمل الفؤوس تجتث الأشجار اليابسة، ثم تحملها نحو البرج، حتى توافرت أمام مقدمته أكوام هائلة من الحطب. مرت الأيام وإبراهيم محتسب في زنزانته، ثم طلعت شمس يوم الإعدام على المدينة.

فتحت أبواب المنازل، فلم تنطلق الخطوات نحو الدكاكين والأسواق، ولا نحو المزارع.. خرج الرجال والنساء نحو البرج، مكان الإعدام. منهم من يمشي، ومنهم من يركض.. تسكنهم مشاعر مختلفة.. منهم الفرح كالكهنة وبقية الوثنيين، ومنهم من تختلط داخله مشاعر الحزن بالغضب كوالد إبراهيم، ومنهم ينفطر قلبه مثل والدته وسارة ولوط، اللذين أمضوا ليلة حزينة، وفارقهم فيها النوم، فلن يروا حبيب القلب بعد اليوم.. احتشدت المدينة خلف أكوام

الحطب الهائلة، وقام بينهم وبين الحطب جلادون يحملون مشاعل اللهب، وسط صيحات الرعاع وحماسهم.

حضر كهنة المعبد، وقادة المدينة، وكبار القوم، ومن بينهم آزر والد إبراهيم، يسحب خطاه.. مد الجلادون المشاعل الملتهبة، نحو أكداس الحطب، فامتدت ألسنتها حريقًا هائلًا، واللهب يعلو، يلفح وجوه الحشود، ويتطاير منه الشرر، فيتراجعون اتقاء شره.

وفجأة دبت حركة لوت أعناق المتفرجين، وأدارت رؤوسهم.. خليل الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يسوقه الزبانية نحو البرج، وهو يرسف في قيوده، ثم بدأ يصعد نحو القمة، وهو في قمة الهدوء.



دعوة مظلوم على منصة الإعدام

جلبة وأصوات وحركة، لوت أعناق المتفرجين، أمام البرج وحول أمواج الجحيم.. وأدارت رؤوسهم.. حدقوا، فإذ بخليل الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يحيط به الجلادون.. يسوقونه نحو منصة الإعدام. أوقفوه وراء البرج، الذي تتأجج النيران أمامه، ثم بدؤوا يصعدون به، وإذ بمشاعره ترفرف قبلهم نحو السماء نحو الله.. غير آبه بمن حوله من همج، يهتفون للأصنام والظلم، ﴿حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ﴾.

كان إبراهيم صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يلهج بذكر الجبار.. يلوذ به ويحتمي.. يستغيث به سبحانه، فاختفت أمامه قوى الأرض، فلم يعد يرى سوى قوة خالق السماوات والأرض، وفجأة أطبقت عليه قبضات الجلاوزة.. رفعته في الهواء، ثم طوحت به نحو ألسنة اللهب، وهو يردد الكلمة الملاذ.. الكلمة المعجزة، حين تخرج



مـن القلـب: ﴿حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾، فـإذ بالكلمـة الخالقـة تقـول للنـار: ﴿يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾.

تعالـى الضجيـج وإبراهيم يطير فـي الهواء، ثم ينغمس بين أمـواج النار، فيتطاير شررها وجمرها، ويزداد حسيسها. اختفى إبراهيم تمامًا خلف أسوار اللهب، وسط حمـاس الغوغـاء، لكن حماسـهم خفت شـيئًا فشـيئًا حتـى اختفى. كانـوا ينتظرون صراخه، أو اسـتغاثته، أو حتى أنينه، لكنهم لم يسمعوا، ولم يروا له تخبطًا أو تلبطًا، ولم يشـموا رائحة شـواء.. انحبست أنفاسهم، وشلت ألسـنتهم، لا يدرون ما الذي يجـري داخل قلعة النار، ولا يسـتطيعون الاقتراب منها للتحقق.

وفجـأة اتسـعت أعينهـم، وفغـروا أفواههـم، وتحنطـوا أمـام مشـهد مخيف. ما هـذا؟

إبراهيـم يتهادى فوق الجمر وبين الشـرر.. يخرج سـليمًا بيـن أقواس اللهب، التـي تقلـه وتظلـه، وكأنـه يتنزه بيـن أغصـان حديقـة بـاردة الأنسـام. لا حروق، ولا جـروح، ولا حتـى شـعور بالحـرارة.. ارتفعـت التأوهـات، وفاضـت عينـا سـارة، وتهلـل وجـه لـوط، وهما يريـان قـدرة الجبـار، وضعـف الطغـاة، الذين شـعروا بالجمـر، ينتقـل مـن قلب اللهـب إلـى صدورهم.

حـدق إبراهيم في وجوه القـوم، وكأنه يقول لهم: هل تريـدون دليلًا أقوى من هـذا على صـدق نبوتـي، وتوحيد ربي سـبحانه، ثم غـادر المكان تـاركًا الجموع حطامًـا كأصنامهم بالأمس.

توجـه نحو ربه، الـذي اصطفاه وابتـلاه ونصره، فقـال: ﴿رَبِّ هَبْ لِى حُكْمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٣﴾ وَٱجْعَل لِّى لِسَانَ صِدْقٍ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿٨٤﴾ وَٱجْعَلْنِى مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨٥﴾ وَٱغْفِرْ لِأَبِىٓ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٨٦﴾ وَلَا تُخْزِنِى يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴿٨٧﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾، وإذ بـه وهـو في أوج الانتصار يتلقـى عتابًا من الله.

محطات خطيرة في الطريق للقدس

كان حب إبراهيم صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لأبيه حب الابن البار، الذي يحدب على شيخ عنيد قاس القلب، لكن الله كان أرحم بهذا القلب الطيب من أن يذهب من أجل عدو لله، لا يريد أن يرحم نفسه، لذا أمره أن يكف عن الاستغفار له، فقال سبحانه: ﴿وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ﴾، فهذا الشيخ المعاند لا يريد رحمة الله، ولا يأبه بها، ولا يقيم وزنًا لمن خلقه، وأعطاه السمع والبصر.

امتثل إبراهيم، ثم طلب من سارة ولوط الاستعداد للرحيل، فلا مكان لهم بين الوثنيين، فقال لوط لوالديه وأهله: ﴿إِنِّى مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾.

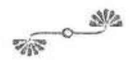
هاجر الثلاثة عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، مثقلين بوجع الفراق، فالأهل قساة، والأقربون تحولوا إلى أعداء.. امتطوا رواحلهم نحو الديار المقدسة في الشام.. يقطعون الفيافي والقفار.. بين الأودية والجبال، حتى مروا ببلاد يعبد أهلها الكواكب. ربما كانوا متأثرين بفلسفة ما، فبعض الفلاسفة يرون أن الكواكب والنجوم أطياف خالدة، أرقى من الإنسان، ولها تأثير على روحه، بل ليست ترابًا وصخورًا، كما اكتشف العلم الحديث.



حط المؤمنون بتلك البلاد،، فرآها الخليل فرصة للتنوير، ونشر الوعي. وكعادته اختار التوقيت المناسب، لتعرية التخلف. الليل، حيث تنتثر الكواكب، فتلهب المشاعر، وحين تلتهب مشاعر ضعاف العقول، يصبحون كتلة من العواطف المندفعة، التي تتأثر بأشياء، فتتخيلها على غير حقيقتها، لذا أراد تفعيل عقولهم وإيقاظها، فتقمص شخصية من يتأثر بالشيء فيعبده. اجتمع بهم بعد الغروب ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْأَفِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِى رَبِّى لَأَكُونَنَّ مِنَ

ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّى هَٰذَآ أَكْبَرُ ۖ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا ۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾.

نظر الوثنيون إلى بعضهم.. صدمهم إبراهيم بكلماته الواعية، وهو يريهم كيف أن الوثني بلا عقل، حين يعبد جمادات مسيرة، لاتستطيع حتى تغيير مسارها.. كان كلامه واضحًا، فعلى أي أساس عقلي يُعبد كوكب دون كوكب، أو حجر أو حتى بقرة؟ بقي الدعاة الثلاثة مدة، ثم واصلوا نحو الديار المقدسة، مروا ببلدة يحكمها أحمق، يدعي أنه رب، فلم يترك إبراهيم الفرصة؛ لإثبات دجله أمام شعبه.. وقف بين يديه، فسأله الطاغية: من هو ربك؟ فقال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ﴾. فهون الطاغية إجابة إبراهيم، وقال: ﴿أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ﴾. فصعقه إبراهيم بطلب سهل إن كان ربًّا حقًّا.



القبض على سارة

أجاب الطاغية إجابة ملتوية، فقال: ﴿أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ﴾، ويعني بذلك: أن أحكم بالإعدام، أو أعفو عن محكوم بالإعدام.

هنا صدمه إبراهيم حين قال: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

كان الحكام الظلمة منتشرين في ذلك الزمان، وقد دعا إبراهيم الكثير منهم أو حاورهم، فبعد مغادرته ديار ذلك الطاغوت مر ببلدة يحكمها وثني، سيطرت عليه غرائزه، فأصبح بلا أخلاق، وكان له أعوان على درجة متدنية من الانحطاط.. يفتشون له عن أي فاتنة، حتى لو كانت متزوجة، وما إن لمح بعضهم سارة، حتى سال لعابهم لأعطية في مستوى جمالها، فسألوا عنها،

فعرفوا من تكون. ومن زوجها، ثم انطلقوا نحو ملكهم؛ ليبشروه بالصيد الثمين، ولما وصلوا استأذنوا للدخول، والفرحة تلون وجوههم، فلما أصبحوا أمامه سألهم: هل من جديد؟ في مهمتهم النبيلة، فقالوا: «دخل إبراهيم بامرأة هي من أحسن النساء»(١).

تضعضع الحاكم الغرائزي أمام الوصف.. تناسى حرمة الضيف، ولم يرحم غربة الغريب، ليفاجأ إبراهيم وسارة بالحرس يدخلون عليهما النزل، ويقبضون عليه.. كانت تهمته هي أن زوجته جميلة. اقتادوه نحو القصر، فاستأذنوا، فأذن لهم، وما إن رآه الملك حتى سأله: «يا إبراهيم من هذه التي معك؟» تحير إبراهيم ما يقول؟ خاف على حبيبته، وفي النهاية «قال: أختي»(٢) لعل وعسى، لكن الطاغية قرر الظفر بسارة، حتى وإن كانت أخته، فأمر بإحضارها، فشعر صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالحزن، وعاد بصحبة الحرس، الذين سينتزعون سارة منه.

دخل إبراهيم صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على حبيبته سارة،، وما إن رآها حتى قرأ الخوف في عينيها، والتساؤل عما جرى له؟ سألته وقلبها يرتجف عن سبب استدعائه، فأخبرها أنها السبب، فالجمال تهمة في هذه البلاد، وحاكمها يريدها حالًا، وحرسه في الخارج سيأخذونها، لذا رجاها أن لا توقعه في حرج، حتى لا تتعقد الأمور، قائلًا: «لا تكذبي حديثي، فإني أخبرتهم أنك أختي»(٣). «إن هذا الجبار، إن يعلم أنك امرأتي يغلبني عليك، فإن سألك فأخبريه أنك أختي، فإنك أختي في الإسلام»(٤).

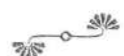
ارتبكت عَلَيْهَا السَّلَامُ.. ارتجف قلبها رعبًا.. شعرت بمشاعر العفيفات بين الذئاب المتسلطين.. قلت حيلتها، فلا تدري ما تفعل، ولا إلى أين تفر،

---

(١) صحيح البخاري (٢٢١٧).
(٢) جزء من الحديث السابق.
(٣) جزء من الحديث السابق.
(٤) صحيح مسلم (٢٣٧١).

والبيت محاصر؟ أغلقت الأبواب في عينيها، إلا باب الجبار، فرأت من خلاله زوجها، وهو يخرج بالأمس من النار بسلام، فعادت إليها طمأنينتها، فروح هذا الطاغية وجسده وكل حواسه بيد الجبار سبحانه.

صغر الظالم في عينيها، فتوجهت لمكان في البيت، فأخذت بعض الماء، وتوضأت وصلت لربها، واستودعته عفافها.. فاضت عيناها، تناجي الملاذ حين يعز الملاذ.. تناجي ملك الملوك وخالق الملوك.



سارة في معية الله

فاضت عينا سارة الخائفة تناجي ملاذها وحاميها، ثم أخذت بعض الماء وتوضأت وصلت لربها واستودعته عفافها.. ناجت الملاذ حين يعز الملاذ.. ناجت الجبار وقاصم الجبابرة وملك الملوك وخالقهم قائلة: «اللهم إن كنت آمنت بك وبرسولك، فلا تسلط عليَّ الكافر»[1].

ثم ودعت حبيبها بقلب واثق وعينين لامعتين، وخرجت من مكان إقامتها، وسلمت نفسها لشرطة الطاغية الوثني، فاقتادوها وعينا زوجها وقلبه تلاحقها، حتى غابت عن ناظريه، ثم توجه لربه يصلي.. يدعوه أن يحمي حبيبته ويعيدها إليه.

تهادت سارة مع الحرس حتى وصلت القصر، وما إن وصلته حتى سُمح لها بالدخول.. أدخلوها مجللة بالوقار والحياء، ثم أوقفوها بين يدي الظالم، الذي فقد صوابه حين رآها، فأنساه جمالها وقار الملوك.. نهض من كرسيه، ودب نحوها كالذئب، ولما اقترب منها مد يده نحوها، وفجأة صعق يده ألم شديد شلها.

---

(١) صحيح البخاري ٢٢١٧.

أدرك الطاغيـة أن فـي هـذه الفاتنـة الطاهـرة سـرًّا.. نظـر إليها فزعًا، وناشـدها قائـلًا: «ادعي الله أن يطلق يدي، ولا أضرك». فشـعرت سـارة بمعية الله.. بعظمته تحيـط بهـا.. تحميهـا، وأدركـت ضعـف من يقبـض على يدهـا، فدعـت ربها أن يطلـق يـده، ومـا إن دعت حتى اسـتعاد الرجل يـده، وبدأ يحرك أصابعـه بارتياح، وينظر إليها وسـط دهشـة حاشـيته وهلعهم، لكن نزوته الشـيطانية عاودته، فمدها مـرة أخـرى، فإذ بألم يشـل يده أشـد من الألـم الأول.

شـعر بضعفـه وهو ينظر لحاشـيته، لكنـه اضطر صاغـرا لتكرار طلبـه أن تدعو الله، فدعتـه فتحـررت يـده، لكـن العزة أخذتـه بالإثم، وكأنـه يقول لحاشـيته: إنه مـا زال يسـيطر علـى الأمر، فمـد يده، فـإذ بألم لا يطـاق، يحرق يـده، حتى جعله يصيـح مسـتنجدًا: «ادعـي الله أن يطلـق يـدي، فلـك الله أن لا أضـرك»، ففعلت، وأطلقـت يـده، وما أن تحـررت يده، حتـى صـاح بالموظف المسـؤول عن تلك المهـام الهابطة، ولمـا جاء صاح به غاضبًـا: «إنك إنما أتيتني بشـيطان، ولـم تأتني بإنسـان، فأخرجها مـن أرضي».

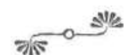
خفق قلب سـارة شـكرًا لله، لكن قبل أن تغادر القصر شـعر الطاغية بالخوف، فطلـب مـن أحد موظفيه أن يمنحهـا إحدى خادماته المميـزات، وهي فتاة مصرية مؤدبة. اسـمها هاجر، فقـال: (أعطها هاجر).

ذهب الحرسـي، وأحضـر الفتاة، وطلب منها الالتحاق بهـذه المرأة الصالحة، خادمـة لهـا. خرجت سـارة مـن القصر، وكلهـا ثناء لله، ولمـا أقبلت علـى النزل، كان إبراهيـم يصلـي، يناشـد ربه ويناجيـه. فلما رآهـا إبراهيم انصـرف، فقال لها: «مهيـم؟ قالـت: خيرًا، كف الله يـد الفاجر، وأخـدم خادمًا»[1].

اطمأنـت العائلـة الصغيرة، لكـن ذلك لم يدم طويلًا فقد عـاد الحرس مجددًا، فأبلغـوه أن الملـك يأمـره بمغـادرة البـلاد هـو ومـن معـه فـورًا. حمـل الزوجان

(١) صحيح مسلم (٢٣٧١).

متاعهما، وركبا وغادرا البلاد، ومعهما لوط وهاجر.. فيا لخليل الله، ما أقسى حياته وحياة زوجته، لكن إلى أين هذه المرة؟



هاجر لم تعد خادمة؟

سافر إبراهيم ورفقته الطيبة عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، ومعهم الفتاة هاجر، التي دعاها الخليل للتوحيد، فرأت نقاء العقيدة، ورقي السلوك النبوي، فأسلمت. تمايلت رواحلهم نحو الأرض المقدسة، ولما وصلوها اتخذوا بيتًا، واستقروا هناك، يدعون للتوحيد والإسلام. ومرت سنوات فكبر لوط، فأنزل الله عليه الوحي، وأمره بالتوجه نحو قرية وثنية سيئة السمعة، يسكنها قطاع الطرق واللصوص الشاذون، يقال: إن اسمها (سدوم)، فانطلق صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إليها، وبدأ يدعو أسوأ قوم على وجه الأرض.

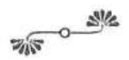
مرت الأيام والسنوات، وكبر إبراهيم، وبلغت سارة سن اليأس دون أن تنجب، فجلست يومًا تفكر في حال زوجها صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وحلمه بطفل، يبهج حياته، وتتأمل جمالها الأخاذ، الذي بدأ يذبل، وخصلات شعرها، التي بدأ الشيب يلون بعضها: الشباب ولى يا سارة، والعمر يمضي، والزوج لا يزال يحلم.

خفق قلبها لإسعاد زوجها بفكرة مريرة على النساء، فتحاملت على نفسها، وتفوقت على غيرتها وطبيعتها الأنثوية، فتنازلت عن ملكية هاجر، ووهبتها لإبراهيم علَّ الله يرزقه بذرية منها. وافق صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وبعد تسعة أشهر، انطلقت صرخة بريئة، بين جدران ذلك البيت الجميل. ابتهج إبراهيم ابتهاج الكبير بالمولود، وملأت السعادة قلب هاجر.. حتى سارة كانت سعيدة بهذا الصغير العذب، الذي طالما تمنت أن يكون منها. فحمله وشمه وضمه وقبله، وشكر الله الذي لا تحصى نعمه، وسماه (إسماعيل). كان من فرط حبه، يعيذه بربه

كل يوم، ويقول: «أعيذك بكلمات الله التامة، من كل شيطان وهامة، ومن كل عين لامة»(١).

لكن سعادته بطفله لم تدم طويلًا. سرعان ما ابتلاه الله بفراقه، فهذه الأسرة لم تعرف طعم الرفاهية والاستقرار. حيث دخل إبراهيم صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذات يوم على هاجر، فأمرها بالاستعداد للرحيل، فنهضت عَلَيْهَا ٱلسَّلَامُ، وجمعت ثيابها ومتاعها، ووضعتها على راحلتها، وحملت رضيعها، وودعت سارة التي ودعت ذلك الرضيع بالدموع.

انطلق إبراهيم وهاجر مغادرين الأرض المقدسة نحو الجنوب، وعبروا الفيافي والقفار.. ارتفعوا وهبطوا، وبعد أسابيع احتضنهم واد صامت، تحفه الجبال. توقفت راحلة الخليل تحت دوحة عند جبلين صغيرين، هما الصفا والمروة، فنزل صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ومدت له هاجر رضيعها، فأخذه منها فنزلت. لم يكن في ذلك الوادي شيء.. لا بئر ولا زرع ولا حياة.. لا شيء، سوى الجبال وبعض الأشجار والانتظار. أنزل المسافران ما معهما من ماء وجراب تمر، ثم ارتاحا من عناء السفر، ثم أخبرها الخليل: أنها في مكان يقال له بكة، وأن تلك الرابية المرتفعة التي أمامها، ستكون مكان بيت الله المحرم، وبعد يوم أو يومين تلفتت هاجر فلم تجد حبيبها إبراهيم صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. فانطلقت مذهولة تركض علها تسترده.



لماذا تتركني يا إبراهيم؟

نزل رسول الله إبراهيم وهاجر وابنهما إسماعيل عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ في واد، يقال له بكة.. خال من السكان والزرع والحياة.. بين جبلين صغيرين، سميا فيما بعد

(١) صحيح البخاري (٣٣٧١).

(الصفا والمروة). مر اليوم الأول، وهما يأنسان بذكر الله، وقرب بيته الذي كان مجرد رابية مرتفعة.

غابت الشمس فانتثرت النجوم، تحدق بالغرباء، وشمخت الجبال كالحرس حولهما، وفي الغد أو بعده حدث شيء أذهل هاجر: إبراهيم يقبل طفله ويودع حبيبته، ويتركهما عائدًا للأرض المقدسة الأولى بالشام! كيف يحدث هذا؟ ما مصيرها وسط هذا الوادي القاحل؟ ما مصير رضيعها المسكين؟ أهذه هي الفرحة بالوليد بعد هذا العمر الطويل؟

أسئلة خائفة، لا تدرك معاناة الأنبياء، وثقل أمانتهم. انطلق الخليل الحزين، فشعرت هاجر بالخوف من سباع الوادي وضواريه.. من الجوع والعطش فيه.. من الوحدة، فلم تستطع البقاء إلى جانب صغيرها الذي يحبو. وضعته على الأرض وانطلقت تركض خلف حبيبها، علها تثنيه عن رحلته.. تستعطفه: «يا إبراهيم، أين تذهب وتتركنا بهذا الوادي؟! الذي ليس فيه إنس ولا شيء؟»[1] تناشد أبوته وهو لا يرد.. تلتف حوله تريد رده، أو حتى صده، وهو ماض كالخنجر في قلبها. لم يلتفت إبراهيم، وكأن الحزن يمنعه من الالتفات، وهي تتوسل تريد إجابة مقنعة لتركها: «أين تذهب؟» ترى هل اشتاق لسارة، أم يريد التخلص منها؟

وفجأة أفاقت هاجر.. أدركت أنها رفيقة نبي، فقالت لنبيها: «آلله الذي أمرك بهذا؟»[2] هنا فقط نطق إبراهيم، وهو صابر محتسب، فقال: «نعم»، وهنا توقفت هاجر. لم تعد بحاجة إلى أحد مع الرحمن الرحيم.. أدركت أن رحلتها وحي، وأن رحيله وحي، وأنها بمعية الجبار ورعايته سبحانه، فودعته بكلمات أرسى من الجبال، التي تحيط بها، وقالت: «إذن لا يضيعنا»[3].

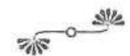
---

(١) صحيح البخاري (٣٣٦٤) موقوفًا على ابن عباس رضي الله عنهما.
(٢) صحيح البخاري (٣٣٦٤) موقوفًا على ابن عباس رضي الله عنهما.
(٣) صحيح البخاري (٣٣٦٤) موقوفًا على ابن عباس رضي الله عنهما.

اخترقت كلماتها قلب إبراهيم فنزف رحمة بطفله الرضيع وأمه. سار حتى توارى عنهما، وكأن عينيه لا تطيقان النظر إليهما ثم توقف، والتفت نحو البيت واستقبله، ودعا بقلب منفطر: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ﴾.

أما هاجر فانثنت، وألم الفراق يعصف بقلبها.. عادت لطفلها، عادت لهذا الجميل، الذي يحبو لهفة عليها، فانحنت عليه، وأخذته وضمته، وأغمضت عينيها عليه، فسالت الدموع رحمة به وشوقًا لأبيه، واسترحامًا لمن أودعها هذه الأرض القاحلة.. لم تدر أنها ستكون أمًّا لشعوب وقبائل عظيمة تتدفق من هذا الوادي، وتسيح في أرجاء الجزيرة، وتتردد عليه.

لم تنته أحزان هاجر.. فجأة استبد بها رعب أشد من رعب الأمس، وركض أشد من ركض الأمس.



الموت يجول في الوادي

ظلت هاجر مع رضيعها إسماعيل يومًا أو اثنين.. تلاعبه مرة، وتهدهده مرة، وترضعه أخرى.. عاشت ساعات من الخلوة مع الله عند بيته المحرم.. لحظات من لذة المناجاة، وصفاء الروح، طالما بحث عنها الأولياء في أجواف الليالي.. في البراري.. في الخلوات بعيدًا عن أعين الخلق، حيث يشعرون بصفاء يغمر القلب، وأنوار تعرج بالروح. إذا اشتد عطشها أخذت جرعة من قربتها، وإن جاعت مدت يدها لجراب التمر، فتناولت تمرة أو تمرتين، تمضغها ثم تضع شيئًا منها في فم الرضيع، الذي يتلمظ لسانه الصغير فرحًا بحلاوتها، وتهتز أطرافه حماسًا، فيزين واديها بمناغاته ونظراته البريئة العذبة، لكن التمر

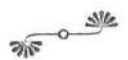
بـدأ يقـل، والماء بـدأ ينفد، وقد يجف صدرهـا إن نفد الماء والتمـر.. ظلت قلقة، ثم تحـول قلقهـا إلى هلع.

جفـت شـنة المـاء، فـكادت تفقـد صوابهـا.. ناولـت رضيعها صدرهـا، لكن شـفتيه لم تتبلـل بشـيء، ينظـر إليهـا يبكـي، فينفطـر قلبها، ويسـتبد الرعـب بها، وتشـعر بالمـوت يدنـو مـن صغيرهـا الحبيـب، فتفقـد صوابهـا، وتتركـه علـى الأرض، وتنطلـق وهـو يبكـي يتلبـط.

تركـض بلا وعي نحـو جبل الصفـا علَّها تـرى أحـدًا قادمًا يسـعفها. صعدته. حدقـت. استشـرفت فارتد طرفها حسـيرًا، فانحـدرت تركض ركضًا شـديدًا نحو جبـل المروة المقابـل وبكاء رضيعها عن يسـارها يرتفع.. يمـزق قلبها وهو يحبو نحوهـا يريدها، فتصعد المروة علَّ مسـافرًا من الجهة الأخـرى يقبل بجرعة ماء.. تاهـت عيناهـا الغارقتـان بالدموع، ثـم عادت للصفـا تركض وبـكاء الصغير يزيد حزنهـا وعطشـها.. ظلـت تركـض بين هـذا الجبـل وذاك، حتى أنهكهـا الركض، وفقـدت الأمـل، فانحدرت بعـد المرة السـابعة من المـروة منكسـرة حزينة، وقد سـلمت أمرهـا لربها، وفجـأة توقفت.. صه:

هنـاك صوت.. حفيف يشـق السـماء والهـواء.. أنصتـت تحـاول التقاطه بين سـكتات رضيعهـا.. ما هـذا الصـوت؟ صاحـت فـي الـوادي: (قـد أسـمعت إن كان عنـدك غـواث)، ثـم التفتـت عـن يمينها نحـو طفلها، فـإذ بالمشـهد يذهلها: جبريـل كبيـر الملائكة ﷺ قائـم بجانب الرضيـع.. يضرب كبيـر الملائكة بعقبـه الأرض، فتتصـدع من ضربته، كما يتصـدع الزجاج، وإذ بالماء ينسـاب من كل الجهـات، نحـو مركز الضربـة، ثم يبدأ بالنبـع من موضع الضربـة يترقرق، ثم يفيـض بئـرًا ليس كالآبـار.. نبعـت أول قطرات زمـزم، فاجتاحـت الفرحة هاجر، وحمـدت الله، وركضـت نحـو المـاء الذي بدأ يسـيل على وجـه الأرض.

مـدت يديها نحـو التراب المبلـل بالماء، وصنعـت منه جدارًا صغيـرًا لتحجز المـاء، ثم نهضـت نحو قربتها وأحضرتهـا، وضمت كفيها كالمغرفـة، وأدخلتهما المـاء، وبـدأت تغـرف، وتمـلأ الشـنة، والمـاء يفـور يترقـرق، ثـم رفعـت قربتها المـلأى، فشـربت منهـا، فكانت أول امرأة تشـرب مـن زمزم.



الوادي ينبض بالحياة

بللـت هاجـر ثغر رضيعهـا بالمـاء، وعـادت الحياة لهـا ولصغيرهـا الحبيب، فكانـا أول من يشـرب من هـذه البئـر المعجزة، ثم تأملـت هذا المـلاك المهيب، الـذي يقف إلـى جوارها، وقبـل أن تشـكره هتف كبيـر الملائكة وطمأنهـا قائلًا: «لا تخافـوا الضيعة، فـإن ها هنا بيت الله، يبنيه هذا الغـلام وأبوه، وإن الله لا يضيع أهلـه»[1]، وأشـار إلى الرابية المرتفعة أمامها، وآثار السـيول عن يمينها وشـمالها، ثـم حلق الملاك في السـماء، بعـد أن دبت الحيـاة في الـوادي المبارك.

حتى السـماء سـرت فيها الحيـاة، بدأت الطيـور تحلق نحو نبع المـاء.. تحوم وتهبـط قربـه.. تؤنـس وحشـة هاجـر، وتزيـد مـن فضـول الرضيـع الـذي يحبـو نحوهـا.. يناغيها، وبعد أيـام انحدرت من جبل كداء قافلـة يمنية من قبيلة جرهـم، فشـدها شـيء في السـماء لم تره من قبل.. طائر يحوم. حدق المسـافرون بطريقة طيرانـه، فأدركـوا بحكم خبرتهـم أنه طائر عائـف، والعائف هو الـذي يحوم على الأمكنـة التـي فيها ماء، لكـن ماذا يفعل هـذا الطائر، وليس في هـذه المنطقة ماء؟ إنها مجـرد أودية جافة تتعطـش للمطر.

توقفـت القافلة علـى غير العـادة، فالقوافل عـادة تمر فلا تتوقف هنـا.. قرروا

(١) صحيح البخاري ٣٣٦٤ موقوفًا على ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا.

اكتشـاف أمـره، فقـال بعضهـم لبعـض: «إن هـذا الطائر ليـدور على مـاء، لعهدنا بهذا الـوادي وما فيه مـاء»[1].

طلـب كبيرهـم ملاحقته، فانطلق رجـل أو رجلان وعيونهم تتردد بين السـماء والأرض.. بيـن الطائـر والهـدف، وفجـأة توقفـوا.. اتسـعت أعينهـم.. فوجئـوا بشـابة وطفل ونبع مـاء. لم يفعلوا شـيئًا.. لم ينادوها. اكتفوا بثنـي أزمة مطاياهم، والعـودة نحـو قافلتهـم، التـي أدركـت أنهـم عثـروا علـى السـر، ومـا إن وصلوا حتـى زينـت الابتسـامات الوجـوه، وعلت الأصـوات تبشـر وتستبشـر.. غمرت المسـافرين فرحـة عارمـة، فانطلقـت القافلـة نحـو المـاء، ولمـا أقبلوا أدهشـهم المشـهد فتوقفوا.

كان اليمنيـون مؤدبين جدًّا.. تقدموا نحو أم إسـماعيل.. تبادلوا التحايا بطريقة مـا.. قـد يكون بالإشـارة، لأن القافلة عربيـة جرهمية، أي من العـرب العاربة، أما هاجـر فلم تكن هـي ولا زوجها إبراهيـم عَلَيْهِمَا السَّلَامُ من العرب. اسـتأذنوا أن ينزلوا ويجاوروهـا حـول هـذا النبـع الرقـراق، فوافقـت، لأنهـا كانت متعطشـة للأنس البشـري، ولكنهـا اشـترطت أن المـاء ليـس مـن حقهـم، وأنهـم مجـرد ضيـوف كـرام عليهـا: «**فألفى ذلك أم إسـماعيل وهي تحـب الأنس**»[2] وأسـعدها ثم أناخ المسـافرون مطاياهم، ونزل الرجال والنسـاء والأطفال.. اغتسـلوا وشربوا، ودب الأنس فـي المكان.

نصبـوا خيامًـا مؤقتـة.. تبادلـوا مـع أم إسـماعيل الزيـارات، وأهدوهـا مـن طعامهـم، كمـا أهدتهـم ماءهـا.. يحملـون طفلهـا.. يلاعبونـه، وهو يحبـو بينهم حتـى كبـر، وتعلـم لغتهم، وأصبـح يرعى الغنـم معهم، وفـي أحد الأيـام تعرض إسـماعيل لأمـر بالـغ الخطورة.

---

(1) المرجع السابق.

(2) صحيح البخاري (٣٣٦٤) عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

زمزم يحول الوادي إلى مدينة

بدأ الرضيع إسماعيل يقف على قدميه، ينتفض ثم يسقط.. يخطو خطوة، ويعثر خطوتين ويسقط.. يتراكض نحو أمه هاجر، وابتسامته تسعد قلبها، وضحكته تزين الوادي.. تحول المسافرون اليمنيون إلى عائلة كبيرة لهما.. طاب لهم المقام بين إسماعيل وزمزم، ثم أصبحت مكة محطة للمسافرين، ثم مكانًا للإقامة، قد السكان الجدد الصخور من أطراف الوادي، وشيدوا البيوت هنا وهناك، وبدأت استجابة الله لدعوة إبراهيم تتشكل على أرض مكة، فتحولت من واد إلى قرية تجارية مفعمة بالنشاط.

زمزم المعجزة الربانية.. حولت مكة من واد صامت إلى قرية تنبض بالحياة.. كبر فيها إسماعيل.. بدأ يلعب مع صبيان القبيلة اليمنية.. يرعى الغنم معهم.. يتكلم لغتهم ولغة أمه هاجر التي ربته على التوحيد، ثم أصبح الطفل مراهقًا يفوق أقرانه أدبًا وخلقًا.

وذات يوم من تلك الأيام كان السراب خلف جبل المروة، يتماهى بطيف قادم من بعيد.. يتهادى شيئًا فشيئًا، وينفصل عن السراب شيئًا فشيئًا، ولما اقترب المسافر أدهشه المشهد، وخفق قلبه وقد تحققت المنى، فها هو الوادي يعج بالحياة والأنس كما تمنى، وها هي الأفئدة تهوي إليه، ويطيب لها العيش فيه.. تساءل شوقه كيف غدا حبيب القلب إسماعيل وأمه؟ توجه نحو بيت الله فوجد الماء والحياة وحبيبيه هاجر وإسماعيل.

عانق الشيخ ابنه بشوق، وفاضت عينا هاجر وهي ترى إبراهيم ﷺ بعد هذه السنوات.. أمضى الثلاثة أيامًا سعيدة، واختلط إبراهيم بالسكان، وبصّرهم بالتوحيد رسالة الأنبياء، وزادهم وعيًا بأمور دنياهم برسالته الثانية: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾، فالعدل

مكمل للتوحيد، لتتناغم الدنيا بالآخرة، والسماء بالأرض، فلا عمارة حقيقية للأرض دونهما.

ظل إبراهيم ينير القلوب والعقول، ويبدو أن لهاجر وزمزم دورًا في إيمان تلك القبيلة الطيبة، وفي أحد أوقات الإيمان والوعي تلك.. وفي مكان كالخيال كان إسماعيل مستلقيًا، وإذ بوالده إبراهيم يقترب منه فجأة، ويمسك برأسه، ويسل سكينًا فينحر رقبته.. تفجر الدم، فأفاق إبراهيم من نومه حزينًا من هذه الرؤيا المخيفة.. كيف ينحر فلذة كبده في مكان مقدس، يحرم سفك الدم فيه.. مكان يقول الله عنه: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا﴾.

ومما زاد حزنه هو أنه لا بد من تنفيذ هذه الرؤيا، فرؤيا الأنبياء وحي. ولن يتردد الخليل في تنفيذ الوحي.. يا له من اختبار صعب.. أي ابتلاء أشد على النفس من هذا؟ ما أكثر ابتلاءات إبراهيم وأثقلها. نهض ﷺ من مرقده وهو مهموم بتنفيذ أمر ربه: هل يصارح ابنه، أم ينحره وهو نائم، أم ماذا يفعل؟



إسماعيل يودع هاجر

بعد تلك الرؤيا أخذ إبراهيم ﷺ ابنه الحبيب بعيدًا عن أمه، حتى لا يفجعها، وما إن اقترب منه، حتى قال له بصوت يتهدج حزنًا: ﴿يَٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلْمَنَامِ أَنِّيٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ﴾؟.

ارتجف قلب إسماعيل خوفًا، لكن سرعان ما تماسك.. لم يقل: لماذا، وكيف، وما ذنبي؟ سلَّم أمره لله سبحانه، بل حثّ والده على تنفيذ وحي ربه، فقال ﷺ: ﴿يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾، قدم الفتى إرادة ربه على إرادته، ورضي أن يكون قربانًا لله، والحزن يفطر قلبه على فراق أمه.. كأني به بعد ذلك يجلس قربها.. يطيل النظر إليها، والتأمل في طيفها

الحبيب، وهي لا تدري ما سر تلك النظرات؟ لا تدري أنها نظرات مودع.. تقدم له طعامًا فيعتذر.. لا حاجة لي بالطعام يا أماه.. النظر إليك أول وآخر وجباتي، فهل سيتحمل قلبك رحيلي، وكم من الدموع ستذرفينها بعدي.. يتذكر طفولته وغربته معها.. ينفطر قلبه وجدًا عليها، فلن تناديه بعد اليوم، ليحضر لها ماء من زمزم، أو يحلب شاتها.

دنت الساعة.. نهض الفتى مع والده، ومشى حتى غاب عن ناظريها.. مشى ثقيلا حزينا.. حتى مر بملاعب رفاقه حول زمزم، فيزداد حزنه.. لن يلعب معهم بعد اليوم، ولن يسابقهم، كلما أقبلت قافلة أو أقفت.. إنه الآن يسير بجانب والده الحزين، الذي يحمل سكينًا حادة، لن تأخذ منه وقتًا في تغييبه عن هذا الوادي الجميل، بل عن الدنيا بأسرها، وبعد خطوات ثقيلة وحزينة، توقف الوالد، فهل تعانقا، وسالت دموعهما؟

أضجع إبراهيم ابنه على الأرض، وكأنه لا يريد لعينيه أن تلتقي بعيني فيضعف ويتراجع، لذا تله للجبين، وأدار وجهه نحو الأرض.. بدأت دقات قلب إسماعيل تتسارع، وأنفاسه تتصاعد، والتراب يبتل بقطرات دموعه، ويلتصق بشفتيه المرتعشتين.. قرب إبراهيم سكينه من رقبة ابنه الصغيرة، وإذ بصوت مهيب يقاطعه.. يوقف يده وسكينه، ويقول له: ﴿يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدۡ صَدَّقۡتَ ٱلرُّءۡيَآۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلۡبَلَٰٓؤُاْ ٱلۡمُبِينُ﴾، رفع إبراخيم رأسه، وفاضت عيناه، وتنفس الصعداء، وألقى السكين، واستعاد ابنه وضمه، وانهمرت دموع الفرح والشكر لله، وقبل أن ينهض الاثنان، التفتا على صوت وحركة قربهما، فرأيا كبشًا بالقرب منهما. معجزة أخرى لهذا النبي الصابر، يقول الله عنها: ﴿وَفَدَيۡنَٰهُ بِذِبۡحٍ عَظِيمٖ﴾.

نهضا نحو الكبش، وأخذاه نحو مكان النحر، وقرباه لله، وأهدوا من لحمه، وتصدقوا، وأكلوا، وابتهجوا، ومرت الأيام على قصة الفداء والابتلاء، لكن

الحزن عـاد.. ها هـو إبراهيم يـودع أحبته، فلديه مهمة في الشـام.. سـافر الخليل المبتلـى، لتمـر علـى فراقـه سـنوات وسـنوات، كبـر خلالهـا الفتـى، وبلـغ مبلغ الرجـال، والجميع يجلونه، ويجلون أمه.. كان إسـماعيل مهـوى أفئدة العذارى، فمـن هي التي سـتفوز بأمير مكة، وسـيد زمزم؟



ورحلت هاجر

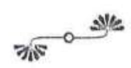
كانـت أُسـر قبيلـة جرهـم اليمنية تحـب الفتـى إسـماعيل ﷺ وتجله.. خاصـة بعـد قصـة الفـداء، فعرضـوا عليـه الـزواج مـن إحـدى فتياتهـم، فوافق، وابتهجـت هاجـر، وزفت عـروس ابنهـا، وامتلأ الـوادي الجميل بالأفـراح، لكن تلـك الأفـراح لم تدم طويلًا لآل إبراهيـم، فالحزن لم يغادر الـوادي.. إنه يختبىء لهـذه الأسـرة بين الجبـال.. الحزن مجددًا يعصـف بقلب إسـماعيل، فها هو عند فـراش حبيبتـه هاجـر، والمرض يفتك بجسـدها الشـاب.. يأخذها شـيئًا فشـيئًا، حتى أسـلمت الـروح، وفارقت الحياة. ذرف الشـاب الدموع حزنًا عليها وشـوقًا إليهـا، لكنـه لم يكـن وحـده الحزيـن. الوادي كلـه حزين، ونسـاء الحـي ورجاله يبكـون بحرقة السـيدة الكريمة.. السـيدة المضيافة.. يبكون أميرتهم وسـيدة مكة عَلَيْهَا السَّلَامُ، وابنهـا البـار يضعها فـي قبرها، ويهيـل التراب والدمـوع عليها.

رحلـت أول امـرأة سـكنت مكـة، وأول امـرأة شـربت زمـزم.. رحلـت مـن اصطفاهـا الله، لتكـون أمـا لإسـماعيل، وأما لقبائـل عظيمة من العـرب.. رحلت المناضلـة التـي لم تهنأ بشـبابها.. تقاسـمته الغربـة والمعاناة والبـذل لله.. لم تهنأ بحبيبهـا إبراهيـم.. ماتت والشـوق إليه يملأ قلبهـا.. أصبح إسـماعيل في غربة.. أم تحت التراب، ووالد لا يدري متى سيراه.. ما أقسـى حياة آل إبراهيم عَلَيْهِمُ السَّلَامُ.

مـرت سـنوات لتفاجـأ مكـة بحبيبهـا إبراهيم علـى مشـارفها.. يتهـادى وقلبه يخفـق حزنًا على هاجـر.. تذكره مكة بهـا، فتحت هذه الدوحة نزلـت عن دابتها، وهنـا لحقت بـه ونادته: «أين تذهـب يا إبراهيم، وتتركنا بهذا الـوادي، الذي ليس فيـه إنس ولا شـيء؟» وهنا هتفت بـه: «آلله الذي أمرك بهـذا؟»، وهنا تهدج صوته حزنـًا، وهو يقـول لها: «نعم». مشـى ﷺ حتى أصبح أمام باب إسـماعيل، فاسـتأذن فخرجـت لـه فتـاة، حيتـه وحياهـا، فعـرف أنهـا زوجتـه، فسـألها عنه؟ فقالـت: خرج يبتغي لنا، ثم سـألها عن أحوالهم المعيشـية والماديـة، فوجد إجابة تطفـح بالطيـش والتذمـر. قالت: «نحن بشـرٍّ. نحن فـي ضيق وشـدة»[١]، وبدأت تتلـو عليـه قائمة مـن التذمر، لا تليـق ببيت نبي.

أنصـت ﷺ لهـا، ولم يقاطعهـا، وحالمـا انتهت اكتفى الشـيخ بكلمات قليلـة غيـر مفهومـة. ثـم ودعهـا وكلهـا حيـرة. عـاد إسـماعيل، ولما دخل سـأل زوجتـه: «هـل جاءكـم من أحـدٌ؟» قالـت: «نعم، جاءنا شـيخ كـذا وكذا، فسـألنا عنـك فأخبرته، وسـألني كيف عيشـنا، فأخبرته: أنـا في جهد وشـدة»، قال: «فهل أوصـاك بشـيء؟» قالـت: «نعم، أمرنـي أن أقرأ عليك السـلام، ويقـول: غير عتبة بابك»[٢].

خفـق قلب إسـماعيل ﷺ حزنـًا وشـوقًا، وأدرك مغزى الوصيـة، فنظر إلـى فتاتـه المتذمـرة بحـزن، وقـال: «ذاك أبـي، وقـد أمرنـي أن أفارقـك. الحقي بأهلـك»[٣] فطلقهـا، ثـم بقي مدة أعـزب، حتى لاحت لـه فرصة للـزواج من فتاة أخـرى أطيب.



(١) صحيح البخاري ٣٣٦٤ موقوفًا على ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) المرجع السابق.

(٣) المرجع السابق.

إسماعيل لا يناقش أوامر الله

مـرت أسـابيع وربمـا أكثـر، فـإذ بإبراهيم صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يسـتأذن مرة أخـرى على بـاب إسـماعيل، فتفتـح فتـاة بشـوش، تحييـه وترحب بـه.. عـرف أنهـا زوجته، فسـألها عنه، فقالـت: «خرج يبتغي لنا»، فأعاد طرح السـؤال قائـلًا: «كيف أنتم؟» وسـألها عن عيشـهم وهيئتهـم، فقالـت: «نحن بخير وسـعة»، وأثنـت على الله.

شـعر صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بارتياح من إجابتها، التي تليـق ببيت النبوة، وأحب تلك الفتاة المسـتعدة لتحمـل مسـؤولياتها، فواصـل الحـوار معهـا، وقـال: «ما طعامكم؟» قالـت: «اللحـم؟» قـال: «فما شـرابكم؟» قالت: «المـاء». قال: «اللهـم بارك لهم فـي اللحـم والماء»، قال النبـي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «ولـم يكـن لهم يومئذ حـب، ولو كان لهـم حب دعـا لهم فيه» ثـم قال: «فإذا جـاء زوجـك فاقرئي عليه السـلام، ومريه يثبـت عتبـة بابـه»[1] ثـم ودعهـا ورحـل. فحياته صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ترحـال ودعـوة. فلما عـاد إسـماعيل أخبرته، فملأت السـعادة قلبه بتلـك الوصية، فقـال لزوجته: «ذاك أبـي، وأنـت العتبـة، أمرنـي أن أمسـكك»[2]، وبعد مـدة كان إسـماعيل مقبلًا من مـكان مـا، وهو يحمـل مجموعة مـن الأغصـان انتقاها بعنايـة، ثم اتجـه بها نحو دوحـة قريبـة من زمـزم، ولمـا وصلها توقـف، وجلس تحـت ظلها، ونشر ما معه مـن أعـواد علـى الأرض، ثـم أخرج سـكينًا، وبدأ يكشـط تلـك الأغصـان غصنًا غصنًـا.. يبريهـا بعنايـة، ليصنـع منهـا أسـهمًا للصيـد، (وكان صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ راميًا[3]) ماهـرًا، وبينمـا كان منهمـكًا في عمله.. فوجـىء بطيف حبيب يقبـل عليه.. حدق به إسـماعيل، وكلما اقترب زاد ارتجاف قلبه.. ألقى إسـماعيل سـكينه وأسـهمه، وفـز نحـو الشـيخ الحبيـب.. تعانقـا، وخنقـت العبـرات العبـارات، (فصنعا كما

(١) صحيح البخاري ٣٣٦٤ موقوفًا على ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا.

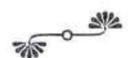
(٢) المرجع السابق.

(٣) صحيح البخاري ٢٨٩٩.

يصنع الوالد بالولد والولد بالوالد)[1]، وتداعت ذكريات هاجر في القلوب، وبعد أن جلسا وهدأت المشاعر.. نظر إبراهيم إلى ابنه الشاب، وكأنه يبشره بإرهاصات النبوة، وقال له: «يا إسماعيل، إن الله أمرني بأمر». قال إسماعيل: «فاصنع ما أمرك ربك؟» قال: «وتعينني؟»

لم يتردد الشاب ولن يتردد، فقد وافق يومًا على أن يكون قربانًا لله. لذا قال: «وأعينك» فمد الشيخ يده، وأشار نحو الأكمة القريبة المرتفعة على ما حولها، وقال: «فإن الله أمرني أن أبني ها هنا بيتًا»[2].

اجتاحت السعادة إسماعيل بالمهمة، وأخذ والده نحو بيته وزوجته الطيبة، ليمضي معه أسعد أيام حياته.. يوم بلسم جراح الغربة، وفقد هاجر الحبيبة.. تناولا اللحم، وشربا من ماء زمزم، وأشرق يوم جديد على العالم.. وزع إبراهيم المهام بينه وبين حبيبه، ثم انطلق نحو تلك الرابية، ليخط الخليل على الأرض مكان بناء قواعد البيت وأساساته وجدرانه، أما الفتى فانطلق بحماس نحو المكان، الذي تقد منه الصخور.. ظل إسماعيل يجلب الحجارة، وإبراهيم يحفر ويبني، وهما يرددان: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾[3].



كيف كان شكل البيت عند بنائه؟

أصبح إسماعيل نبيًّا منذ بدء لحظات بناء الكعبة، وطُلب منه كما طلب من والده عَلَيْهِمَاالسَّلَامُ: أن يطهر البيت من أي مظاهر للشرك، وأن يهيئاه للمصلين

(١) صحيح البخاري ٣٣٦٤ موقوفًا على ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا.

(٢) صحيح البخاري ٣٣٦٤ موقوفًا على ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا.

(٣) أخرجه البخاري (٤/ ١٤٢-١٤٤ رقم ٣٣٦٤) موقوفًا على ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا.

والطائفين، فقال تعالى: ﴿وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾.

ارتفعت جدران الكعبة أمتارًا، فجاء إبراهيم بحجر أسود، فوضعه في الزاوية الشمالية الشرقية من الكعبة، ووضع للكعبة بابًا من جهة الشمال قرب الحجر، وبابًا يقابله في الجهة الجنوبية قرب الركن اليماني، ولم يبنيا للكعبة سقفًا.. بدأا يطوفان حوله، ويقولان: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾.

اكتمل بناء الكعبة، ولم يجعلاه مربعًا كما هو اليوم، بل كان على شكل الحرف الإنجليزي (D)، أي أن جدار حجر إسماعيل المقوس كان جزءًا من جدرانها. هذا هو أول بيت لله على الأرض، والذي يقول سبحانه عنه: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ﴾.

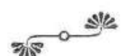
كانت قبيلة جرهم اليمنية الطيبة تستمتع بمشهد البناء، وتتلقى التوحيد طريًّا من الوحي.. من فم إبراهيم، فلم يعان منها كما عانى من أهله وقومه.

وبعد أن اكتمل البناء، فنزل الوحي على إبراهيم، يأمره بأن يدعو الناس للحج، فقال له تعالى: ﴿وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾.

بدأ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ دعوته للحج في مكة.. يعينه إسماعيل، وصحابتهما من قبيلة جرهم.. لم تعد مكة أهم مركز تجاري في الجزيرة العربية.. أصبحت منارة وعي.. يمر بها التجار والمسافرون الوثنيون، فيتغيرون.. يصبحون موحدين.. يحملون ثقافة التوحيد وعيًا نحو بلدانهم.. يحملون أخلاق الإسلام، وأمانة الإسلام، حتى بعد رحيل إبراهيم.. ينهلون من إسماعيل دروسًا في الأمانة والصدق، حتى أثنى الله عليه، فقال: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِسْمَٰعِيلَ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا﴾.

ظـل إسـماعيل في مكة، فـرزق ببنين وبنـات وأحفاد وأسـباط.. أصبحوا فيما بعـد قبائل وشـعوبًا عظيمة، ينشـرون التوحيد، ويتـرددون على البيـت، لكن ماذا عـن إبراهيـم بعـد بنائه الكعبة؟ أيـن ذهب بعـد أن دعا للحج؟

لقـد ودع ابنـه وصحابتـه، وتوجـه مجـددًا نحـو القـدس.. حيـث سـارة التي اجتاحتهـا السـعادة.. بقـي إبراهيـم سـنوات ينشـر التوحيـد، فيـزداد المؤمنـون والمؤمنـات، وبعـد أن تجـاوز الثمانيـن، أمـره الله أن يبنـي ثانـي مسـجد علـى الأرض، وهـو المسـجد الأقصـى.



ما الذي أضحك سارة؟

أمر الله سـبحانه رسـوله إبراهيـم صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يبني ثاني مسـجد على الأرض (المسـجد الأقصى)، وذلك بعد بنـاء الكعبة بأربعين عامًا، فبنـاه وأعانه صحابته، وصلـوا فيـه، وأخبرهـم أنـه قبلـة المؤمنيـن، وفـي أحـد الأيـام فوجـىء الشـيخ الثمانينـي بغربـاء علـى بابـه.. نهـض صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نحو البـاب، فحياهـم، وأدخلهم رغـم أنـه لا يعرفهم، بل ولا أحـد من أهل المدينـة يعرفهم.. لم يسـألهم ما الذي أتـى بهم؟



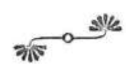
انطلـق مباشـرة نحـو الحظيـرة، فأخـرج وخدامـه عجل بقر سـمين، وسـمَّى الله وذكاه، بينمـا كانـت النـار تتوهـج فـي مـكان معـد للشـواء، فحُمـل لحـم العجـل، ووضـع علـى النـار، وبـدؤوا بتقليبـه حتـى تغيـر لونـه، وطـاب طعمه، ثـم حُمـل الشـواء اللذيـذ، ووضـع أمـام الضيـوف، ورائحتـه تتضـوع فـي المـكان، وتثيـر الشـهية، بينمـا كانـت سـارة قائمـة خلفهـم لخدمتهـم.. حـدق الضيـوف بطبـق الحنيـذ اللذيـذ، وأيديهـم مكفوفـة.. طالـت مـدة الصمـت، فشـعر صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالقلـق، وهـو يتصفـح وجوههـم.. ارتـاب مـن سـلوكهم،

فقال لهم: «ألا تأكلون؟» لم تمتد أيدي الضيوف نحو الطبق، لكنهم قرؤوا الخوف في عيني إبراهيم، فطمأنوه، وكشفوا عن هويتهم، وقالوا له: ﴿لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ﴾. كانوا مجموعة من الملائكة مكلفة بمهمة تجاه قوم ابن أخيه لوط. هنا ضحكت سارة، فما الذي أضحكها؟

هل هو تحديقهم بالشواء دون أكل؟ أم تضحك على مجهود زوجها الذي ضاع هباء، أم على خوفه منهم، ونظراته المتشككة، أم تذكرت تلك الأيام الغابرة، حين قدم الطعام لأصنام قومه، وقال الكلمة نفسها: ألا تأكلون؟ الاحتمالات كثيرة، لكن الضيوف لم يتركوا لسارة مجالًا لمواصلة الضحك.. سرعان ما قلبوا ضحكها صياحًا، حتى صكت وجهها بكفيها.. رفع أحدهم رأسه نحوها، وقال: إنك ستنجبين ابنًا، هو إسحاق، وإسحاق سينجب يعقوب.

صعقت سارة، كما تصعق العجائز بمثل هذا الخبر.. استغراب ممزوج بفرح بخوف بخجل.. صرخت ﴿فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ﴾، ﴿يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ﴾، لكنهم بشروها بالرحمة وقالوا: (﴿أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۖ رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ ۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ﴾.

أما إبراهيم ﷺ فشعر أن العمر يوشك على انقضاء، وأن فرحته بالطفل لم تعد كما كانت، فقال: ﴿أَبَشَّرْتُمُونِى عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِىَ ٱلْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ﴾، أين البشرى هنا؟



قرية للأنذال وقطاع الطرق

بعد أن بشر الملائكة إبراهيم ﷺ بطفل وقد تجاوز الثمانين.. شعر أن العمر يوشك على الانقضاء، وأن فرحته بالطفل لم تعد كما كانت، فقال: ﴿أَبَشَّرْتُمُونِى عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِىَ ٱلْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ﴾، وإذ بإجابتهم تبين له أن البشرى

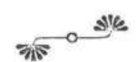
أبعد من الحصول على مجرد طفل.. إنه الاصطفاء.. إنها النبوة التي ستتسلسل في ذريته.. ذرية ستواصل نشر توحيد الله، فالوثنية والجحود لنعم الله ينتشر كالوباء بين الأمم، ﴿قَالُواْ بَشَّرۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلۡقَٰنِطِينَ﴾، فقال: ﴿وَمَن يَقۡنَطُ مِن رَّحۡمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ﴾، بعدها أثنى إبراهيم على ربه، وقال: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى ٱلۡكِبَرِ إِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَۚ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾.

ثم انتقل الحديث بين الملائكة وخليل الله إلى المهمة الثانية (قوم لوط)، ﴿قَالَ فَمَا خَطۡبُكُمۡ أَيُّهَا ٱلۡمُرۡسَلُونَ ٣١ قَالُوٓاْ إِنَّآ أُرۡسِلۡنَآ إِلَىٰ قَوۡمٖ مُّجۡرِمِينَ ٣٢ لِنُرۡسِلَ عَلَيۡهِمۡ حِجَارَةٗ مِّن طِينٖ﴾، هنا بدأ إبراهيم يجادل حول هلاكهم، وإذ بالملائكة توقفه وتقول له: ﴿يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ أَعۡرِضۡ عَنۡ هَٰذَآۖ إِنَّهُۥ قَدۡ جَآءَ أَمۡرُ رَبِّكَۖ وَإِنَّهُمۡ ءَاتِيهِمۡ عَذَابٌ غَيۡرُ مَرۡدُودٖ﴾، ﴿إِنَّا مُهۡلِكُوٓاْ أَهۡلِ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةِۖ إِنَّ أَهۡلَهَا كَانُواْ ظَٰلِمِينَ﴾.

سأل إبراهيم صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن مصير ابن أخيه، فقالوا: ﴿نَحۡنُ أَعۡلَمُ بِمَن فِيهَاۖ لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهۡلَهُۥٓ إِلَّا ٱمۡرَأَتَهُۥ كَانَتۡ مِنَ ٱلۡغَٰبِرِينَ﴾، اطمأن إبراهيم ثم استأذنه الضيوف، فلديهم رحلة مرعبة نحو قرية سادرة في غيها وشذوذها، وما هي إلا ثوان، وإذ بالضيوف يتهادون بوقار عبر شوارع لا تعرف الوقار.

قرية سدوم التي دخلها لوط قبل سنوات.. جاء داعية لهذه القرية المجرمة الشاذة عن بقية القرى.. كانت بالغة السوء سيئة السمعة.. يتجنب المسافرون الطرق المؤدية إليها، لأن أغلبية رجالها من الإرهابيين وعصابات قطاع الطرق، أما ممارساتهم داخل البلدة فبالغة البشاعة.. أقاموا ناديًا يمارسون فيه طقوس الشرك والشذوذ، أو ما يسمى المثلية المنحطة بلا خجل.. ضاق لوط بانحطاطهم، لكن الأرض ضاقت به حين رأى الضيوف ببابه، شعر بالحرج فقومه لم يكتفوا بأعظم الذنوب عند الله وهو (الشرك)، بل انحطوا لدرجة أدنى من البهائم، فلا كرم ولا كرامة لضيف عندهم، ولا حتى للمار بديارهم، بل اغتصاب للمارين بديارهم وللضيوف والغرباء ولأموالهم.

كانت بلدتهم وكرًا لعصابات السطو والسلب والنهب، وسوقًا للبضائع المسروقة.. لا رجولة ولا نخوة ولا نجدة للمستجير.. فضلًا عن الأدب مع خالقهم سبحانه. مصطلحات تصبب منها لوط خجلًا، وغلا منها غضبًا.



لوط في غاية الإحراج

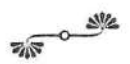
قرية يقال لها سدوم وثنية جاحدة لنعم الله، تحولت إلى وكر للصوص وقطاع الطرق، فلا كرم فيها، ولا كرامة للضيف أو للمسافر المار بديارهم، بل لا رجولة ولا نخوة ولا نجدة للمستجير.

أرسل الجبار لهم رسوله لوطًا، فدعاهم سنوات بلطف ولين.. يتودد إليهم.. يبشرهم بالجنة تارة، وتارة ينذرهم عذاب الله.. يذكرهم بزوال الأمم السابقة قوم نوح وهود وصالح، لكنهم لم يرعووا.. تقرب منهم.. صاهرهم، فتزوج امرأة منهم، ورزق منها ببنات، هن زهرات حياته.. رباهن على التوحيد، فنشأن مؤمنات، لكن أمهن ظلت على شركها، وهو ما زال يحبها، ويتمنى هدايتها، لكن يبدو أن الأمر قد فات.

هاهم الملائكة يجوبون الآن يجوبون شوارع المدينة بثقة، وكأنهم يحددون إحداثيات القصف المميت.. يمشون عبر شوارع سدوم، وسط نظرات مقززة من قوم بالغي الانحطاط.. تدهشهم ثقة الغرباء بأنفسهم، وتخيفهم معرفتهم بالطرقات.. كيف عرفوا بيت لوط، وهم لم يروه من قبل. وقف الضيوف عند الباب ثم استأذنوا، فسمع لوط الاستئذان، فنهض لفتح الباب، وما إن فتحه حتى اتسعت عيناه من هول الصدمة.. لم يعرف من هؤلاء الغرباء، بل لا يريد أن يعرف.. ضاق صدره، وكأنه يقول للغرباء: ما الذي أتى بكم إلى هذه المدينة الغبية؟

تغيرت ملامح وجهه وتكدر.. لم يبش بهم كما بش إبراهيم رغم كرمه.. شعر بالإحراج منهم، وهو يرى نظرات القوم المخجلة من بعيد، لم يسألهم ما يريدون.. أدخلهم مباشرة، وهو يتصبب حرجًا وخجلًا قد ضاقت به الأرض، و﴿سِيٓءَ بِهِمۡ وَضَاقَ بِهِمۡ ذَرۡعٗا وَقَالَ هَٰذَا يَوۡمٌ عَصِيبٞ﴾، ارتبك.. كيف سيتصرف الآن، وبعض قومه خلف الباب كاللصوص؟ أي قرية قذرة ابتلي بإصلاحها هذا النبي؟

شل تفكيره.. ذهل عن تقديم أي شيء لضيوفه، ولم يُجر أي حديث ودي معهم.. أصبح مشغولًا بالتفكير في حمايتهم. كأني به يدور في البيت لا يدري ما يفعل، وفجأة أفاق على طرق شديد، وكأنه محاولة اقتحام.. مشى لوط نحو الباب، وهو في غاية الغضب والحزن، ثم فتحه، وإذ بوجوه قومه وعيونهم المتلصصة. ومباشرة بدأ يرجوهم.. يتوسل إليهم ألا يحرجوه. ويقول: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ ضَيۡفِي فَلَا تَفۡضَحُونِ ﴿٦٨﴾ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُخۡزُونِ﴾، فردوا بكل وقاحة: ﴿أَوَلَمۡ نَنۡهَكَ عَنِ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾، أو لم نحذرك من إيواء الناس؟ ناشد ما تبقى لديهم من قيم، لكنه لم يجد شيئًا، وكأن البخل واللصوصية والشذوذ عنوان الشرف عندهم.





وخرج لوط من زنزانته

ناشد لوط ﷺ ما تبقى لدى قومه من حياء، لكنه لم يجد شيئًا داخل وكر العصابة المسمى سدوم.. حاول إعادتهم إلى آدميتهم.. إلى التناغم مع الطبيعة البشرية: لم لا تتزوجون كبقية البشر.. هؤلاء بناتي وبنات قومي، ألا تشعرون بمعاناة النساء في هذه المدينة التعيسة، كيف يعانين من تخلف الذكور وإهمالهن. قال لوط: ﴿يَٰقَوۡمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطۡهَرُ لَكُمۡۖ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُخۡزُونِ فِي ضَيۡفِيٓۖ أَلَيۡسَ مِنكُمۡ رَجُلٞ رَّشِيدٞ ﴿٧٨﴾ قَالُواْ لَقَدۡ عَلِمۡتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنۡ حَقّٖ وَإِنَّكَ لَتَعۡلَمُ مَا نُرِيدُ﴾.

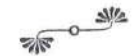
نـزف قلـب لوط حزنًا، وأنَّ من أعماقـه.. من قلة حيلته، متمنيّـا لو أن لديه قوة تردعهـم، أو عشـيرة تحميـه من اقتحـام بيته، كلمـا حل عليه ضيـف، حتى أصبح يكـره قدوم الضيـوف. زفر بكلمـات كالجمر، فقـال: ﴿لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِيٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾.

لـم يكـن يدري عَلَيْهِ السَّلَامُ أنـه (كان يأوي إلى ركن شـديد)[1]، وأن جنود السـماء قـد اصطفـوا داخـل بيته، بـل خلف ظهـره بالضبـط. وفجـأة، وفي أشـد حالات الضعـف والإحبـاط وفقـدان الأمـل، دوَّى صوت، رفـع معنويات لوط للسـماء. نطـق أحـد الضيـوف بـأول كلمـة.. نطق بصـوت كاسـتلال السـيف مـن الغمد: ﴿يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓاْ إِلَيْكَ﴾، حلقـت معنويـات لـوط.. لم تعـد سـدوم مـن أقصاهـا إلـى أقصاها تحـرك شـعرة من رأسـه، أو تسـتحق خفقة خـوف من قلبـه.. لقـد كان حقًّـا يأوي إلى ركن شـديد، ومن أشـد قـوة من الجبار سـبحانه، ومـن أقوى من المظلوم حين يستشـعر قـدرة خالقه جَلَّ وَعَلَا. اخترقـت الكلمة أذنه، فخـرج من البـاب، وكأنـه يخرج مـن زنزانة.

خـرج نحـو اللصـوص لا متوسـلًا ولا راجيًـا، بـل مهـددًا ومانحًـا فرصـة واحـدة.. فرصـة واحدة، أو هـو العـذاب.. تصفح تلـك الوجوه، التـي ليس فيها قطـرة دم، ولا تعـرف معنى للحياء أو الوقـار أو الذوق.. صاح فيهـا وجهًا وجهًا، وقـال: ﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ﴾، حـدق بنظـرات تقـول لهـم: أنتـم مسـتحقون لبطـش الجبـار، فما مـن أمة سـبقتكم في جمـع كل تلـك الصفـات.. أنتـم تفسـدون نظـام الحيـاة، وتجعلونهـا بائسـة من حولكـم.. تتسـببون في انقراض البشـرية، وانتشـار الأمـراض، فـأي عالم يمكن أن يسـتقر، حيـن تنتشـر فيـه بـلاد مثل بلادكـم، التـي تشـرعن الإرهـاب، وقطع الطريق، والسـطو، وتحتفي بالمتحرشـين والشـاذين.. أي قرية مقـززة تلك، التي

(١) صحيح البخاري ٣٣٧٢.

تهين ضيوفها، وتستدرج المسافرين؛ لتغتصب أموالهم، وتنتهك أعراضهم.. هي بلدة فريدة في الانحطاط تدعى سدوم.



هل طارت مدينة سدوم؟

كانت مدينة سدوم الوثنية نموذجًا لمدن الشيطان، التي تشرعن الإرهاب، وقطع الطريق، وانتهاك الأعراض.. مدن لا تستحق البقاء، فلو انتشرت ثقافتها لأباد العالم بعضه بعضًا، لذا انتهرهم لوط للمرة الأخيرة، فردوا تحديًا وصلفًا ﴿ٱئۡتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾، وإذ بدعوة النبي المكروب تنطلق: ﴿رَبِّ ٱنصُرۡنِي عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾.

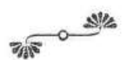
أغلق لوط بابه، وعاد لضيوفه الكرام، فإذ بالضيوف يأمرونه وأهله بمغادرة المدينة الليلة، وفي جنح الظلام، بل أمروه بعدم الالتفات في أثناء الرحيل مهما جرى.. قالوا له: ﴿فَأَسۡرِ بِأَهۡلِكَ بِقِطۡعٖ مِّنَ ٱلَّيۡلِ وَلَا يَلۡتَفِتۡ مِنكُمۡ أَحَدٌ إِلَّا ٱمۡرَأَتَكَۖ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمۡۚ إِنَّ مَوۡعِدَهُمُ ٱلصُّبۡحُۚ أَلَيۡسَ ٱلصُّبۡحُ بِقَرِيبٖ﴾، ثم ودعوه وودعهم، وما إن أغلق الباب حتى أخبر بناته فقط، فبدأن بجمع ما يمكن حمله من أغراض السفر.



خيم الظلام على سدوم، ففتح لوط باب بيته، وتسلل هو وبناته تاركين زوجته الوثنية.. تسللوا عبر الطرقات المظلمة، وبين جدران البيوت، وقهقهات السكارى.. كانت قلوب البنات تتمزق حسرة على الأم القاسية العنيدة، ومصيرها المجهول، ولما بدأت خطوط الفجر تتمدد في الأفق، كانوا خارج أسوار سدوم، وفجأة سطع في السماء ضوء مخيف، دوَّت معه صيحة هائلة تفجر الآذان، فارتفع صياح سكان المدينة، وأفاق السكارى على جدران تتصدع وبيوت تنهار، انشقت الأرض فابتلعت سدوم، حتى أصبحت أسطح

مبانيها في أسفلها، فلم يعد من جدران، ولا أبراج، ولا سطوح.. كل شيء كان يعلو أرض سدوم انغمس تحتها. امحت مدينة الإرهاب، وقطاع الطرق، والشذوذ، في غمضة عين، ثم بدأ القصف بقذائف السجيل، التي يصفها الجبار، فيقول: ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴿٨٢﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾.

امحت سدوم التي لم تكتشف إلا حديثًا، وهلكت زوجة لوط مع من هلك، وبينما كان الموت يخيم عليها، كانت الحياة تشرق في مكان آخر في القدس.. هناك حيث تئن سارة، ويتصبب عرقها، ويشتد ألم الطلق بها، وبعد ساعات كالموت، زيَّنت صرخة المولود منزلها، فخففت آلامها، وامتلأ قلب إبراهيم بالسرور، فضم الطفل وقبله، وعوَّذه بما كان يعوذ به أخاه إسماعيل: «أُعِيذُكَ بِكَلِمَاتِ اللهِ التَّامَّةِ، مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ وَهَامَّةٍ، وَمِنْ كُلِّ عَيْنٍ لامَّةٍ»[1].



هلك قوم لوط، وولد بنو إسرائيل

تزين ذلك المهد بطفل جميل، بين شيخ طاعن في السن، وعجوز لم تعد عقيمًا.. كانت ولادته معجزة.. طفل سيصبح له شأن عظيم كوالده.. سيصبح جدًّا لعشرات الأنبياء، ولقبائل كثيرة.. كبر الرضيع شيئًا فشيئًا، فعلمه والده التوحيد، ثم أصبح رجلًا، فتزوج في حياة والديه، كما بشر الملائكة في قوله تعالى: ﴿فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ﴾، فرزقه الله بابن سماه يعقوب.. وكان ليعقوب اسم آخر هو إسرائيل.

سعد إبراهيم وسارة بحفيدهما، كما سعدا بإسحاق، وبعد عمر طويل توفيا.. عمر طويل أمضياه في نشر التوحيد والعدل.. عانى خلاله إبراهيم التكذيب

---

(١) صحيح البخاري (٣٣٧١).

والقسـوة من قومـه، وعانى هو وأهل بيته مرارة التشـرد والغربة والشـوق للذرية، ولمـا رزقـه الله إسـماعيل امتحنـه الله بالبعد عنـه، وتركه في وادي بكـة وحيدًا مع أمـه.. كانت سـنوات قاسـية جـدًّا على قلب هـذا الشـيخ النبي، لكن ذلـك يهون في سـبيل نشـر توحيد الله ونشـر العدل.. بنى المسـجدين الحرام والأقصى، وها هـو اليوم يمـوت قرب الأقصـى، فيبكيه أبناؤه وأحفـاده وأتباعه.

يكـون نبيًّـا لم يـذق طعمًا للتـرف ولا للاسـتقرار، فكافأه الله بمنزلـة عظيمة، وأمـر العالـم بالسير على منهاجه فـي الإخلاص له، وعدم الشـرك بـه، أو التعلق بغيـره مـن البشـر أو القبـور أو الشـجر أو الحجـر أو الكواكـب، فقـال سـبحانه: ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۗ وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا ﴾، اسـتلم راية التوحيد بعده ابنه إسـحاق، ثـم ابنه يعقوب، وبعد سـنوات غادر يعقوب الأرض المقدسة، وسكن البادية، ورزقه الله ببنات، وعشرة بنيـن، وكانـت آخـر زوجاته بارعـة الجمال جدًّا، بـل هي أجمل نسـاء الدنيا.

شـعرت تلـك الزوجـة بأعـراض الحمل، وبعد تسـعة أشـهر أشـرق فـي بيت يعقـوب طفـل ليـس كالأطفال.. أشـرق جمـال على هيئـة طفل.. حملـه يعقوب بيـن يديـه، فرأى جمـالًا لم ير مثله أحد.. شـغف قلبه وسـماه (يوسـف)، وتعلق بـه كمـا يتعلق قلب الكبير عـادة بأصغر أبنائه رحمـةً وحبًّا، فكيـف بطفل كأنه من أطفال الجنة.. طفل قال عنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أُعْطِيَ يُوسُـفُ وَأُمُّهُ شَـطْرَ الْحُسْـنِ»[1]. ما أعذبـه، وهـو يحبو بين يعقـوب وأمه راحيل! ومـا أجمله وهو يحاول المشـي بينهمـا! فيسـقط فـي حجرها أو حجـره، لكن هذا الجمـال كان يثير نارًا للحسـد، لا تطـاق فـي قلوب بعـض أخوته.. حسـد جعلهم يعقـدون اجتماعًـا، يمحون به ذلـك الجمال إلـى الأبد.

---

(١) صحيح مسلم (١٦٢)، أما حديث: (أعطي يوسف وأمه شطر الحسن) فرواه ابن أبي شيبة (٣١٩٢٠) بسند قوي حدثنا عفان حثنا حماد بن سلمة عن ثابت عن أنس عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهو سند مسلسل بالأئمة الثقات على شرط مسلم.

قمر بين الكواكب

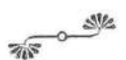
كان الطفل يوسف يسحر القلوب بجماله وبراءته.. تتخاطفه أيدي النساء والفتيات، حين يزرن أمه، أو حين تزورهن أمه.. ظل يوسف وحيد أمه، حتى رزقها الله بشقيق له، سموه (بنيامين).. كان الصغيران قرة عين إسرائيل، لكنهما جمرتان في قلوب أخوتهما العشرة، الذين يشعرون أنهم أولى بالاهتمام من هذين الصغيرين، فهم أقوياء أشداء، يعينون أباهم، وينفذون أوامره.

تفاقم الحسد، حتى تمنوا زوالهما، خاصة يوسف الذي يرونه يخطف قلب والدهم، حتى قالوا: ﴿لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾، أعمتهم الأنانية عن رؤية المساحات الخلابة، التي يحتلونها في قلب أبيهم إسرائيل الطيب، الذي يحبهم، لكنه طيش الشباب، الذي يفسر أي التفاتة من الوالد على أنها صدود عنه، وبينما كان الأخوة منشغلين بيوسف.. كان يوسف منشغلًا بالسماء.. يحلق عاليًا بين الكواكب، وإذ بحركة تدهشه، وتثير استغرابه.

دنا منه أحد عشر كوكبًا، حتى سجدوا له، بل سجدت الشمس معهم أيضًا والقمر. انتبه الطفل من نومه، الذي ربما كان يستلقي بالقرب من والده، فنظر إليه يوسف بعينين بريئتين ساحرتين، فأخبره برؤياه، وقال: ﴿يَٰٓأَبَتِ إِنِّى رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِى سَٰجِدِينَ﴾.

استنار وجه يعقوب، لكن خاف على طفله، فهمس به قائلًا: ﴿يَٰبُنَىَّ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا۟ لَكَ كَيْدًا إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾، قد يسخرون منك، وقد يدركون معناها، فيخططون لإيذائك، ثم طمأن قلبه الصغير، وقال وحيًا: ﴿وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾، أي سينعم الله عليك بمعرفة تفسير الرؤى، والنعمة الأعظم هي: أنك ستكون رابع نبي من سلالة جدك إبراهيم.

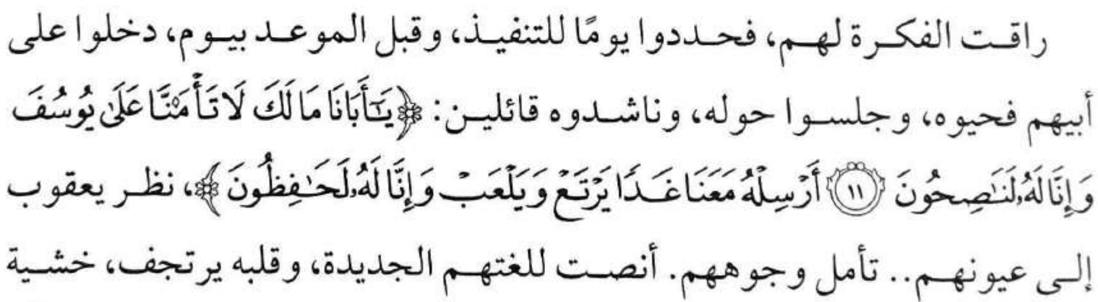
طوى الطفل سره، وخبأه في مكان قصي داخل صدره، لكن مؤامرة كانت تحاك ضده في الخارج.. حيث يعقد أخوته اجتماعًا حاسمًا للخروج بموقف من هذا الطفل، الذي احتل قلب والدهم.. تكلم بعضهم، فقال: ﴿ٱقۡتُلُواْ يُوسُفَ أَوِ ٱطۡرَحُوهُ أَرۡضٗا يَخۡلُ لَكُمۡ وَجۡهُ أَبِيكُمۡ وَتَكُونُواْ مِنۢ بَعۡدِهِۦ قَوۡمٗا صَٰلِحِينَ﴾. تناسوا أن يوسف مجرد طفل بريء.. حدق حسدهم بما معه من نعم الله، كما حدق إبليس بما مع آدم، وكما حدق قابيل بما مع هابيل.



انتهى وقت اللعب يا يوسف

تطرف بعض أخوة يوسف، فاقترحوا اغتيال أخيهم الصغير، أو رميه في البرية، حتى يهلك أو تأكله السباع قائلين: ﴿ٱقۡتُلُواْ يُوسُفَ أَوِ ٱطۡرَحُوهُ أَرۡضٗا يَخۡلُ لَكُمۡ وَجۡهُ أَبِيكُمۡ وَتَكُونُواْ مِنۢ بَعۡدِهِۦ قَوۡمٗا صَٰلِحِينَ﴾، لكن أحدهم خفف من هذا التطرف، قائلًا: ﴿لَا تَقۡتُلُواْ يُوسُفَ وَأَلۡقُوهُ فِي غَيَٰبَتِ ٱلۡجُبِّ يَلۡتَقِطۡهُ بَعۡضُ ٱلسَّيَّارَةِ إِن كُنتُمۡ فَٰعِلِينَ﴾، فلا فائدة من قتله. يكفيكم إزاحته كي لا يحول بيننا وبين أبينا.

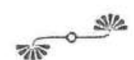




راقت الفكرة لهم، فحددوا يومًا للتنفيذ، وقبل الموعد بيوم، دخلوا على أبيهم فحيوه، وجلسوا حوله، وناشدوه قائلين: ﴿يَٰٓأَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأۡمَ۬نَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُۥ لَنَٰصِحُونَ ١١ أَرۡسِلۡهُ مَعَنَا غَدٗا يَرۡتَعۡ وَيَلۡعَبۡ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾، نظر يعقوب إلى عيونهم.. تأمل وجوههم. أنصت للغتهم الجديدة، وقلبه يرتجف، خشية أن يفقد تلك العينين البريئتين، فقال: ﴿إِنِّي لَيَحۡزُنُنِيٓ أَن تَذۡهَبُواْ بِهِۦ وَأَخَافُ أَن يَأۡكُلَهُ ٱلذِّئۡبُ وَأَنتُمۡ عَنۡهُ غَٰفِلُونَ﴾، ألم يدر بخلد يعقوب أنه لم يكن ثمة ذئب في الخارج، وأن الذئاب كلها في الداخل، ترمق طفله بعيون مخيفة.. تريد خطف أحب الناس إليه، لترميه في قعر بئر مظلمة، قد يفقد حياته داخلها، وقد يذهب عقله رعبًا بين طيها.

نطقت ألسنتهم بإجابة ممتلئة بالهياط: ﴿لَئِنۡ أَكَلَهُ ٱلذِّئۡبُ وَنَحۡنُ عُصۡبَةٌ إِنَّآ إِذٗا لَّخَٰسِرُونَ﴾، نحن عصبة.. تلك هي الكلمة الفخ، التي أغرتهم وغرتهم.. وافق الشيخ على مضض، ولما أشرقت الشمس كان العشرة والطفل في طريقهم للبرية.. ساروا لا يفتشون عن مراتع للطفل، بل عن بئر ملائمة على طريق السيارة، عل قافلة تعثر عليه فتلتقطه، وتريحهم منه. وبعد مسير وبحث، عثروا عليها. ربما كانت جافة، أو كانت كبيرة، وفيها مساحة تكفي لجلوسه أو وقوفه، ككثير من الآبار، وفجأة وبينما كان الطفل يلهو ببراءة.. لا يدري ما الذي يحاك له.

أطبقت عليه أيد غليظة.. تعال. انتهى وقت اللهو يا يوسف.. قامت تلك الأيدي بخلع قميصه، ثم رفعته عن الأرض، وعيناه زائغتان، لا يدري ما اسم هذه اللعبة المخيفة، ويناشدهم التوقف.. لم يتوقفوا، بل أخذوه نحو حافة البئر، ثم أنزلوه كدلو في غيابة الجب، وهو يناشدهم.. يصرخ. يستغيث، ثم ألقوا عليه نظرة أخيرة، ليتأكدوا من عدم موته. رفع الطفل رأسه، وتعلقت عيناه الدامعتان بدائرة البئر، التي تطل منها عشرة رؤوس، وفجأة انقشعت الرؤوس، وظلت عيناه معلقتين بالسماء، فأيقن أن أخوته قد تخلصوا منه، وأنه لن يرى راحيل ويعقوب الحبيبين.



مسيرة اللطم والنواح

في قاع البئر المظلمة، كان يوسف عاري الجسد خائفًا.. يناشد عشرة رؤوس تطل من فوهة البئر وتحدق به، ولها ثرثرة، وفجأة انقشعت الرؤوس، وقبل أن يستبد به الخوف، أو يذهب عقله من الرعب.. أنزل الرحمن الرحيم على قلبه السكينة، وأوحى إليه بالطمأنينة.. كلمات تقول له: ﴿وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمۡرِهِمۡ هَٰذَا وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ﴾، انقشع المتآمرون عن البئر، بينما كان

أحدهـم يمسـك بقميـص يوسـف ﴿وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٖ كَذِبٖ﴾ فلطخوه بذلك الـدم الـذي قـد يكـون دم طيـر أو دابـة. وبذلك انتهـت المهمـة، ولم يبق سـوى تسـليم الدليـل للوالـد، ليتأكد من فناء يوسـف.

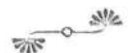
غابـت الشـمس فتحولت فوهـة البئر المضيئة إلى دائرة سـوداء، تشـع خلالها بعـض النجـوم، وكأنها نهاية نفـق مخيف، ولما دخل وقت العشـاء كان الشـباب الطائشـون يقبلون على الديـار بتثاقل.. يتظاهـرون بالحزن والبـكاء، كلما قابلهم أحـد، ولما اقتربـوا من البيت، بدأ مسـتوى التباكـي والنواح يرتفـع.. دخلوا على أبيهم، فرفع الشـيخ رأسـه وحدق بمسـرحية الحزن والمناحة التي تعرض حوله، حين جاءوا ﴿أَبَاهُمۡ عِشَآءٗ يَبۡكُونَ ١٦ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبۡنَا نَسۡتَبِقُ وَتَرَكۡنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَٰعِنَا فَأَكَلَهُ ٱلذِّئۡبُۖ وَمَآ أَنتَ بِمُؤۡمِنٖ لَّنَا وَلَوۡ كُنَّا صَٰدِقِينَ﴾.

وقبـل أن يسـأل يعقـوب أو يستفسـر. مـد أحدهـم القميـص لوالـده، فأخـذه الشـيخ وبـدأ يقلـب ويتأمل قميـص حبيبـه، ويتأمل الطريقـة الغبية لصبغـه بالدم، فبكى قلبه حزنًا وشـوقًا، واسـتودع الله صغيره، ثم تأمل دموع التماسـيح في عيون الممثليـن أمامـه، فزفر بكلمـات كالجمر. كلمات كشـفت هزال مسـرحيتهم، ثم قـال ﷺ لهـم: ﴿بَلۡ سَوَّلَتۡ لَكُمۡ أَنفُسُكُمۡ أَمۡرٗاۖ فَصَبۡرٞ جَمِيلٞۖ وَٱللَّهُ ٱلۡمُسۡتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾، فاضـت عينـاه وبكـى، وأقبلـت أمه (راحيـل) ملهوفة مفجوعة، تسـأل عـن سـبب هـذا البكاء والعويـل.. نظرت إلـى الشـباب، فلم تجد يوسـف بينهم. أيـن ابنـي يا يعقوب؟

أراهـا قميصـه الـذي يدين أخوتـه، فصرخت وناحـت واحتـرق جوفها: كيف يأكلـه الذئب، وأنتـم حوله. أيـن هياطكم وتعهدكـم بحمايته؟

لم تجـد إجابـة، ظلـت تبكـي طفلها طـوال الليـل، وأشـرقت الشـمس وهي تبكـي.. لم تـذق طعمًا للنـوم ولا للطعـام.. مـرت الأيـام والعبرة تخنقهـا، كلما وقعـت عيناهـا على فراشـه، أو قلبت ملابسـه، أو جمعت ألعابه.. يرتفع شـهيقها

كلمـا تذكـرت جماله وبراءتـه، التي تزيـن البيت والحـي، ويزيدها يعقـوب حزنًا حيـن يؤكـد أن الذئـب لم يأكله، فهـل باعوه أم تركـوه عاريًا جائعًا خائفًا.. أسـئلة لا إجابـة لها سـوى الدموع.



الطفل والقافلة

أمضـى يعقـوب صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وراحيـل ليلتهمـا يبكيـان طفلهمـا.. لم تجـد الأم طعمًـا للنـوم، ولا لـذة للطعـام، وطفلهـا لـم يعـد بينهمـا.. تـرى أيـن هـو؟ حتمًا يوسـف ليـس في جـوف ذئب.. هـذا مـا كان يعقوب على ثقـة منـه. فطفلهما في بئـر مظلمة.. يهتز جسـده الصغير كلما نعس.. ينتفض كلما أعيـاه البكاء والتعب، حتى أشـرقت الشمس.

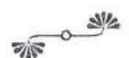
رفـع الطفـل رأسـه نحـو فوهـة البئـر، فـإذا هي قـد عـادت لتنير شـيئًا فشـيئًا، مرت السـاعات، وفجأة سـمع حركـة وأصواتًا في الأعلى. لعلهـم إخوتي ندموا، فعـادوا لأخـذي.. لم يكـن الصوت صـوت إخوته.

كانـت سـيارة أناخـت عنـد البئـر ﴿فَأَرْسَلُوا۟ وَارِدَهُمْ فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُۥ﴾، لجلـب بعض المـاء.. خفـق قلـب الطفـل فرحًـا، فمد يديـه نحـو الدلو والحبـل، فشـعر الوارد باهتـزاز الحبـل، وانجـذاب الدلـو قبـل أن يمتلـىء. حـدق بقـاع البئـر، فـإذا هو بطفـل يمسـك بدلوه، وينادي.. صـاح الوارد برفاقـه؛ ليروا ما لا يمكـن تصديقه، وهتـف: ﴿يَٰبُشْرَىٰ هَٰذَا غُلَٰمٌ﴾، نظـر المسـافرون بعضهـم إلـى بعض مسـتغربين، وأقبلـوا نحـو البئر وأطلـوا، فطلبوا مـن الطفل التمسـك بالحبل، أو نـزل أحدهم لرفعـه. بدؤوا بسـحب الحبـل برفق خوفًـا عليه.

وفجـأة أشـرق القمـر مـن ظلمـة الجـب.. طفل لم يـروا مثـل جمالـه.. تبدو عليـه آثار الجوع والسـهر والتعب.. ترى هل سـقط، أم أسـقط؟ ومـن يجرؤ على

رمـي طفـل، فكيـف بطفل بهـذا الجمـال؟ أخرجـوه وسـقوه وأطعموه وألبسـوه ثيابـا فغدا كالقمر.. سـألوه عن اسـمه وقصتـه، فعرفهم بنفسـه، وأنه ابـن يعقوب النبـي، وأن إخوتـه ألقـوه فـي الجـب، ولـم يتركـوا له حتـى قميصه الذي يسـتره. لم يأبـه المسـافرون بـه، ولا بنبـوة أبيـه.. ما يهمهـم هو أنهـم حصلوا علـى عبد، يـدر عليهـم دراهـم.. حولوا ابن نبـي الله إلى سـلعة، ﴿وَأَسَرُّوهُ بِضَٰعَةً وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَعۡمَلُونَ ﴾، فهـو لا يصلـح للخدمـة، نظرًا لصغر سـنه.

أخبرهـم بشـوقه لأمـه.. لأبيـه، لكنهـم لم يبالـوا، بـل أركبـوه فـوق إحـدى مطاياهـم، ثـم تحركـت السـيارة متجهـة نحـو مصـر، التـي كان يحكمهـا آنـذاك ملـوك، يقال لهم (الملوك الهكسـوس)، وبعـد أيام دخلوا مصـر الجميلة. تهادوا عبر شـوارعها، وهدفهم سـوق النخاسـة، وبعض المارة يتأمل هذا القمر الحزين، فتخفق قلوبهم. توقفت السـيارة في السـوق، فأنزلوه وعرضـوه للبيع. كانت عيناه البريئتـان تتلفـت أمـام تحديـق المتطفلين، وتفحـص التجار والمشـترين، تتلفت وكأنهـا تبحـث عن حضن راحيـل، أو طيف يعقـوب، وفي أثناء تلفتـه رأى رجلًا أنيقًـا، يبدو عليـه الثراء.. يتهـادى نحوه.



أجمل عبد على الأرض

كانـت التسـاؤلات تعصـف بقلب يوسـف الصغير.. عينـاه البريئتـان تائهتان، وهـو يعـرض للبيـع في سـوق العبيـد بمصـر، وإذ برجل أنيـق يقترب منـه.. ينظر إليـه فيرق له، ويسـكن قلبـه، فيلتفـت للبائع ويسـوم الطفل، فلم يتـردد أصحاب السـيارة فـي بيعـه، ﴿بِثَمَنِۭ بَخۡسٖ دَرَٰهِمَ مَعۡدُودَةٖ وَكَانُواْ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ ﴾.

أنزلـه الرجـل العزيز من منصـة البيع، وأخذ بيده الصغيرة نحـو منزله، وقد ملأ الرحمـن قلبـه برحمته.. تهـادى معه في الطرقـات، أو ركب معه إحـدى العربات

الهكسوسية، والطفل الحزين لا يدري ما مصيره، فالحياة تتقلب أمامه بشكل سريع وصادم ومفاجىء.. كان بالأمس في حضن راحيل ويعقوب، ثم أصبح وحيدًا في قعر بئر مظلمة، لا أنيس فيها سوى الله، ثم تحول إلى بضاعة تجلبها القوافل، وها هو اليوم لا يدري أنه عبد، ولا إلى أين سيؤخذ، ولا ما سيفعلون به.. هواجس لن يزيحها سوى رؤية راحيل ويعقوب الحبيبين.

توقف العزيز عند أحد المنازل الفخمة، ثم دخل وبيده أجمل عبد على الأرض.. هتف بزوجته فأقبلت.. فتحت عينيها على طفل كالصباح، فتأوه قلبها من جماله، فبشرها زوجها، وقال ﴿ لِٱمْرَأَتِهِۦٓ أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا ﴾، عانقت جماله، ونادت خدمها، فأمرتهم بتنظيفه، وإلباسه ثيابًا جميلة. غسلوا جسده الصغير، وسرحوا شعره الناعم، وألبسوه ثيابًا زادته فتنة وجمالًا.. تلألأ كألماسة، ثم أطعمته وسقته، واعتنت به حتى ملأ حبه قلبها يومًا بعد يوم.. كبر الطفل، وكبر حزنه على أمه وأبيه، اللذين يبكيانه منذ رحل عنهما.. تجاوز يوسف سن المراهقة، فازداد جماله، وازداد شوقه لأهله، رغم أنه يتقلب في الدلال.. كان مؤدبًا عفيفًا.. يزداد وفاءً لسيده الذي أكرمه، ويزداد رجولةً وأخلاقًا، يزداد جماله حتى بلغ مستوى فردوسيًّا، هو (شطر الحسن)[1].

كان فتنة للنساء أينما حل وأشرق.. حتى زوجة العزيز تغيرت، منذ أن بدأ يوسف يخطو أولى خطوات الرجولة.. غيَّرها جمال لا يُرى إلا في الجنة.. خلت منه الأرض، فاستقر في بيتها، فأنساها أنه ذلك الطفل، الذي اشتراه زوجها قبل سنوات.. في البداية كانت تخاف عليه، ثم أصبحت تغار عليه.. أمسى في نظرها معشوقًا لا تطيق فراقه، ولا تريد لأحد أن يعلم أين تخبئه في قلبها، أما ما زاد افتتانها به، فهو تعففه ورجولته، التي تترفع عن الخيانة لسيده.

(١) صحيح مسلم (١٦٢).

حصار عاشقة

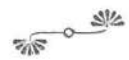
أصبح يوسف في نظر زوجة العزيز معشوقًا لا تطيق فراقه، وزاد من افتتانها به تعففه ورجولته، التي تترفع عن خيانة سيده، والنساء لا يحلمن بشيء كحلمهن بالعفيف الجميل.. حاولت العاشقة أن تظهر له أنها تغيرت.. وأنها لا تمت له بصلة قرابة.. شعر الفتى بذلك، وشعر بفداحة الخيانة، لمن فتح له بيته، وأكرمه وعامله كابنه.. كان يخشى الله في مال سيده وعرضه، لذا كان يتجاهل كل قوائم الإغراء، ولوحات الأنوثة، التي تُعرض عليه، وفي أحد الأيام كان يوسف في البيت لوحده.. خلوة لا يمكن إلا لمن عصمه الله من الأنبياء والأولياء أن ينجو منها.

مشت المرأة نحو الأبواب، تقفلها بابًا بابًا، لتطمئنه أن لا أحد يراه، أو يدخل عليه.. أقبلت على الفتى الطاهر، فإذ به يصدم بخطواتها ومآربها، ذكرها أن لها زوجًا، وأن لزوجها عليه معروف، لن يتنكر له، لكنها لم تتراجع، فالخلوة حالة سكر.. يغيب فيها العقل والتفكير في العواقب، فكيف إن كانت الخلوة بأجمل البشر.. الخلوة بيوسف كمن ينظر إلى الشمس في رابعة النهار.. تغيب لحظتها كل الكواكب والنجوم والأجرام.. دنت منه ﴿وَرَٰوَدَتۡهُ ٱلَّتِي هُوَ فِي بَيۡتِهَا عَن نَّفۡسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلۡأَبۡوَٰبَ وَقَالَتۡ هَيۡتَ لَكَۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾، لكن المرأة لم تعد تبالي سوى بمعشوقها.. أصبحت الدنيا بأسرها مختزلة في هذه اللحظة.



اللحظة التي طالما هدمت بيوتًا، وضيعت أسرًا، وورثت أطفالًا.. لا يدرون من رمى بهم إلى هذه الدنيا.. لقطاء، كلما رأوا طيفًا يشبههم بكت قلوبهم، وقالت: ترى هل هذا هو أبي، هل هذه هي أمي؟ وفي لحظة ضعف بشرية همَّ بها يوسف.. تحرك قلبه، وما إن همَّ قلبه، حتى شع في قلبه الضوء، الذي أناره، وهو يقبع في قعر البئر.. شع في قلبه برهان ربه، ودليله على أنه نبي

وابن نبي، ﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَـٰنَ رَبِّهِۦ ۚ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾، أفاق يوسف.. التفت إلى أحد الأبواب، ثم ركض نحوه ليهرب منه، فركضت المرأة خلفه، حتى أمسكت بقميصه من الخلف ثم جذبته، فإذ بصوت القميص ينشق، فينكشف ظهره، ﴿ وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٍ ﴾، ظل يوسف يركض بقميص ممزق نحو الباب الخارجي، وقبل أن تقبض يده على العروة فُتح الباب.. فتحه شخص من الخارج، فصعقه المشهد.



يوسف يتلقى الطعنات

فتح الباب، فتوقف يوسف، وتوقفت المرأة خلفه، وهي تمسك ببقايا القميص.. اتسعت الأعين، وارتجفت القلوب لهول المفاجأة.. إنه زوجها العزيز.. هو من فتح الباب.. تحنط الثلاثة.. حنطتهم المفاجأة.. ارتجفت المرأة، وتساءل صمت العزيز: مم يهرب يوسف، ولِمَ تقف زوجته خلفه، وصدرها يعلو وينخفض؟ ولماذا تمسك بقميصه المشقوق.. هل تريد أن ترقعه مثلا؟ وقبل أن يحلل المشهد، وقبل أن يتكلم.. نطق الكيد.

ضحت بمعشوقها.. ضحت بحب يوسف، وجمال يوسف، وفتنة يوسف، من أجل إنقاذ نفسها، حين ﴿ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلْبَابِ ۚ قَالَتْ مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾، فيوسف هذا متحرش شرير، وهي تركض خلفه، لأنها كانت تريد تأديبه وضربه حفاظا على شرفك، لذا فهو يركض خوفا منها وهربا من العقوبة.

ذهل يوسف.. اتسعت عيناه من وقاحة المرأة وجرأتها.. ذهل من تحولها من متحرشة إلى سيدة للعفاف.. من حمل إلى لبؤة تمزق من يقف أمامها، وذهل العزيز أيضا فلم ينطق بحرف.

هنا نطق يوسف المسكين فقال: ﴿هِيَ رَٰوَدَتۡنِي عَن نَّفۡسِي﴾.

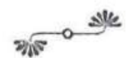
تحول المشهد إلى خنجر، يسافر في قلب العزيز.. أسكته الحزن والحيرة بين الزوجة والابن، لذا استشار شخصًا حكيمًا من أهلها، فإذ به يقول له: ﴿إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٖ فَصَدَقَتۡ وَهُوَ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ﴾، لأنها مزقت القميص، وهي تدافع عن نفسها، وتقاوم اعتداءه. ﴿وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٖ فَكَذَبَتۡ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾، لأنه قد أعطاها ظهره وولى عنها.

عاد العزيز لبيته وتأمل القميص، فإذ بقميص يوسف هو الدليل كالعادة، لكن بما أن شيئًا لم يحدث، وأن المسألة مجرد نوايا، قام العزيز بتوبيخها، وقال: ﴿إِنَّهُۥ مِن كَيۡدِكُنَّۖ إِنَّ كَيۡدَكُنَّ عَظِيمٞ﴾، ثم قال لها: ﴿وَٱسۡتَغۡفِرِي لِذَنۢبِكِۖ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلۡخَاطِـِٔينَ﴾، ثم التفت إلى يوسف طالبًا منه أن يتناسى الأمر، وكأن شيئًا لم يحدث، وقال له: ﴿يُوسُفُ أَعۡرِضۡ عَنۡ هَٰذَا﴾.

تناسى يوسف المرارة، لكن المرأة لم تتناسى هزيمتها.. قررت الانتقام لأنوثتها من معشوقها، فقد انتشر خبر التحرش في المدينة، ربما من ثرثرتها، فبدأ بعض النسوة اللواتي كن يحسدنها على يوسف بالتشفي منها.. يسخرن من استعلاء الفتى وترفعه عن إغوائها وإغرائها وتمريغه لأنوثتها ﴿وَقَالَ نِسۡوَةٞ فِي ٱلۡمَدِينَةِ ٱمۡرَأَتُ ٱلۡعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفۡسِهِۦۖ قَدۡ شَغَفَهَا حُبًّاۖ إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾.



وصلت وشوشة المجالس إلى مسامع العاشقة المنكسرة، فقررت أن يعشن شيئًا من معاناتها.. قررت أن تلقنهن درسًا كي يبتلعن ألسنتهن.



درس للشامتات

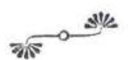
أرسلت زوجة العزيز بعض خدمها ببطاقات دعوة شفهية، لجاراتها وصديقاتها اللواتي شمتن بها. خرج الخدم نحو بيوت النساء بيتًا بيتًا..

يدعونهن لوليمة خاصة. لم تتردد النساء الفضوليات في تلبية الدعوة.. إنها دعوة لا يمكن رفضها، كيف لا، وبعض الحديث سيكون عن يوسف الفتان، وفي بيت عاشقته.. كيف لا، وهناك سبق من المصدر نفسه.

أشرق يوم الاحتفال، فهيأ الخدم المكان حسب أوامر سيدة الحفلة، ووزعت المقاعد، ﴿وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَـًٔا﴾، في اتجاه يخدم هدفًا، ووضعت المشروبات، وصفت أطباق الفواكه اللذيذة بشكل أنيق، أما المدعوات فارتدين الملابس الأنيقة والحلي، واكتحلن وتعطرن، فاليوم يوم التنافس أمام أجمل أهل المدينة.. تداعت الخطوات نحو بيت العاشقة. تبخترت الأنيقات، علها ترى طيف يوسف.. سرن وضربات القلوب تسابق الخطوات، ولما وصلن كانت امرأة العزيز وخدمها في استقبالهن.. رحبت، ودعتهن للجلوس، فأخذن مقاعدهن، وتبادلن أحاديث المجاملة، والابتسامات الصفراء، وبعد ساعة قدم الخدم الفاكهة، ونهضت سيدة القصر، ﴿وَءَاتَتْ كُلَّ وَٰحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا﴾، حادة، ودعتهن بلطف، لإكمال حديثهن في أثناء تناولها، ثم تهادت بخبث نحو أحد الأبواب، التي تؤدي إلى مكان يتواجد فيه يوسف، منتظرًا أوامرها الصارمة. أقبلت نحوه بحزم، وأمرته أن يدخل على ضيفاتها، وأن يقف أمامهن دون أن يتكلم.. تقدمت، ثم قالت: ﴿ٱخْرُجْ عَلَيْهِنَّ﴾.

أشرق البدر من الباب، وأفواههن منشغلة بالمضغ أو الثرثرة، وسكاكينهن منشغلة بالفاكهة.. أشرق يوسف، فارتجفت القلوب، وتوقفت الثرثرة، حتى الأفواه ظلت مفتوحة.. تاهت الأحرف منها.. شخصت الأبصار، والأيدي تحرك السكاكين دون وعي حتى جُرِحَتِ الأيدي.. كانت امرأة العزيز بجواره، لكن أحدًا لم يأبه بها، أو يخجل منها.. غابت المجاملة والشعور بالألم في حضور جمال الجنة.. جمال الجنة، الذي أذهلهن عن كل شيء.. عن الطعام والكلام والآلام وتعديل الملابس وخصلات الشعر.. ذهلن أمام هذا الفاتن،

الـذي لا يفصلهن عنه سـوى خطوات.. ينتزع قلوبهن قلبًـا قلبًا، وإذ بزوجة العزيز تصدمهـن، حيـن أصـرت على تمريغ هـذا الجمال فـي الوحل.



انتقام عاشقة

لم تقل النسـاء عن يوسف: إنه أجمل شباب المدينة.. لم يقلن: إنه أجمل أهل الأرض.. لم يجدن لجماله قاموسًـا بشـريًا، فهذا الحسـن لا ينتمي لعالم البشـر، ﴿فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾، وقف الملاك لا يدري ما يقول.. وقف بين سـيدة متسـلطة متحرشـة، ونسـاء منهارات، لم يأبهـن لنزيف أيديهن، فيوسـف جمال لا يوصف، ولا لغة تعبر عنه سـوى لغة القلـوب.. بدأت سـيدة القصر تلملـم كرامتها مـن أحرفهن المرتبكـة، ونظراتهن الزائغة.. شـعرت بالزهـو.. بالانتصار.. بالشـماتة بالشـامتات اللواتي لن يجرؤن على تناول سـيرتها بعد اليوم بسـوء.

هتفـت بهـن تعلـن نصرهـا عليهـن، ومعترفـة بنصـر يوسـف عليهـا، فقالت: ﴿فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ ۖ وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ﴾، لكـن العـزة أخذتهـا بالإثـم.. قررت إذلالهن، وإذلال يوسـف معهن، ويبدو أن لتلك السـيدة علاقات ببعـض المتنفذين، لذا قامت بتهديده أمام النسـاء بلا خجل، قائلة: ﴿وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ﴾، فهـي لـم تعـد تهتم لشـماتتهن بعد أن رأت انهيارهـن أمامـه، أمـا الفتى فشـعر بالحزن، وهو يتلقـى التهديد.. شـعر بالضعف أمـام جمـال ألقاه فـي بئر.. جمـال حوله مـن (الكريم ابـن الكريم بـن الكريم بن الكريـم)[1] إلى عبد ذليل، بين نسـوة لا يسـتطعن السـيطرة على غرائزهن.. شـعر بقلـة الحيلـة، لكنـه أدرك أنـه فـي معيـة الله، الـذي لم يخذله فـي مواقف أشـد..

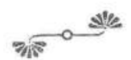
(١) صحيح البخاري ٣٣٩٠.



تناسى الأرض، وتعلق بالسماء، وتوجه إليه سبحانه، فقال: ﴿رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِۖ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ (٣٣) فَٱسْتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾.

أدركت السيدة أن عبدها أكثر حرية منها، وأنه أرقى منها بسماوات.. فعبدها فضَّل أن يكون حرًّا في السجن، على أن يكون عبدًا للمعصية خارجه. استطاعت المرأة استصدار أمرًا بسجنه، فقرروا ﴿لَيَسْجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٍ﴾، بعد أن قضى من عمره أكثر من خمس عشرة سنة من الرق والغربة ومرارة الذل بتهمة الجمال والحب، وها هم السجانون يقتادونه، لتبتلعه الزنزانة مدة لم يحددها قضاء، بل يتحكم بها مزاج سيدة متحرشة.. ظلت مصرة على إبقائه داخل السجن، ما دام مصرًّا على العفاف.

نسيته المدينة، وتناسته النسوة، وحتى العزيز نسي أمره.. اثنان لم ينسياه يومًا، ولم يتوقفا عن البكاء عليه. يعقوب وراحيل.



أصبح نبيًا في السجن

في اليوم الذي ابتلعت فيه الزنزانة يوسف دخل ﴿مَعَهُ ٱلسِّجْنَ فَتَيَانِ﴾،) وثنيان.. اقتسم الثلاثة الزنزانة، وأمضيا مدة، تعلم الفتيان خلالها من سمت يوسف وعبادته الكثير.. كان متواضعًا رغم ما حباه الله به من جمال، فكم من فتى جميل ضيعه جماله، وكم من جميل أنساه جماله فضل الله عليه، وفي السجن بدأت نبوة يوسف.. بدأت حين قال لزميليه في الزنزانة: ﴿لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَاۚ ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّيٓ﴾.

أدرك الفتيان أن يوسف فتى ملهم، وأنه ابن نبي وحفيد نبي، فبدأا يستشيرانه، ويستنيران برأيه، وذات يوم أفاق أحدهما من رؤيا غريبة، فطلب

من يوسف تفسيرها، ﴿قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَعۡصِرُ خَمۡرٗا﴾، فتذكر الآخر رؤيا رآها، وقال له: ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَحۡمِلُ فَوۡقَ رَأۡسِي خُبۡزٗا تَأۡكُلُ ٱلطَّيۡرُ مِنۡهُۖ نَبِّئۡنَا بِتَأۡوِيلِهِۦٓۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾. وقبل أن يفسر الرؤيا لرفيقيه.. أحب أن يقدم لهما أهم رسالة يحملها الأنبياء وأتباعهم، وهي (التوحيد)، رسالته ورسالة والده وجده، ورسالة كل الأنبياء قبلهم وبعدهم، فقال: ﴿إِنِّي تَرَكۡتُ مِلَّةَ قَوۡمٖ لَّا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ كَٰفِرُونَ ٣٧ وَٱتَّبَعۡتُ مِلَّةَ ءَابَآءِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَۚ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشۡرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَيۡءٖۚ ذَٰلِكَ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ عَلَيۡنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشۡكُرُونَ﴾، ثم خاطب عقلي صاحبيه، فقال: ﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ ءَأَرۡبَابٞ مُّتَفَرِّقُونَ خَيۡرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ﴾، ثم بين لهم أن الوثنيين ضحايا العادات والتقاليد، وأن الآلهة التي يعبدونها مجرد أخشاب وصخور، يشكلونها بأيديهم.. أنتم أرقى منها، وأنتم من يتحكم بها، ﴿مَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسۡمَآءٗ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٍۚ إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۚ أَمَرَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾.

ثم التفت لصاحب الرؤيا الأولى فبشره، وقال: إنك ستكون ساقي رجل مهم، وأخبر الآخر أنه سيحكم عليه بالصلب، وسيبقى مصلوبًا حتى تنقر الطيور الرامة رأسه، وهو مصلوب. قال يوسف: ﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسۡقِي رَبَّهُۥ خَمۡرٗاۖ وَأَمَّا ٱلۡأٓخَرُ فَيُصۡلَبُ فَتَأۡكُلُ ٱلطَّيۡرُ مِن رَّأۡسِهِۦۚ قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ ٱلَّذِي فِيهِ تَسۡتَفۡتِيَانِ﴾، وبعد أيام أو أشهر سمع المسجونون أصوات خطوات السجانين، وهم يقفون أمام الزنزانة.. فتحوا بابها. ثم حدقوا بأحد الفتيين.. بادلهم النظرات، وهو يرتجف.. إنها اللحظة المحتومة، التي تحدث عنها يوسف.. الصلب.

يوسف في ممرات النسيان

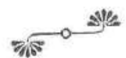
أخذ السجانون رفيق يوسف.. ساقوه نحو ساحة الإعدام، ثم صلبوه، وبعد مدة فاحت رائحة جثته، فإذ بالطيور الرامة تحلق فوقها، وتحوم، ثم تهبط على الخشبة، وعلى رأسه فتنقره، وتأكل منه، وقبل ذلك أو بعده أقبل الحرس؛ ليأخذوا الفتى الآخر، ولكن بطريقة ودية، وقبل خروجه استوقفه يوسف، وناشده أن يحرك قضيته عند سيده، لأنه يبدو أن الناس قد نسوه، ونسوا قضيته، وقال له: ﴿ٱذۡكُرۡنِي عِندَ رَبِّكَ﴾.

خرج الفتى من السجن، ثم تدرج في الوظائف، حتى أمسى ساقي الملك الهكسوسي، فانشغل بما هو فيه من نعمة، وأنساه الشيطان والانشغال بالخمر يوسف، الذي اقترب من الثلاثين من العمر.. لا أحد يأبه به، فهو عبد مقطوع الصلة بالمجتمع، حتى أولئك النسوة اللاتي قطعن أيديهن، وتمنين وصاله ولو لساعات، لم تتحرك ضمائرهن لمناشدة السيدة المتسلطة، أن تعفو عنه.

لم يكن في الزنزانة ما يسلي سوى القرب من الله سبحانه، والأنس بذكره في روحانية شفافة، لا يعكر صفوها شيء.. تتماهى روحه بأنوار الحب لله، فيتلاشى الشعور بالحبس.. ظل يوسف في عبادة، وكأنه ملاك في زنزانة تتضوع بذكر حبيبه ومناجاته سبحانه، أما خارجها، وبالتحديد في قصر الملك، فقد كان هناك مشهد مخيف.. سبع بقرات عجاف، قد بدت أضلاعهن من الهزال والضعف، يهجمن على سبع بقرات سمان، تتفجر ضروعهن لبنًا.. دنت الهزال من السمان، وفتحن أفواههن، ثم بدأن يلتهمن السمان، وكأنهن من السباع الضواري.. كان هذا المشهد يحدث وسط اهتزاز أربع عشرة سنبلة.. سبع خضر، وسبع يابسة.

أفاق الملك الهكسوسي من رؤياه فزعًا.. جلس على سريره متضايقًا، ولما غادره، واغتسل ولبس حلته الملكية وحليه، وخرج محاطًا بحرسه.. ظل يمشي

فـي ممـرات القصر مهمومًـا، حتى وصل عرشـه الـذي اصطفت حاشـيته حوله، وانحنـت لـه، ثم جلـس على العرش، وقدم له السـاقي شـرابه.. نظـر الملك لمن حولـه، والحيـرة تلون وجهـه، وأخبرهم عـن رؤياه، قائـلًا: ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰ سَبۡعَ بَقَرَٰتٖ سِمَانٖ يَأۡكُلُهُنَّ سَبۡعٌ عِجَافٞ وَسَبۡعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضۡرٖ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٖۖ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَأُ أَفۡتُونِي فِي رُءۡيَٰيَ إِن كُنتُمۡ لِلرُّءۡيَا تَعۡبُرُونَ﴾، كانـت الرؤيـا رمـوزًا مخيفة، ورغـم أن الملك هـو من رآهـا، إلا أن الحاشـية عجزت، حتى عن صبـغ رموزها بألـوان التفاؤل.. عجـزت حتـى عـن رفـع معنويـات الملـك، وإذ بالسـاقي يتذكـر رفيـق الزنزانـة يوسف ﷺ.



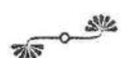
يوسف يرفض مغادرة السجن

تمنـت الحاشـية أن يتجاهل ملكهم هذه الرؤيا، التـي أقلقته قائلين: ﴿أَضۡغَٰثُ أَحۡلَٰمٖۖ وَمَا نَحۡنُ بِتَأۡوِيلِ ٱلۡأَحۡلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ﴾، هنا تذكر السـاقي رفيـق الزنزانة.. تذكـر الفتى صـادق التعبيـر، الـذي تحققـت نبؤته فيه، وفـي زميلـه المصلوب، فنظـر للملك بحماس، وقـال: ﴿أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأۡوِيلِهِۦ فَأَرۡسِلُونِ﴾، للسـجن، ففي إحـدى زنزاناته شـخص لا يكذب تفسيره للرؤيـا. طلب الملك فـورًا تمكين السـاقي من دخول السـجن، فانطلق بصحبة الحرس.

فتحت البوابات للسـاقي، فتهادى في الممرات، التي تومض فيها المشـاعل.. ممـرات مخيفـة، وكأنها بنيت مـن الآلام والذكريـات المريرة.. ظل يمشـي حتى أصبـح أمـام الزنزانـة، ففتـح البـاب ودخـل السـاقي، فتأملـه يوسـف ﷺ وعرفـه رغـم السـنوات.. نظـر إليـه وفـي عينيـه عتـاب.. تبادلا التحايـا، ثـم قال السـاقي: ﴿يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ أَفۡتِنَا فِي سَبۡعِ بَقَرَٰتٖ سِمَانٖ يَأۡكُلُهُنَّ سَبۡعٌ عِجَافٞ وَسَبۡعِ سُنۢبُلَٰتٍ خُضۡرٖ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٖ لَّعَلِّيٓ أَرۡجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَعۡلَمُونَ﴾، ثـم سـكت. نظـر إليـه يوسـف، ثـم نطق وحيًا، فأنصت السـاقي لتأويـل الرؤيا باهتمام، ثم ودع يوسـف

وعـاد للملـك، والخوف يملأ قلبه. ومـا إن أصبح أمامه حتى أخبـره: أن الصديق فسـر لـه الرؤيـا، وضمنها نصائح سـتفيد الدولـة، رغـم أنه في السـجن، فيوسـف يقـول: ﴿تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ ﴿٤٨﴾ ثُمَّ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ﴾، ذهـل الملـك مـن دقـة التفسـير، وزاد السـاقي ذهولـه، عندما أخبره أن يوسـف سـبق أن فسـر له رؤياه ورؤيا صاحبه، فتحقق التفسـيران.

هنـا أصـدر الملـك أمرًا بإحضـاره للبلاط فـورًا. انطلـق الرسـول، ولما دخل على يوسـف بشـره بالعفو الملكـي، وطلب منه بشـكل لطيف أن يصحبـه مكرمًا إلى الملك. ظن الرسـول أن يوسـف سيسـابقه إلـى القصر، لكنـه لم يتزحزح من مكانـه، ولم يأبه بالإفراج عنه.. نظر إلى رسـول الملك، وحمله شـرطًا للخروج، قائـلًا: ﴿ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّٰتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ۚ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ﴾، عـاد الرسـول فأخبر الملـك الذي كان خائفًا علـى اقتصاد دولته وأمنها، لا سـيما وهو من الهكسوس، وهم يخشون من عودة الفراعنة.. كان متلهفًا لرؤية الصديق، لكن قصته المجهولة مع النسـاء شـدته، فأمر بالبحث عنهـن، وإحضارهن إلى البلاط.



وأصبح العبد أميرًا

انطلـق الحرس نحـو امـرأة العزيز، التي اسـتغلت سـلطة زوجهـا، وعلاقاتها فـي تلفيـق التهـم، لأصـدق وأطهـر وأجمـل مـن يمشـي علـى الأرض، فدلتهـم علـى أبواب النسـاء.. تم اسـتدعاؤهن واحدة واحـدة، وهن يرتجفـن.. لا يدرين ما جريمتهـن، حتـى أصبحـن جميعًا أمـام الملك.

شـعرت امـرأة العزيـز بتلاشـي علاقاتهـا بالمسـؤولين، أمـام حـزم الملـك، الـذي اسـتأمنهم، فاسـتغلوا ثقتـه. وقفت أمام حاكـم لا وقت لديـه؛ ليضيعه على

ثرثرتهـن وكيدهـن.. حدق بوجـه امرأة رمـت غرائزها فتى في السـجن لأكثر من سبع سـنوات، لمجرد أنـه جميل عفيـف. صاح الملـك بالنسـاء: ﴿مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِۦ﴾، فارتجفـن، و﴿قُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ﴾.

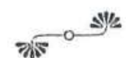
هنـا انهـارت امرأة العزيـز، التي كانـت بالأمس تهـدد وتتوعد.. انهـارت أمام ملـك حازم، تسـقط أمـام حزمه سـلطات من دونـه، فاعترفـت مباشـرة، وقالت: ﴿ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾، خرجـت النسـاء مـن القصـر خجـلات بعد أن تم إثبـات براءة الفتـى المظلوم، الذي أمضـى أزهى أيام عمـره في السـجن ظلمًا، أما الملك الحكيم فلم يملك نفسـه من شـدة الإعجاب برجولـة يوسـف وأمانتـه ووفائـه وصدقـه وعفافه.. مباشـرة أصـدر أمـره بتعيينه مستشـارًا خاصًّـا له، قبل أن يخـرج من زنزانته، وقـال: ﴿ٱئْتُونِى بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِى﴾.

انطلـق الرسـول، ولما دخل على يوسـف أخبره بشـهادات النسـاء، واعتراف امـرأة العزيز بذنبهـا وظلمها، فتهلل وجه الصديق، ولمعـت عيناه فرحًا، وامتدحه نبينـا صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ علـى موقفه، فقال: «لو لبثت في السـجن ما لبث يوسـف لأجبت الداعي»[١].

ملأت السـعادة قلب يوسـف صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وخـرج للحياة مجـددًا، كما خرج من الجـب، وتوجـه نحو القصر معـززًا مكرمًا، ولمـا وصل كان الملك بأحر الشـوق للقائـه. وصل يوسـف، فأشـرقت النبوة الوسـامة والأدب والصـدق على مجلس الملـك.. تكلـم فذكـر لمـن حولـه سـبب رفضه الخـروج من السـجن. وهـو أنه يريد أن يعلم سـيده السـابق ثبوت براءته تمامًا. قال يوسـف: ﴿ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّى لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى كَيْدَ ٱلْخَآئِنِينَ ﴿٥٢﴾ ۞ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِىٓ ۚ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّىٓ ۚ إِنَّ رَبِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾، ثـم تكلـم الملك مطمئنًا يوسـف، ومصدرًا أمـره بتعيينه في

(١) صحيح البخاري (٣٣٧٢).

أرقى المناصب، فقال: ﴿إِنَّكَ ٱلۡيَوۡمَ لَدَيۡنَا مَكِينٌ أَمِينٞ﴾، أدرك يوسف ثقل الأمانة، فاجتهد في الإخلاص لدولته، رغم أنها دولة وثنية.



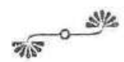
نبي وزير في دولة وثنية

أصبح النبي الأمين يوسف ﷺ مخيرًا.. ينتقي من المناصب ما يريد، فنظر إلى مصلحة دولته، حتى وإن كانت وثنية.. لم يضيع وقتًا بالرفاهية، ولم ينشغل بالإثراء على حساب وزارته.. لم يطلب من الملك شيئًا لنفسه.. لا مرتبًا ولا قصرًا ولا خدمًا، بل لم يقدم التماسًا يرجوه فيه البحث عن والديه وأخيه، الذين يشتاق لهم منذ قرابة ربع قرن.. أصبحت الدولة والشعب والملك همه الأول والأخير.. شعر بحاجة الدولة لمشروعات وخطط مستقبلية للأمن الغذائي المهدد بالخطر، لذا أخبر الملك بأهم قدراته التي قد تعود على الوطن بالنفع، فقال: ﴿ٱجۡعَلۡنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلۡأَرۡضِۖ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٞ﴾.

صدر أمر ملكي بتعيينه مسؤولًا عن الاقتصاد.. أصبح العبد أميرًا.. أصبح مسؤولًا عن إطعام الأيتام والفقراء والعبيد، وحتى الأغنياء. مباشرة أمر الوزير الجديد يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم بإنشاء ما يشبه صوامع للغلال للادخار، وشجع زراعة القمح تحسبًا لأيام كساد وجفاف مخيفة متوقعة، فغير بنزاهته وعدله ومشروعاته الناجحة حال بلاده، والبلاد المجاورة لبلاده إلى الأفضل.. غيرها برسالة الأنبياء الثانية، وهي العدل، بعد أن مكّن له الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ فقال: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَتَبَوَّأُ مِنۡهَا حَيۡثُ يَشَآءُۚ نُصِيبُ بِرَحۡمَتِنَا مَن نَّشَآءُۖ وَلَا نُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٥٦﴾ وَلَأَجۡرُ ٱلۡأٓخِرَةِ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ﴾.

مرت سبع سنوات عامرة بالتخطيط والعمل الجاد والأمانة، والنصح للدولة والشعب وللملك، الذي وضع ثقته فيه.. سنوات عامرة بالرخاء والخصب

والإنتـاج الغزيـر.. أصبحـت تلـك البـلاد الوثنية مـن أغنـى البلـدان زراعيًّا، لأن القائـم علـى التخطيـط فيها وزير مسـلم نزيـه مخلص لدولتـه ولو كانـت وثنية.. وزيـر يجمع إلـى خوف الله ومراقبتـه والنزاهة، فرض النظام وعـدم إعاقته من أي كائن كان.. تزوج يوسـف خلال تلك السـنوات، فانكسـرت قلوب أولئك النسوة وغيرهن حسـرة عليه، ورزقه الله بذرية طيبة. مرت سـبع سـنوات، فبدأت ملامح تفسير رؤيـا الملك المخيفة تتشـكل علـى الأرض.. بدأ عهد الجفاف والسـنابل اليابسـات ينتشـر، لكـن الملـك كان مطمئنًـا لخطـط وزيـره المسـتقبلية.. واثقًـا مـن إعـداده العـدة لأقسـى الظروف، التـي لم تعصـف بمصر فقط، بـل اجتاحت المناطـق المجـاورة.. لم يكـن يوسـف أجمـل أهـل الأرض وجهًـا.. كان أنجح وزراء الأرض.. كانـت نجاحاتـه عطـرًا يتضوع فـي كل البلاد.



هؤلاء الذين أتعسوا حياتي

أصبح اسـم الوزير يوسـف ﷺ رمزًا للنزاهة والعطـاء والنجاح.. تفوق علـى زملائه الوزراء الوثنيين: إبداعًا وإنتاجًا وتواضعًا بمراحل.. ما أعذب الوزير حين يجمع خوف الله مع تنفيذ النظام بحزم.. كان يوسـف يذوب رحمة بين أيدي الفقراء والمحتاجين الوثنيين حتى من غير شـعبه.. ينصت لشكواهم ومطالبهم.. يحـاول تخفيف آلامهم وما بهم فعلًا وإنجازًا.. لا تخديرًا ووعودًا كالسـراب.

وذات يـوم، وبينمـا كان يسـتقبل المراجعيـن والموجوعيـن والوفـود، الذين يغـص بهم ديـوان وزارته.. دخـل عليه وفد ناحلة أجسـادهم شـاحبة وجوههم.. شـخص بصـره لهول مـا يرى، فقـد تغيرت تقاسـيم وجهـه رحمة بحالهـم، لكن رحمتـه تلـك كانـت ممتزجـة بذكريـات بالغـة المـرارة، فهـذا الوفد.. هـو الذي أخـذه ذات يـوم وهـو طفـل صغيـر لتلـك النزهة التعيسـة.. هـذا الوفد هـو الذي ألقـاه وغيبـه في تلـك البئـر المخيفة.

تأمل العشرة واحدًا واحدًا.. هذا هو من طلب من والده أن يخرج معهم، وهذا من كان يتعامل معه بطريقة فظة في الطريق، وهذا من خلع قميصه، وهذا من صبغ قميصه، هؤلاء هم من ألقوه عاريًا في تلك البئر المظلمة، وهو يصرخ ويبكي.. هؤلاء الذين حرموه أحضان أمه راحيل الحبيبة، ودلال يعقوب الطيب، وأخيه بنيامين.

مهلًا: أين بنيامين؟ إنه ليس معهم.. ترى هل ألقوه في بئر أخرى، واتهموا به ذئبًا آخر؟ هؤلاء الذين نحروا طفولتي بخناجر الرق والعبودية والغربة، وحرموني دياري ومراتع صباي.. هؤلاء من أذلني حتى تحكمت بي وسجنتني امرأة لم أقصر يوما في خدمتها.. هؤلاء هم من كنت أظنهم عضدي وساعدي وسندي، لكن ورغم تلك المرارات رقَّ يوسف لحالهم، فهم يظلون إخوته، وأبناء أبيه إسرائيل الطيب.

أصابه الحزن وهو يرى ثيابهم الرثة، ووجوههم الشاحبة، وتوسلاتهم التي تقطع نياط القلب، فكيف هي حال والديه الحبيبين؟ أنصت لمطالبهم، ثم أمدهم بما يحتاجون من طعام وأكثر، دون أن يفتح ملفاتهم السوداء، أو يذلهم بها، أو يمن عليهم، فقد ابيضت أصداغهم، وكبروا، وأصبح البعض منهم جدًّا، ولا بد أن والديه الحبيبين يعانيان أكثر منهم، لكن يوسف لن يتركهم يرحلون هكذا، دون الحصول على إحداثيات أحبته، وعناوين خفقات قلبه.. قرر أن يحصل على شيء من آثار يعقوب وراحيل، علّه يخفف شيئًا من لوعته، وأشواقه التي تحرق قلبه منذ ربع قرن.. طلب منهم طلبًا غريبًا، لكن الأغرب هو أن هذا الطلب لم يثر أي تساؤل في قلوبهم، التي زادها الجفاف جفافًا.



هل هناك بئر آخر ينتظر بنيامين

طلب يوسف صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من إخوته قبل أن يغادروا، أن يحضروا أخًا لهم من جهة الأب، وكأنه يريد التأكد من وجود أخيه بنيامين حيًّا، وإلا فلن يحصلوا منه على أي بضاعة في المرة القادمة، فلما ﴿ جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ قَالَ ٱئْتُونِى بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ ۚ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّىٓ أُوفِى ٱلْكَيْلَ وَأَنَا۠ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴿٥٩﴾ فَإِن لَّمْ تَأْتُونِى بِهِۦ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِى وَلَا تَقْرَبُونِ ﴾، وإذ بإجابتهم تحرق أضلاع يوسف، وتزيد لوعته، حين ﴿ قَالُوا۟ سَنُرَٰوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَٰعِلُونَ ﴾.

أدمت الإجابة شغاف قلبه.. أدرك أن والده لا يزال يبكي عليه، رغم مرور ربع قرن على الفراق، وإلا لما تشبث بشقيقه بنيامين، وأبقاه بجواره، وقد تجاوز العشرين.. أدرك أن الشيخ لا يريد أن يفرط فيه، كما فرط في حبيب قلبه، الذي يحلم بعودته يومًا. آلمت يوسف تلك الإجابة، لكنه قام بحركة قد تلين قلب يعقوب، فيسمح بسفر بنيامين.

ففي أثناء انشغال إخوته بالحديث معه، استدعى بعض موظفيه، وهمس فيهم بشيء يثير الدهشة. قال ﴿ لِفِتْيَٰنِهِ ٱجْعَلُوا۟ بِضَٰعَتَهُمْ فِى رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَآ إِذَا ٱنقَلَبُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾، فانطلق الموظفون في لحظات الانشغال، وأحضروا النقود التي دفعها إخوته، ثم تسللوا نحو رواحلهم، ودسوها في حقيبة من حقائب سفرهم.

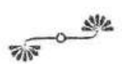
تلقى يوسف إشارة بإتمام المهمة، فودع إخوته دون أن يعرفهم بنفسه، ثم توجهوا نحو مطاياهم وركبوها، وأردفوا قلبه معهم، ومضوا وهو يتمنى لو كان أولهم دخولًا على يعقوب.. أقفت العير حتى غابت عن عينيه الدامعتين.. سارت قافلتهم وسارت، حتى وصلت باديتهم.. نظر بعضهم إلى بعض، وكأنهم يتساءلون: هل سيثق أبونا بنا، ويعطينا بنيامين في المرة القادمة؟



ولما دخلوا باديتهم، عزموا على مصارحته، فأناخوا مطاياهم ونزلوا، ثم دخلوا على أبيهم يعقوب، الشيخ الطاعن في السن، فحيوه، وتحلقوا حوله، وأخبروه بكرم الوزير، وحدبه عليهم، ثم نغصوا عليه بذكر شرطه الغريب: ﴿ٱئْتُونِى بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ﴾، بل أخبروه بتهديده، حين قال: ﴿فَإِن لَّمْ تَأْتُونِى بِهِۦ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِى وَلَا تَقْرَبُونِ﴾، ناشدوا والدهم إسرائيل أن يرسل أخاهم بنيامين معهم، فقالوا: ﴿يَٰٓأَبَانَا مُنِعَ مِنَّا ٱلْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَآ أَخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾.

هنا تذكر الشيخ تحلقهم حوله قبل ربع قرن.. عصفت الذكريات بقلبه، فرفع حاجبيه الثقيلين، ونظر إليهم بعينين أضعفهما البكاء على يوسف، وقال: ﴿هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمْ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبْلُ ۖ فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًا ۖ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾.

أخرسهم الخجل، وعجزوا عن الرد، فالجرح لا يزال مفتوحًا.. لا يزال ينزف، ويؤلم هذا الشيخ الطاعن في السن. نهض الأبناء العاقون مثقلين بتاريخهم الأسود، وخرجوا، لكن شيئًا حدث جعلهم يعودون لأبيهم مبتهجين. ظنًّا منهم أنه سيخفف شيئًا من أحزانه.



لا تدخلوا من باب واحد حتى لا أخسركم

تذكر الشيخ يعقوب صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تحلق أبنائه العشرة حوله قبل ربع قرن، فرفع حاجبيه الثقيلين، ونظر إليهم بعينين أضعفهما البكاء على يوسف، وقال: ﴿هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمْ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبْلُ ۖ فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًا ۖ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾، سكت الأبناء خجلًا.. شعروا بالعار، وهم سبب عذابات هذا الشيخ الطيب، منذ أن ائتمنهم على قرة عينه يوسف، لذا نهضوا من عنده، يسحبون خطاهم نحو إبلهم، التي أناخوها في الخارج.. بدؤوا يحلون الأربطة، وينزلون البضائع.

مـد أحدهـم يده نحـو خرجه أو حقيبتـه، ليخرج ما بهـا، وإذ به يصـرخ، وكأن حيـة تتلـوى داخلهـا.. لقد وجد مبلـغ البضاعة كامـلًا، قد أعاده موظفـو الوزير.. توجـه نحو إخوته يبشـرهم، فانطلقوا نحو أبيهم يحملون دليـل صدقهم، علَّ هذا التصرف النبيل من الوزير الرائع، يلين من تشـدده تجاه سـفر بنيامين.. دخلوا عليه وأروه النقود، وقالوا: ﴿يَٰٓأَبَانَا مَا نَبۡغِيۖ هَٰذِهِۦ بِضَٰعَتُنَا رُدَّتۡ إِلَيۡنَاۖ وَنَمِيرُ أَهۡلَنَا وَنَحۡفَظُ أَخَانَا وَنَزۡدَادُ كَيۡلَ بَعِيرٖۖ ذَٰلِكَ كَيۡلٞ يَسِيرٞ﴾، لكـن خنجر يوسـف لا يزال منغـرزًا في قلبه، وهـو أضعـف مـن أن يُطعن مرتيـن، لذا أراد شـيئًا يحمي بـه بنياميـن، فقال: ﴿لَنۡ أُرۡسِلَهُۥ مَعَكُمۡ حَتَّىٰ تُؤۡتُونِ مَوۡثِقٗا مِّنَ ٱللَّهِ لَتَأۡتُنَّنِي بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمۡۖ فَلَمَّآ ءَاتَوۡهُ مَوۡثِقَهُمۡ قَالَ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٞ﴾.

مضـت الأيام، لكن القحط لم يمـض.. أصبحوا بحاجة إلـى التموين مجددًا، فأعـدوا المطايا، وزادوا مطيـة لبنيامين. ركب الأخوة مطاياهـم، وقبل أن يغادروا قـدم الشـيخ لهـم وصية أخيـرة من قلـب أتعبه الشـوق والبـكاء، فقـال: ﴿يَٰبَنِيَّ لَا تَدۡخُلُواْ مِنۢ بَابٖ وَٰحِدٖ وَٱدۡخُلُواْ مِنۡ أَبۡوَٰبٖ مُّتَفَرِّقَةٖۖ وَمَآ أُغۡنِي عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٍۖ إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۖ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُۖ وَعَلَيۡهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُتَوَكِّلُونَ﴾، غادرت القافلة حتى أصبحت أمام أسـوار مصر، وحينها انقسـموا، وتوزعوا حسـب وصية والدهم إسـرائيل علـى بواباتها، تواعـدوا على الاجتماع في مـكان يعرفونه جميعًـا.. تفرقوا، ﴿وَلَمَّا دَخَلُواْ مِنۡ حَيۡثُ أَمَرَهُمۡ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغۡنِي عَنۡهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٍ إِلَّا حَاجَةٗ فِي نَفۡسِ يَعۡقُوبَ قَضَىٰهَاۚ وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلۡمٖ لِّمَا عَلَّمۡنَٰهُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾.

وبعـد مدة مـن دخولهم اجتمعوا فـي النقطة المحددة، ثم توجهـوا نحو ديوان الوزيـر، فاسـتأذنوا للدخـول عليـه، فلما علـم بقدومهم بكـى قلبه شـوقًا لراحيل ويعقـوب وبنياميـن، فأدخلهـم على الفـور.. تهادى أخوتـه نحو ديوانـه فتأملهم، فوجدهـم قد أصبحوا أحد عشـر وافـدًا، فازداد خفقان قلبه، وجالـت عيناه بينهم، تبحـث عن حبيب القلـب بنيامين.

أهذا أخي الذي حرمت منه؟

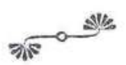
دخل إخوة يوسف صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وما إن رآهم حتى تعلقت عيناه بأصغرهم.. بشقيقه وحبيبه بنيامين.. تكلمت خفقات قلبه: أهذا هو الطفل الذي كان يحبو بيني وبين راحيل ويعقوب.. أهذا هو بنيامين، الذي حرمت من اللعب، ورعي الغنم معه.. اجتاح قلبه طوفان من العواطف، لكنها لم تهزه.. ظل متماسكًا، ثم قام بإشغال إخوته وإلهائهم بما جاءوا من أجله، وطلب من خدمه أن يدخلوا بنيامين عليه دون أن يشعروا.

عاد بنيامين والاستغراب يملؤه، وإذ بيوسف يعانقه، وكأنه يعانق طيف راحيل ويعقوب، ثم يهمس به: ﴿إِنِّيٓ أَنَا۠ أَخُوكَ فَلَا تَبۡتَئِسۡ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾، طار قلب بنيامين من شدة الفرح، وهو يعانق أخاه المفقود، الذي طالما حدثه أبوه وأمه عنه، وهما يمسحان دموعهما. ترى كيف هي سعادتهما، حين يعلمان أن الله قد نصره، وجعله وزيرًا تعطر سمعته الأماكن، التي يذكر فيها نزاهةً وعدلًا وإبداعًا. طوى بنيامين سر أخيه، ثم ودعه، وكأنه يتمنى لو طار نحو يعقوب؛ ليبشره بنهاية أحزانه ومواجعه. خرج بنيامين وانضم لإخوته، لينهي معهم ما جاءوا من أجله.

وبينما كانوا يقومون بملء رواحلهم، وإجراءات البيع والشراء، كانت الأحلام تحلق ببنيامين، في الوقت الذي كان أخوته في حالة حبور ووداع لهذا الوزير السخي، إذ بأحد الموظفين يتسلل بخفية، ومعه المكيال المميز، الذي يكال به للمتبضعين، ثم يدسه في خرج بنيامين داخل الحبوب، دون أن يعلم. ركب أبناء يعقوب، ونهضت عيرهم، ثم بدؤوا بالمغادرة.. ساروا مسافة قصيرة، وقبل أن يخرجوا من البوابة، دوت صيحة مخيفة.. صيحة استوقفت عير بني إسرائيل.

توقفي أيتها القافلة.. انزلوا أيها الغرباء، ﴿ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَٰرِقُونَ﴾، نزل الإخوة مذعورين، وكأنهم يقولون للحرس الغاضبين: ما الذي يجري؟ وعن أي سرقة تتحدثون؟! هتفوا بالمنادي: ﴿مَّاذَا تَفْقِدُونَ﴾، فقال الحرسي الغاضب: ﴿نَفْقِدُ صُوَاعَ ٱلْمَلِكِ﴾، ثم أعلن عن جائزة سخية لمن يجده: كمية من الطعام تعادل حمولة بعير، فقال: ﴿وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمْلُ بَعِيرٍ﴾، بل ضمن الجائزة بنفسه لمن يجده، قائلًا: ﴿وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٌ﴾.

هنا نظر بعض إخوة يوسف إلى بعض ببراءة لأول مرة.. هوَّنوا من الأمر، ولم تعد الجائزة تغريهم، فالعودة للديار وعدم تعطلها هو همهم.. هنا نزل الوزير يوسف، لاستطلاع الأمر بنفسه.. عندها تغيرت وجوههم، فالأمر يبدو خطيرًا.



بنيامين لص وشقيق للص

كثر اللغط والضجيج حول قافلة بني إسرائيل، فأقبل الوزير يوسف صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ متظاهرًا باستطلاع الأمر، فحلف إخوته أنهم لم يرتكبوا أي سرقة، وأنهم لم يأتوا لمصر إلا للشراء، و﴿قَالُواْ تَٱللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَٰرِقِينَ﴾، فأقبل أحد المسؤولين نحوهم، متحديًا وطالبًا منهم إثبات براءتهم، فقال: وماذا إن وجدنا الصواع الملكي في خرج أحدكم، ﴿فَمَا جَزَٰٓؤُهُۥٓ إِن كُنتُمْ كَٰذِبِينَ﴾.

مباشرة عادت الكلمات التي كانوا يعدونها ليوسف (الرق). أجل خذوا السارق عبدًا ﴿قَالُواْ جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِى رَحْلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، هذا هو قانوننا، وجزاء الظالم المعتدي. هزت الكلمات قلبي يوسف وبنيامين، وكأنهما يقولان: فما الظلم الذي ارتكبه يوسف حتى حولتموه إلى عبد،

وحرمتمـوه مـن أحـب الناس إليـه. تحـرك المفتش بخطـة من يوسـف، نحو إبل الإخـوة جاعـلًا خـرج بنيامين آخـر خرج يتم تفتيشـه.

مـد المفتش يـده إلى خرج الأشـقاء (يهـودا ورابيـن وَشَـمْعَونُ وَلاوِي)، فلم يجـد شـيئًا.. فتش حقائـب الأخويـن (أَيْسَـاخَرُ وَزَابِلُـونَ) فكانت نظيفـة.. فتش حقائـب الشـقيقين (دَان ونفتالـى) فلـم يجد شـيئًا.. قلـب بضاعة الأشـقاء (جَادْ وأشـير) فكانـت كذلك.. بقي خـرج (بنياميـن)، فتنفس الإخوة الصعـداء، لأنهم يعرفـون نزاهتـه، وأن من المسـتحيل أن يرتكـب حماقة كهذه.. مـد المفتش يده، فغمسـها في حبـوب القمـح، التي في رحـل بنياميـن، والإخوة يتأهبـون للرحيل بثقـة، وفجأة صـاح المفتـش صيحة، حولـت القافلة إلـى مناحة.

رفـع يـده وهـو يحمـل المكيـال الملكـي، مبشـرًا بالعثـور عليه داخـل خرج بنياميـن، ومعلنـا القبـض عليـه، وتحويلـه إلـى عبد آخر علـى أرض مصـر. كان الوزيـر يوسـف صامتًـا، أمام المشـهد التمثيلي، الـذي تم إخراجه بنجـاح.. ذهل الإخـوة.. عجـزوا عن تصديـق ما يجـري.. لم يأبهوا لشـأن بنيامين، فـكل الذي يهمهـم هـو والدهـم الشيخ إسـرائيل.. يعقـوب الـذي قـد تقتلـه الفاجعـة.. لن يصدقهـم أبـدًا، ولـن يسـامحهم، وهـم يتسـببون في اسـترقاق أصغـر أبنائه.

جـن جنونهـم، وفقـدوا صوابهـم، وعاودهم طيـش المراهقة بفعـل الصدمة، فبـدؤوا يتناولـون بنياميـن بانفعـال وتهـور.. تهـور أوصلهـم إلـى شـتم شـقيقه يوسـف.. الـذي لم يكتفـون برميـه فـي البئـر، ولا بالكذب علـى أبيهـم وعقوقه وإيلامـه، وعـدم الاعتذار منه، صاح بعضهـم: إن بنيامين هذا لص، بل هو شـقيق للـص، ويوسـف شـاخص أمامهـم، وهو لا يصـدق ما يسـمع. مذهولًا من شـدة فجورهـم فـي الخصومة.



يعقوب يبكي بنيامين

انفعل إخوة يوسف ﷺ وهم يرون المفتشين يخرجون المكيال الملكي من خرج بنيامين.. وجدوها فرصة للتشفي من دلال أبيهم له، بل أخرجوا أحقادهم القديمة على يوسف، فقالوا للمفتشين: ﴿إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُۥ مِن قَبْلُ﴾، تلقى يوسف تلك الفرية كالحربة في قلبه.. تألم من إخوة لم يتعرض لهم بأذى، ولم يمسهم بسوء.. ما الذي فعله حتى يكنون له كل هذا الغل. ما هذا الحقد الذي لم ينته حتى اليوم، ما حجمه؟ سكت الصديق، وكأنما يقبض على الجمر، ﴿فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِى نَفْسِهِۦ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ﴾، واكتفى بكلمات حرى، زفرها من وجعه، فقال: ﴿أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا ۖ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ﴾.

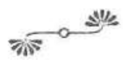
هدأ الإخوة قليلًا من طيشهم وانفعالهم، حين رأوا الحرس ينيخون ناقة بنيامين، وينزلونه ويقتادونه.. عادوا لرشدهم، وبدؤوا التفكير بوالدهم.. غاب بنيامين عن المشهد عبدًا، وحضر يعقوب في أذهانهم.. خافوا ألا يتحمل ما جرى لأصغر أبنائه، فهو ما زال يبكي يوسف حتى اليوم. تشاور الإخوة وتلاوموا، وقرروا أن يدفعوا فاتورة أوجاع أبيهم هذه المرة مهما بلغت. اتفقوا أن يعيدوا بنيامين لوالده، ولو كان الثمن حريتهم.



أوقفوا مطاياهم، وعادوا يلتمسون مقابلة الوزير، ولما أدخلهم قدموا التماسًا بأن ينتقي واحدًا منهم، عبدًا بدلًا عن بنيامين.. ناشدوه ورجوه أن يفعل، رحمة بشيخ ضعيف، أتعبه فراق ابن سارق قبل عشرين عامًا، فكيف سيطيق فراق شقيقه، وقالوا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓ ۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾، نظر يوسف إليهم رافضًا التماسهم، لأنه ظلم لأحدهم.. كيف يعاقب بريئًا؟ لذا قال: ﴿مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّظَٰلِمُونَ﴾، حاولوا وحاولوا، لكنهم فشلوا، ﴿فَلَمَّا ٱسْتَيْـَٔسُوا۟

﴿مِنۡهُ خَلَصُواْ نَجِيّٗا﴾، وانعزلوا في مكان يتناجون فيه حول مصيبتهم، والهم يقتلهم.. لم يعودوا يهتمون لعيرهم، ولا لبضاعتهم.. يعقوب المسكين كل همهم.. أدركوا فداحة ما هم فيه، لكنه الواقع المرير.

انهار أكبرهم، الذي بدأ الشيب يلون رأسه.. شعر بالانكسار.. تحول إلى حطام، لأنه لم ير من والده إلا كل خير.. لم يعد يطيق أن يُريَ والده وجهه بعد كل ما فعله به من عقوق.. التقط من حطامه كلمات تثير الشفقة، ﴿قَالَ كَبِيرُهُمۡ أَلَمۡ تَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ أَبَاكُمۡ قَدۡ أَخَذَ عَلَيۡكُم مَّوۡثِقٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَمِن قَبۡلُ مَا فَرَّطتُمۡ فِي يُوسُفَۖ فَلَنۡ أَبۡرَحَ ٱلۡأَرۡضَ حَتَّىٰ يَأۡذَنَ لِيٓ أَبِيٓ أَوۡ يَحۡكُمَ ٱللَّهُ لِيۖ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلۡحَٰكِمِينَ﴾، ثم خرج حزينًا من ديوان الوزير. أخبر أخوته بعنوانه في مصر، منتظرًا تنفيذ حكم أبيه فيه، أو عفوه عنه.



عندما يصيبك الشوق بالعمى

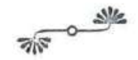
انهار أكبر إخوة يوسف صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فتهدج صوته بكلمات تثير الشفقة، ﴿قَالَ كَبِيرُهُمۡ أَلَمۡ تَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ أَبَاكُمۡ قَدۡ أَخَذَ عَلَيۡكُم مَّوۡثِقٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَمِن قَبۡلُ مَا فَرَّطتُمۡ فِي يُوسُفَۖ فَلَنۡ أَبۡرَحَ ٱلۡأَرۡضَ حَتَّىٰ يَأۡذَنَ لِيٓ أَبِيٓ أَوۡ يَحۡكُمَ ٱللَّهُ لِيۖ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلۡحَٰكِمِينَ﴾، ثم تنهد بكلمات كالجمر، فقال: ﴿ٱرۡجِعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَبِيكُمۡ فَقُولُواْ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّ ٱبۡنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدۡنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمۡنَا وَمَا كُنَّا لِلۡغَيۡبِ حَٰفِظِينَ ﴿٨١﴾ وَسۡـَٔلِ ٱلۡقَرۡيَةَ ٱلَّتِي كُنَّا فِيهَا وَٱلۡعِيرَ ٱلَّتِيٓ أَقۡبَلۡنَا فِيهَاۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ﴾، حاول الإخوة التسعة ثنيه فعجزوا، فلما عجزوا نهضوا من عنده مثقلين، وودعوه، وركبوا مطاياهم، وخرجوا من بوابة المدينة، لا يدرون ما يقولونه لوالدهم.

تحركت العير تحمل تسعة إخوة، وبقي اثنان في مصر: الأصغر تم أخذه عبدًا، أما الأكبر فأثقله الحزن.. ظل في مكانه محطمًا منكفئًا على أوجاعه..

يقتلـه تاريخـه مع والده الطيـب.. بقي في مصر وحيـدًا غريبًا.. هائمًـا على وجهه فـي شـوارعها.. يسـير بين جدرانها كالمشـرد.. لا يهنـأ بطعام، ولا يأنس ببشـر.. ينتظـر عفـو أبيه بعد أن عقه، وتسـبب فـي أحزانه، فهل أحس بغربة يوسـف لأكثر مـن عشـرين عامـا؟ هـل وضع نفسـه مـكان طفل ألقـاه في بئـر مظلمـة؟ هل قال لنفسـه: تخلصنـا مـن يوسـف، فخلا لنا وجـه أبينا، ثـم مـاذا؟ لقد صرنـا أتعس. لم يـدر أنـه لا تفصله عن يوسـف وشـقيقه سـوى خطـوات.. يتبـادلان الحديث والذكريـات حـول راحيـل ويعقـوب.. نعمـة أنعمهـا الله على يوسـف، وتحدث عنهـا سـبحانه، فقـال: ﴿كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ ۖ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ ۗ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾.

أما فـي ديار يعقوب فالأحـداث تتصاعد، والفاجعة الأخرى فـي الطريق إليه: بنياميـن الحبيـب لم يعد مع العير، وها هم إخوته يسـحبون خطواتهم وخطاياهم، وهـم يدخلـون على والدهم.. ينظـر إليهم، فـإذا عددهم قد قـلَّ. ما الذي جرى؟ هـل خالفـوا وصيتـه، فدخلوا من بـاب واحـد، ولم يدخلـوا من أبـواب متفرقة؟ أيـن بنيامين؟ أيـن أخوكم الأكبر؟

تهـدج صـوت أحدهـم حزنًـا، وقـال: ﴿يَا أَبَانَا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ﴾، أمـا الكبير فقـد بقـي حزينًا على عـدم وفائـه بميثاقك.. تضاعـف حزن الشـيخ، خاصة حين أخبـروه أن ابنـه البكر قـد رفض العـودة، قائـلًا: ﴿فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي ۖ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾. بلـغ الحـزن منتهـاه فـي قلـب يعقـوب. فاضت عينـاه، واحتـرق جوفه، فشـكا حاله لأرحـم الراحمين.



لماذا تذكرنا بيوسف يا أبي؟

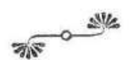
دخل إخوة يوسـف على أبيهـم يعقوب صلى الله عليه وسلم مثقلين بالحـزن.. ثم قالوا: ﴿يَا أَبَانَا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ (٨١)

﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِى كُنَّا فِيهَا وَٱلْعِيرَ ٱلَّتِىٓ أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ﴾، بلغ الحزن منتهاه في قلب يعقوب، فنظر إليهم والدموع تحرق أجفانه.. نظر إليهم بعينين أضعفها البكاء على يوسف، ثم زفر بكلمات حرى، شاكيًا أمره وأمرهم لعلام الغيوب وكاشف الكروب، وقال: ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِى بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾، ثم انطوى على أحزانه، وظل يبكي حتى فقد بصره، كما فقد يوسف: ﴿وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ﴾.

غابت الشمس عن عيني يعقوب قبل أوانها، وأعماه الشوق والوجد على طفله، وتحولت دنياه إلى مجرد أصوات، وما إن سمع الإخوة باسم أخيهم، حتى تضايقوا، ولاموا والدهم على كثرة ذكره، فإن حزنه عليه يكاد يهلكه، وكأنهم يطالبونه بنسيانه، فهو لن يعود، و﴿قَالُوا۟ تَٱللَّهِ تَفْتَؤُا۟ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ ٱلْهَٰلِكِينَ﴾، أما راحيل فعاودها الحزن، الذي كاد يقتلها قبل عشرين عامًا، حتى ذبلت، وذبل جمالها الفردوسي.. ناحت على ابنيها، لا تدري ما تقوله لإخوة لا يشعرون إلا بألم الحسد.. حسد أفقدها أطفالها وهم أحياء، فما الذي فعلته وفعله أطفالها لهم؟

ضاقت الدنيا بها وبزوجها، الذي بث شكواه لأرحم الراحمين، فقال: ﴿إِنَّمَآ أَشْكُوا۟ بَثِّى وَحُزْنِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾، لكن أيام الابتلاء اشتدت وطالت، فقد اجتمع عليهما الفقر والجفاف والوجد والأحزان، لكن يعقوب لم ييأس، بل جمع أبناءه حوله، وهو في أشد أيام الابتلاء، وقال لهم: ﴿يَٰبَنِىَّ ٱذْهَبُوا۟ فَتَحَسَّسُوا۟ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَا۟يْـَٔسُوا۟ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَا يَا۟يْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾، نهض الأبناء من مجلس الشيخ المكلوم، إرضاء له، وتأدية لواجب.. توجهوا هذه المرة نحو رواحلهم، بمال أقل، وانكسار أكثر، ثم انطلقوا نحو مصر، والحزن يحدو عيرهم.. انطلقوا مهمومين، لا يأبهون

مـن أي بـاب دخلـوا.. همهم هو إرضاء شـيخهم.. دخلوا مصر فتوجهـوا لمقابلة العزيـز، الـذي كان يخفي شـوقه لعودتهـم، وما إن دخلـوا ديوانه، حتـى أذهلتهم هيئـة أحـد العبيد بجانبه. ما هـذا؟ ما هذا الأنيـق الذي أمامهم، أعبـد هو أم أمير؟ إنه بنياميـن يجلس مبجلًا بجـوار الوزير.



الإخوة في المحكمة

ذهـل أخوة يوسـف حيـن دخلوا ديوانـه.. فوجئـوا بأخيهـم بنياميـن بجانبه.. مبجـلًا، لا تبـدو عليـه آثار الـرق، ولا الشـقاء، ولا العبوديـة.. حيَّرهم المشـهد، لكنهـم كتمـوا حيرتهـم، وكأن الحسـد عاودهـم.. تجاهلـوه، وناشـدوا الوزيـر المسـاعدة والشـفقة، فهم في فقر وعوز شـديدين، مما جعلهـم يقولون: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهۡلَنَا ٱلضُّرُّ وَجِئۡنَا بِبِضَٰعَةٖ مُّزۡجَىٰةٖ فَأَوۡفِ لَنَا ٱلۡكَيۡلَ وَتَصَدَّقۡ عَلَيۡنَآۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَجۡزِي ٱلۡمُتَصَدِّقِينَ﴾، أخبـروه بمـا آلـت الأمور إليه فـي الديار.. أخبـروه بحال شـيخهم، الـذي مـا زال يبكـي طفلـه حتـى عمي. هنـا بكـى قلب يوسـف، وهو ينصـت لمعانـاة حبيبه، ففاضـت عيناه، ولم يعـد يحتمل عذابات والـده، وأحزان حبيبتـه راحيـل، أو الكتمان.



وجـه لإخوتـه سـؤالًا كالصاعقـة، فقـال: ﴿هَلۡ عَلِمۡتُم مَّا فَعَلۡتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذۡ أَنتُمۡ جَٰهِلُونَ﴾، نظـر بعضهـم إلـى بعـض، وكأنمـا عثـروا على قطـع الأحجية المفقودة فـي تصرفات هذا العزيز، وطلباته الغريبة، فقالوا: ﴿أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُۖ قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِيۖ قَدۡ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَآۖ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصۡبِرۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾، ذهلـت الحاشـية مـن هـول ما يسـمعون، وأسـقط في أيـدي الإخـوة، وتخلوا عـن الكـذب والمكابرة.. أدركـوا قدرة الله، الـذي يمهل الظالـم لكنـه لا يهمله، فحلفوا به سـبحانه أن الأمر له، وفوق طاقة البشـر، فقالوا:

﴿ تَٱللَّهِ لَقَدۡ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيۡنَا وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ ﴾، ثـم سـكتوا فـي تلـك المحكمـة بانتظار لحظـة الانتقـام المخيفة.

حدق الضباط والجند بقسـاة القلوب، الذين رموا سـيدهم يوسـف صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فـي بئـر وهـو طفل، ثم تسـببوا فـي رقه وسـجنه لأكثـر من عشـرين عامًـا، دونما ذنـب سـوى أن والـده يحبـه.. تأهب الجنـد للقبض عليهـم، والبطـش بهم، وفي أشـد اللحظـات وأحرجهـا، وبينما كان الإخـوة يتوقعون سـجنًا أو رقًّا، يتناسـب مـع جرائمهـم.. نطـق الكريـم ابن الكريم ابـن الكريم ابـن الكريم، فقتـل إخوته بلا سـلاح، حيـن قـال لهـم: ﴿ لَا تَثۡرِيبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡيَوۡمَۖ يَغۡفِرُ ٱللَّهُ لَكُمۡۖ وَهُوَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾.

قتلهم بسـلاح العفو والكـرم، فصمتوا، وفقـدوا القدرة حتى علـى الاعتذار.. طأطـأ تاريخهـم خجـلًا، فتأمل يوسـف تضعضـع إخوته، وقـرأ في عيونهـم ندمًا لا يطـاق، فعاملهـم بأخـلاق النبـوة، وقـرر أن يزيـح مصابهـم.. أمرهـم بإحضار والديـه وعائلاتهـم مـن ديـار القحـط والجـدب؛ لينتقلـوا للعيش معـه في أرض مصـر.. مصـر الطيبة التي أصبحت مـن أغنى البلدان بفضل الله، ثـم بفضل نزاهته وعدلـه ووعيه بمسـؤولياته.



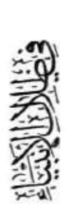
آخر قصص قميص يوسف

أمـر يوسـف صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إخوتـه بإحضـار والديـه وعائلاتهـم من ديـار القحط والجـدب، لينتقلـوا للعيـش معه في أرض مصـر.. مصر الطيبة التـي أصبحت من أغنـى البلـدان بفضل الله ثـم بفضل نزاهتـه وعدله ووعيـه بمسـؤولياته، ورحمته برعيتـه، فربـه ودينـه يأمـره بالتفانـي فـي وظيفته، رغـم أنه وزير مسـلم فـي دولة

وثنيـة. ثـم أمر إخوته بأمـر، أوحي إليه، فقـال: ﴿ٱذۡهَبُواْ بِقَمِيصِي هَٰذَا فَأَلۡقُوهُ عَلَىٰ وَجۡهِ أَبِي يَأۡتِ بَصِيرٗا وَأۡتُونِي بِأَهۡلِكُمۡ أَجۡمَعِينَ﴾.

تعانـق الإخـوة لأول مرة.. تعانقوا، وكأنما خلقوا مـن جديد، ثم ودعوه، وبعد أن وجـدوا أخاهـم الأكبـر، وطمأنـوه، ركبوا مطاياهـم، وعـادوا لديارهم بقلوب بيضـاء، غير تلك التي غـادروا بها، ﴿وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلۡعِيرُ﴾، وغادرت مصر، شـعر يعقـوب بطيـف يوسـف، يتجـول بيـن أضلاعـه.. شـعر وكأنه فـي الطريـق إليه، فالتفـت إلـى مـن حولـه مـن زوجـات وبنـات وأحفـاد، وكأن الوحـي ينفث في روعـه، فقـال: ﴿إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَۖ لَوۡلَآ أَن تُفَنِّدُونِ﴾، ففندت الأسـرة قوله، ولـم يبالـوا كالعـادة، وأكدوا أنـه يتوهم، كمـا يتوهم المحبـون لقـاء أحبتهم، من لوعـة الفقد وحرقـة الاشـتياق، و﴿قَالُواْ تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَٰلِكَ ٱلۡقَدِيمِ﴾.

تجاهـل يعقـوب ردهـم، وظـل متشـبثًا بالثقـة بربـه، بينمـا كانت العيـر تحث السـير نحـوه، كخفقـات القلـب الولهان، ومـا إن اقتربـت العير من الديـار، حتى أخـذ أحـد أخـوة يوسـف القميـص وانعـزل عـن القافلـة، وزاد في سـرعته حتى سـبق الجميع نحـو الديار، ولمـا أصبح أمام بيت الشـيخ الحزيـن يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ توقف.



أنـاخ راحلتـه وانحـدر عنهـا، وأطلق سـاقيه نحـو والـده.. الذي كان سـاعتها محاطـا ببعـض عائلتـه، وقبـل أن يتكلـم البشـير، ألقى القميـص على وجـه أبيه، وكأنه يلقي بآخر قصص قميص يوسـف، وإذ بالشـيخ يشـعر بريح يوسـف، تعطر القميـص.. شـعر بـروح أخـرى بيـن جنبيـه، ضـم القميص وشـمه وقبلـه، وبلله بدمـوع الشـوق.. احتضنـه وكأنه يحتضـن طفله الحبيـب، وإذ بالنور يتسـلل إلى عينيـه، وكأن الدمـوع تغسـل حـزن الزمـان وعمـاه، فعـاد البصر إليـه.. تصفحت عينـاه وجوه من حوله، ووجهه يشـع بشـرًا وسـرورًا، وقـال: ﴿أَلَمۡ أَقُل لَّكُمۡ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾.

سالت دموع راحيل المفجوعة بطفليها ظلمًا، وفاضت دموع العائلة من حولها، وبعد دقائق أو أكثر توقفت القافلة المحملة بالمشاعر، ثم انحدر منها الأخوة، ثم توالى دخولهم واحدًا واحدًا. يسحبون خطاهم وخطاياهم نحو أبيهم، وينزفون ندمًا وخجلًا.. سلموا على الشيخ الذي أعاد الله له بصره، وهو يتأملهم ويتأمل ماضيهم الأسود. تهادوا يقتلهم المشهد، وتسافر به وبهم المشاعر من القميص إلى القميص، ومن المرعى إلى مصر، ومن قاع البئر إلى عرش الوزارة.. أدركوا أنه مهما بلغت كثرتهم وقوتهم.. مهما بلغ دهاؤهم، وبرعت حيلهم، فإن الذي منحهم كل ذلك قادر سبحانه على سلبها منهم بظلم يظلمونه.. بزفرة مظلوم ليس له سوى الجبار نصير.



بنو إسرائيل في مصر

انكسر إخوة يوسف صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهم يرون الطفل الضعيف يطعمهم، بعد أن حرموه، ويؤويهم بعد أن شردوه، ويحدب عليهم، بعد أن تسببوا في رقه وسجنه.. أدركوا أن القوة ليست في يوسف، ولا في والده.. القوة في السماء، لكن الحسد يعمي الحاسدين عن السماء.. بكى الإخوة، وهم يرون قميص يوسف يعود ليضحك أباهم كما أبكاه، فأجشهوا ندمًا وتوبةً، وقالوا: ﴿يَٰٓأَبَانَا ٱسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَٰطِـِٔينَ﴾، لم يكن يعقوب سوى والد، يحب كل أولاده، لكن للصغير رحمة، وللمريض شفقة، وللغائب خفقة، لا تدركها سوى قلوب الآباء والأمهات.. لم يتردد يعقوب في العفو، فهم ويوسف وبنيامين ملء السمع والبصر، لذا ﴿ قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّيٓ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾.

تحلق الإخوة حول أبيهم، وقصوا عليه قصة العزيز، وتعجبهم من سر طلبه لبنيامين، وقدرته على ضبط مشاعره تجاههم، ثم عفوه عنهم، وأخبروه أن مسؤولياته تجاه دولته تجعله عاجزًا عن اللحاق بهم، فهو مسؤول عن قوت

شـعب وثنـي، سيسـأله الله عنهـم، وأن من الأنسـب أن ينتقلـوا للسـكن عنده في مصـر معززيـن مكرميـن، فلـم يتردد الشـيخ، وكيـف يتـردد وهو سـيرى الحبيب الـذي فقـد بصره شـوقًا إليـه وحزنًا عليـه.. كيـف يتـردد والرحلة سـتكون لديار يوسـف الحبيب.

أخذ الشيخ عصاه ونهض، وطلب التأهب للرحيل، فأعدت الهوادج، وحملت الفـرش والأمتعـة، وودعـوا الجيـران، الذيـن بكـوا فراق الشـيخ النبـي وزوجاته الطيبـات.. تمايلت عير يعقوب ﷺ وعائلته عبر الصحاري، حتى أصبحت على مشـارف مصر، وإذ بموكب الأمير النبي يوسـف يخرج لاسـتقبالهم، وما إن رأى القافلـة حتـى طـار قلبه، وأسـرع نحوهـا.. نحو الشـيخ، الـذي كان يحضنه، ويلاعبـه، ويبكي عليه.. نحـو راحيل الحنان.

توقفـت العيـر، وأنيخـت المطايا، فنـزل الأمير، وتوجـه نحوهما، ومـد يديه، وأخـذ بأيديهما للنـزول، وعانقهما بحـرارة، وكأنه لا يريد تركهما، وكأنه يخشـى أن يفقدهمـا مـرة أخرى. نظر إلـى تجاعيد يعقوب الحبيب. لقـد تغير كثيرًا، فآخر نظـرة كانـت حين ودعـه قبيل أن يأكلـه الذئب. نظر إلـى أجمل أم فـي الدنيا، فإذا الحـزن والشـيب قد غيَّرها. لم تعـد كما كانت. غـدت أكثر حبًّا وحنانًـا وجمالًا. تأمـل أحـب النـاس إليـه فبكـى، وبكـى الشـيخان، وبكـت القافلة مـن حولهما، و﴿ءَاوَىٰٓ إِلَيۡهِ أَبَوَيۡهِ وَقَالَ ٱدۡخُلُواْ مِصۡرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ﴾.

تهـادى بهما ثم سـلم على عماته وأخواته، وعلى عشـر عائـلات هي عائلات أخوته، ثم اسـتأنفت القافلة سـيرها خلف كبار الضيوف يحفها الحب والترحاب والحـرس، ولمـا وصلـوا إلـى ديوان الأميـر أنـزل والديه برفـق، وأخـذ بأيديهما بلطف، نحو عرشـه، ثم أجلسـهما عليه والسـعادة تجتاح كل ذرة فـي كيانه تغمره ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيۡهِ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ﴾، ثـم جلس معهما، واصطف إخوتـه وأولادهم أمامه.. هنا انحنـى الوالدان والإخوة تحيـة للعزيز ﴿وَخَرُّواْ لَهُۥ سُجَّدٗا﴾.

يوسف يفشي السر

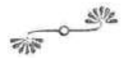
انحنى الوالدان والإخوة تحية للعزيز يوسف ﴿وَخَرُّواْ لَهُۥ سُجَّدٗا﴾. تأمل يوسف هذا المشهد فإذ به يتذكر خطواته الصغيرة نحو أبيه قبل ثلاثين عامًا، حين جاء ليسأله عن رؤياه قائلًا: ﴿يَٰٓأَبَتِ إِنِّي رَأَيۡتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوۡكَبٗا وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ رَأَيۡتُهُمۡ لِي سَٰجِدِينَ﴾، تذكر كلمات أبيه له، حين أوصاه بأن يكتم أمر الرؤيا عن أخوته.

رفع الساجدون رؤوسهم من التحية.. نظر يوسف لأبيه، وخاطبه مفشيًا سره للجميع، وقائلًا: ﴿يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأۡوِيلُ رُءۡيَٰيَ مِن قَبۡلُ قَدۡ جَعَلَهَا رَبِّي حَقّٗاۖ وَقَدۡ أَحۡسَنَ بِيٓ إِذۡ أَخۡرَجَنِي مِنَ ٱلسِّجۡنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلۡبَدۡوِ مِنۢ بَعۡدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيۡطَٰنُ بَيۡنِي وَبَيۡنَ إِخۡوَتِيٓۚ إِنَّ رَبِّي لَطِيفٞ لِّمَا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ﴾، ثم توجه بدعائه إلى ربه الذي ابتلاه، ثم منَّ عليه وحباه.. توجه لمالك الملك وملك الملوك، الذي اصطفاه، معترفًا بفضله.. يناشده أن يثبته على التوحيد، حتى يلقاه، وقال: ﴿رَبِّ قَدۡ ءَاتَيۡتَنِي مِنَ ٱلۡمُلۡكِ وَعَلَّمۡتَنِي مِن تَأۡوِيلِ ٱلۡأَحَادِيثِۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ أَنتَ وَلِيِّۦ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۖ تَوَفَّنِي مُسۡلِمٗا وَأَلۡحِقۡنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾.

كان السجن تصفية لروح يوسف، وتهيئة له؛ ليشعر بثقل المسؤولية، ومرارة الظلم على نفس المظلوم، لذا أصبح بعد خروجه من السجن أعدل من تعامل مع هذا الشعب، منفذًا رسالة الأنبياء، التي يقول الله عنها: ﴿لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا رُسُلَنَا بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلۡنَا مَعَهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلۡقِسۡطِ﴾.

ظل يوسف صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في منصبه في مصر، يزين حياة الوثنيين بعدل الإسلام وأخلاقه، ويغتنم الفرص لدعوتهم للتوحيد، وطاب لوالده صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وإخوته المقام فيها، حتى كثر أحفادهم وأحفاد أحفادهم، فتحولت عائلاتهم الاثنتا عشرة إلى اثنتي عشرة قبيلة.. كل قبيلة تحمل اسم ابن من أبناء يعقوب، وهم: (يوسف وبنيامين ويهودا ورابين وَشَمْعونُ، وَلاوِي وأَيْسَاخَرُ وَزَابلُونَ ودَان ونفتالي وجَادٌ وأشير).

في تلك الأوقات، وفي مكان يقع بين مدائن صالح والشام، يقال له (مدين)، عاش قوم من العرب.. كانوا قلة فكثَّرهم الله، وفقراء فأغناهم الله، وبدلًا من أن يشكروه سبحانه.. أطغاهم الجشع.. أصبح جمع المال بأي وسيلة كل همهم، فتحولت مدين إلى مطحنة للفقراء. أصبح دينهم دينارهم، حتى نسوا المنعم سبحانه، فانحطوا من التوحيد إلى قاع الوثنية والتخلف، لدرجة عبدوا معها الأيك وهو الشجر، وكان في مدين شاب موحد من عائلة كبيرة.. اسمه (شعيب)، يكره الفساد ويحاربه، لأنه أول خطوات انهيار الأمم.



شعيب نزيه يستحق الرجم

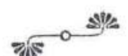
كبر شعيب فاصطفاه الله نبيًّا، ليدعو قومه إلى رسالتي الأنبياء: التوحيد والعدل. نبههم إلى معيشتهم الرغيدة، التي لا يرى معها أي مبرر للفساد، فقال: ﴿يَـٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ وَلَا تَنقُصُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ ۚ إِنِّىٓ أَرَىٰكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ﴾، فالله قد خلق البشر لإعمار الأرض بالتوحيد والعدل، لا ليُباد الموحد على يد الوثني، ولا ليُسحق الفقير والضعيف على يد الغني والقوي.

يخرج شعيب من بيته كل يوم نحو أسواقهم.. يجول بين دكاكينهم وأماكن تجارتهم، فيرى الأيادي تتلاعب بالموازين، ويرى الغش التجاري في البضائع. يراهم يقامرون بمستقبل وطنه الاقتصادي.. كان يخشى على وطنه الحبيب من الفاسدين.. يذكرهم بحالهم قبل سنوات، ويخشى عليهم زوال النعم، ويقول: ﴿وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ ۖ وَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾، لكن النعمة أسكرت قومه، حتى صاروا خلف الثراء السريع بأية وسيلة، ومن كان هذا حاله ينفر من أي دعوة للعقل، لذا فزعوا من دعوته

للتوحيد، ومحاربته للفساد، والتلاعب باقتصاد مدين، والمقامرة بحياة الجيل القادم، خاصة حين تعاطف معه المطحونون والضحايا والعقلاء.

هنا اجتمع عرابو الفساد الوثني؛ لاتخاذ قرار بشأنه، فرأت أغلبية المتنفذين الفاسدين الوثنيين: أن الحل هو إعدام شعيب ﷺ رجمًا بالحجارة، فوافقت الأقلية، لكنهم نبهوا لعشيرته القوية، التي قد تحرق الأخضر واليابس، لذا تراجعوا، وقالوها صريحة لشعيب: ﴿يَٰشُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًا ۖ وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَٰكَ ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ﴾، لكن شعيبًا كان يخاطب العقول، فيقول: ﴿يَٰقَوْمِ أَرَهْطِىٓ أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَٱتَّخَذْتُمُوهُ وَرَآءَكُمْ ظِهْرِيًّا ۖ إِنَّ رَبِّى بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾.

مرت الأشهر والسنوات وأصبح الوثنيون أكثر فسادًا وإجرامًا.. لم يكتفوا بالشرك.. تحولوا إلى إرهابيين، يجوبون الطرقات.. يهددون أي شخص يريد اعتناق التوحيد، أو ينصت لشعيب، ودعوته لمحاربة الفساد، متوعدينه بالموت، ولما علم شعيب حذرهم، وقال: ﴿يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ فَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨٥﴾ وَلَا تَقْعُدُوا۟ بِكُلِّ صِرَٰطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾، هنا قدموا له خيارين، لا ثالث لهما.



شعيب والخيار الأخير

طالب النبي شعيب ﷺ قومه بتحكيم العقل، وترك الناس وما يختارونه من دين وتجارة نزيهة، قائلًا: ﴿وَإِن كَانَ طَآئِفَةٌ مِّنكُمْ ءَامَنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَطَآئِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ فَٱصْبِرُوا۟ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ بَيْنَنَا ۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾، رفض الوثنيون أن

يكـون لغيرهـم رأي، وأصـروا على سـحق الموحديـن والنزيهين وأهلـه قائلين: ﴿لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا﴾.

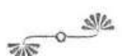
رفـض شـعيب الرضـوخ لتهديدهـم فزحزحـة الجبال أهـون مـن التخلي عن التوحيـد، لذا ذكرهم بقدرة الجبار سـبحانه، ومصير الأمم البائدة، فقال: ﴿وَيَٰقَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِىٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَآ أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَٰلِحٍ ۚ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ﴾، هنـا عـرض قومـه عليـه خياريـن لا ثالـث لهمـا، إمـا أن يعـود وأصحابـه للوثنيـة، أو يغادروا إلى غير رجعة. فقـال: ﴿قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا﴾، ثم بين شـعيب أن صلفهم لا وزن له أمام ثقته بالله سـبحانه، فقـال: ﴿عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا ۚ رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ﴾، فشـعيب ليس طالب سـلطة يحشـد الأتباع، ولا صاحب تجارة يطمـع بالحصول علـى أكبـر قـدر من الأربـاح والزبائـن.. هو صاحـب رسـالة سـامية، تعيـد تفعيل العقـل، وتقدم حلولًا ناجعـة للاقتصاد.

هنـا تهور الوثنيون فطلبوا من شـعيب أمرًا ثالثًا.. تهـوروا فنطقوا بالكلمة، التي تجلب الخراب. تحدوا الله أن يعذبهم قائلين: ﴿وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿١٨٦﴾ فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾، تألـم شـعيب من سـوء أدبهم مع خالقهم ورازقهم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وأخبرهم أن إسـقاط قطع من السـماء ليس شـأنه. هو لا يملك سـوى إرشـادهم، والأمر بيد الجبار أولًا وأخيرًا.

خـرس الوثنيون، وحزن شـعيب لعنـاد قومه،فإذ بالجبار المنتقم سـبحانه يأمر شـعيبًا والمؤمنين أن يغادروا مدين.

انطلـق شـعيب صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نحـو بيـوت المؤمنيـن وبلغهـم أمـر ربـه، فبـدأوا الاسـتعداد للرحيـل المر. حـان وقت الرحيل، ليـس رضوخًـا للطواغيت، ولكن لأمـر مخيف سـيحل، فهـؤلاء الوثنيون مثال للمادية البشـعة الجشـعة، التي تأكل أبناءهـا، وتدمـر نفسـها، وترفـض الـرأي الآخـر ولـو كان حقًـا.. حـان الرحيـل

عـن الوطـن وما أقسـاه. بـدأ المؤمنون بتحميـل مطاياهـم، ثم تحركـت الركائب مغـادرة، فبدأ الوثنيون يسـخرون من الراحلين.. يطالبونهم بالبقاء، وترك شـعيب والتوحيـد ﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ لَئِنِ ٱتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ﴾، فهـل يتخلـى الراحلون عن شـعيب؟



رحل قوم شعيب وعاد الفراعنة

لم يلتفت أصحاب شـعيب عَلَيْهِ السَّلَامُ لثرثرة طواغيت الوثنيين، سـلموا عقولهم لشـجرة.. سـاروا خلـف نبيهـم، وكلهم ثقـة بربهـم سـبحانه، حتى نزلـوا بأرض يعمرونهـا بالتوحيـد والنظـام، ورجـع الوثنيـون إلى شـجرتهم (شـجرة الأيك)، يقدمون لهـا القرابين، ويشـربون نخـب انتصارها.

وفجـأة توقـف الاحتفـال.. قلصـت شـفاههم عـن الضحـك والثرثـرة، حين رفعـوا رؤوسـهم، فإذ بالسـماء تتغيـر.. بدأت زرقتهـا تتحول إلى ظلـة قاتمة، وإذ بزلـزال مـروع، يـرج أرضهم مـن أقصاها إلـى أقصاها يـوم الظلة، حتى تسـاقطوا من شـدة الرجفـة.. دب الذعر في مديـن، وملأ الصياح أرضها وسـماءها.. مدين مدينـة للهلـع.. الكل يركض.. الكل يهـرب.. لا أحد يلوي على أحد، ولا يسـأل عن والـد أو لد.

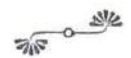
وبلمح البصر.. شـقت السـماء صيحة فجـرت الآذان، وصدعـت ما تبقى من جـدران.. صاخـة انتزعـت الأرواح من الأجسـاد، ﴿فَأَصْبَحُواْ فِي دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ﴾. قد تخشبوا.

هنـاك من تخشـب وهو يغش في دكانه، وهناك من تخشـب وهـو في الطريق، وهنـاك مـن تجمد وهـو يهم بالدخـول لبيته، وآخر تخشـب وهو يهـرب من بيته. مديـن متحف للجثث المحنطة، ومدين سـكتت.

سـكتت مدين.. سـكت الفسـاد والغش والربا والظلم والإرهاب، سـكت كل شـيء فيهـا، وبقيت شـجرة الأيك تسـخر مـن غبائهـم، وتتبرأ مـن عبادتهـم لها، ﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيۡبٗا كَأَن لَّمۡ يَغۡنَوۡاْ فِيهَاۚ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيۡبٗا كَانُواْ هُمُ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾.

انتهى قوم شـعيب، وانتهت كذلك مملكة الهكسـوس في مصر.. عاد الفراعنة لحكمهـا، وتعاقـب حكامهم، وتغيرت أحوال أحفاد إسـرائيل فـي مصر، فبعد أن طـاب للنبي يعقوب ﷺ السـكن فيها حتـى توفاه ربه سـبحانه، وبقي أبناؤه بعده سـنوات وسـنوات، ثم توفاهم الله واحدًا بعد الآخر، وتوفي أخوهم يوسـف ﷺ بعـد أن تـرك بصمته على أرض مصر.. أنقذها مـن المجاعة والإفلاس بعدالـة الإسـلام وأخـلاق النبـوة والنظـام الاقتصـادي الإسـلامي، الـذي يكافح الفسـاد، ولا يسـتغل المحتـاج، أو يثقـل كاهله بالربا، بـل يخطط لمسـتقبل زاهر للوطن والمواطن.. رحل يوسـف الصديق، وكثر أبنـاؤه وأبناء إخوته وأحفادهم، حتـى أصبحوا اثنتي عشـرة قبيلـة.. تلك القبائل أصبحت تسـمى بالإسـرائيليين، نسـبة إلى إسـرائيل أي يعقـوب، ومع مرور الزمـن تغير معظمهم.

أصيـب الأحفـاد بالغـرور، لأنهم سـلالة أنبياء، لكـن مصر أيضًـا تغيرت، فقد عـاد الفراعنة الوثنيون لحكمهـا.. تعاقب حكامهم منهم المبدع، ومنهم المسـتبد المفزع، أما الإسـرائيليون، فانقلب عزهم ذلًّا وشـقاءً واضطهادًا، ربما لغرورهم، وربمـا لأنهـم كانـوا وزراء للملـوك السـابقين، وقد بلغ تطـرف أحـد الفراعنة أن أصدر أمرًا بقتـل مواليد الإسـرائيليين الذكور.



الأهرامات بين إبداع التصميم وتخلف الهدف

بالقـدر الذي تفخر فيه أرض مصـر الطيبة بأهراماتها المذهلـة.. بقدر ما تبكي أجيـالًا تـم سـحقها مـن أجـل بنـاء تلـك الأهرامـات، فالفرعـون كان يأمـر ببناء

الهرم، لا ليكون قصرًا يسكنه، أو صوامع للغلال والأمن الغذائي للشعب، بل ولا مسرحًا أو متنزهًا. لم تبن الأهرامات ليسكنها الفقراء، ولا حتى الأغنياء.. الهرم الذي صممه مهندسون عباقرة، كان لسبب غاية في التفاهة والتخلف.

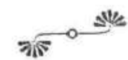
لقد تم تشييده ليكون قبرًا لفرعون، وليته بني تكريمًا لفرعون مبدع، بل هو قبر لفرعون حي مستبد، يأمر ببناء هرم يحتل مساحة حي لكي يكون قبره.. هرم بحجم حي من أجل جثة.. تهدر فيه ثروات البلاد، وتبدد طاقات الشباب من أجل جثة. ينخرط الشاب في سلك البنائين، وهو يناهز العشرينيات، فلا يكتمل الهرم إلا بعد أن يلون الشيب أصداغهم ورؤوسهم، ويتجاوز الأربعينيات.

طغيان وثني للحجر على البشر.. طغيان لم يمارسه يوسف، الذي احتفى بالإنسان المصري، وزين أرضه بنزاهة الإسلام وعدالته، أما الأسوأ فهو حين دشن أحد الفراعنة الوثنيين عهده بالظلم واضطهاد الإسرائيليين، فهل ارتكب ذلك لأنهم أحفاد يوسف وزير أعدائه الهكسوس؟ أم لأن بني إسرائيل كانوا يتحدثون عن ظهور قائد إسرائيلي سينتصر على فرعون من الفراعنة؟

لا يمكن الجزم بالسبب، لكن الذي جرى هو أنه لم يعد لبني إسرائيل المساكين قيمة.. انقلب عزهم ذلًّا وشقاءً واضطهادًا، بل بلغ التطرف بأحد الفراعنة إلى محاولة إبادتهم بطريقة مبتكرة: أمر بقتل أي مولود ذكر، وبذلك سيأتي اليوم الذي ستخلو فيه مصر منهم، وقبل صدور هذا المرسوم الطاغوتي عاش شاب إسرائيلي صالح اسمه عمران.. وقد تزوج عمران من شابة إسرائيلية صالحة فعاشا في وئام، ورزقا بفتاة، ثم رزقا بابن سموه هارون.. كبرت ابنة عمران، وأصبحت في سن المراهقة، وفي هذا الوقت صدر الحكم الفرعوني بارتكاب المجازر بحق المواليد.

حينها كانت امرأة عمران حاملًا، وكلما كبر بطنها قل خروجها، فجلاوزة الوثنيين وجزاروهم يمشطون أحياء الإسرائيليين المساكين.. يجوبون

شوارعها وأزقتها كالوحوش.. يطرقونها بابًا بابًا.. في جولات تفتيشية مخيفة، لا تعرف الرحمة ولا الإنسانية، وكلما عثروا على وليد انتزعوه من أحضان أمه المسكينة، وهي تصرخ وتناشدهم الرحمة، ثم قطعوا رأسه بوحشية، ورموه بين يديها. في تلك الأيام المخيفة، فاجأ المخاض زوجة عمران.



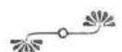
مداهمة بيت عمران

عصفت بالحي الإسرائيلي أجواء إرهاب لا تطاق، لذا كان الرعب يجتاح أم هارون على جنينها، فقد جاءها المخاض، ثم ولدت طفلًا جميلًا، سموه (موسى)، وها هي يرتجف قلبها، كلما سمعت طرقًا على الباب، أو وقع أقدام على الطريق.. تحول أبوه عمران إلى راصد للطرقات، وجامع لأخبار المداهمات.. لم يعلم بمولد موسى سوى خاصة الخاصة.. ازداد خوف أمه عَلَيْهَا السَّلَامُ، لكن وحيًا تلقته، طمأنها وأحزنها في الوقت نفسه.. كلمات الذي لا يؤوده حفظ السماوات والأرض تقول: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ ۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾.

قام والد موسى بصنع تابوت خشبي صغير أو شرائه، تحسبًا لحالة مداهمة، وظل الرضيع مع أمه، تحنو عليه وترضعه وتناغيه، بينما كانت جولات جلاوزة الفراعنة المفاجئة تجتاح الحي بيتًا بيتًا.. تستجوبهم فردًا فردًا.. لا يمر شهر إلا وصرخات الأمهات تدوي في بيت من بيوت ذلك الحي، وبعد أسابيع من ولادته، داهمت دورية للشرطة الفرعونية الوثنية الحي، بحثًا عن رقاب المواليد الصغيرة. دنا مسح الجزارون من منزل أم هارون، فصعب الاحتفاظ به، فقد يبكي ساعة وجودهم فينحرونه أمامها.. تحرك البيت كله.. قامت أمه بإرضاعه، ثم لفته بمهد ودموعها تبلله، وكأنها تكفن قلبها.. قبلته وضمته، ثم وضعته داخل التابوت، ووضعت قلبها معه، وهي تتأوه.

فُتـح البـاب وخـرج عمـران وابنتـه وابنـه هـارون يرصـدون الطرقـات، ولما أصبـح الخـروج آمنا خرجت به أمـه، وهي تتلفـت، وتوجهت به نحـو نهر النيل، ولمـا أصبحـت أمامه توقفت، وانحنـت نحو الماء، ووضعـت التابوت برفق على سـطح المـاء، وتركته في حفـظ الحفيظ العليـم.. تركت حبيبها، وهي تشـهق من الوجـع.. عيناهـا على التابوت، الذي يتموج مع المـاء، ويبحر ويبحر حتى اختفى عـن عينيهـا الغارقتيـن بالدمـوع.. كأني بهـا تكز أسـنانها، وتغطي فمها خشـية أن تصـرخ، بل ﴿كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ﴾، كادت من شـدة الوجـد أن تصرخ، فتناديه فتفضـح أمرها وأمـره، لولا أن ربـط الله على قلبها.

أمـا التابـوت الصغيـر، فمالـت بـه الريـح شـيئًا فشـيئًا، حتـى بـدأت حركتـه بالبـطء، ليرسـو بعـد مـدة على سـاحل المـوت، وحافـة قصـر الطاغيـة فرعون، قاتـل المواليـد.. ظل التابـوت ملاصقًا للسـاحل، يعلـو وينخفض، حتـى لمحته وصيفـات الملكـة الطيبـة (آسية) زوجـة فرعون.



آسية الملكة المصرية الطيبة

لمحـت وصيفـات الملكـة (آسـية) تابوتًا يعلـو وينخفض مع تموج مـاء النهر علـى حافـة القصر، فأسـرعن نحـوه.. أمسـكنه، ورفعنه عـن المـاء، وفتحنه، وإذ بالمفاجـأة.. طفـل كالقمر تهتز أطرافه.. تحلقت الوصيفـات حول الكنز.. تعالت التأوهـات والبسـمات، ثـم تهادين بسـعادة نحو سـيدتهن.. أخرجـن الرضيع منه برفـق، وسـلمنه بنعومة للملكـة الرقيقة الراقيـة، فلمعت عيناها سـعادة، وجرفت قلبهـا براءتـه وجماله.. وبعـد مناغاة وقبـلات حانية خلـد الصغير للنوم.

اسـتغرق فـي نوم عميـق، كعادة مـن هم في سـنه، فلُف فـي مهد ناعـم، وغفا علـى سـرير فاخـر. ولمـا التقـت سـيدة القصـر بفرعونها، تهـادت نحـوه بدلال،

تحمل الرضيع بين يديها.. تبشره بما وجدت، فاستشاط غضبًا، وقرر نحره، لكنها استغلت حبه لها، فاسترحمته، وناشدته ﴿وَقَالَتِ ٱمْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾، إنه من بني إسرائيل.

وافق الفرعون تحت تأثير الحب، ورضي بتبنيها للرضيع، الذي بدأ يفيق من نومه، ويشعر بالجوع.. بدأ يتلمظ، يبحث عن صدر أمه الحزينة.. بدأ يبكي، فإذ بالأوامر تصدر للمرضعات اللواتي أقبلن نحو الأمير الصغير، طمعًا في الهبات، لكن شفتاه لم تطق صدر أي منهن، اضطرب القصر، وارتبكت السيدة الأولى، لا تدري ما العمل حيال طفل عاف المراضع كلها.. لم تدر أن الذي أهداها هذا القمر هو خالقه سبحانه، الذي يقول: ﴿وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ﴾، أمرت الملكة الطيبة خدمها بالبحث له عن مرضعات أخريات.

هذا ما كان يحدث داخل القصر، أما في الحي الإسرائيلي المحاصر، وبالتحديد في بيت عمران، فالحزن يقتل الجميع.. لا يدرون أين رسا التابوت بموسى، وأمه لا تكف عن البكاء، ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًا﴾، من أي شيء من ملذات الحياة.. عافت الطعام كطفلها، وقتلها الشوق لصغيرها، فالتفتت إلى أخته بعينين كالجمر، وطلبت منها الخروج ﴿وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِ﴾، وتحسسي أي خبر عنه. خرجت الفتاة على الفور، وما هي إلا سويعات، وإذ بها تتوقف أمام زحام مثير في أحد الأسواق.. حاشية ملكية تحيط بأمير رضيع يبكي، ﴿فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾.

حدقت به، فإذا هو شقيقها موسى.. دنت، فاختلطت بها السعادة بالحزن بالخوف.. سألتهم: ما شأنه؟ فأخبروها أن القصر يبحث له عن مرضعة، فقد عاف المراضع، وهو يبكي من الجوع. ذهلت الفتاة من رحمة الله بأخيها الرضيع! وحمدته سبحانه.

أم موسى مبجلة في قصر عدوها

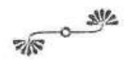
ذهلت أخت موسى من رحمة الله وكرامته لأمها! وهي تشاهد أخاها الرضيع موسى محاطًا بالحاشية، يبحثون له عن مرضعة، فاقتربت منهم، وقالت: ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ﴾، ومباشرة وافق الخدم، فطلبت منهم أن يتبعوها.

مشى خدم الطاغية وجنده، خلف الفتاة الإسرائيلية عبر طرقات الحي.. لم يسيروا دورية للقتل، بل مشوا حاشية للإنقاذ.. يحملون الرضيع بحثًا عمن يسعده برضعة مريئة، بعد أن كانوا بالأمس يسلكون الطرقات نفسها بحثًا عنه ليذبحوه.. ساروا عبر التواءات ومنعطفات، أمام اتساع أعين بني إسرائيل، والتفاتاتهم ودهشتهم، ثم توقفوا أمام الباب، فإذ بالأم الحزينة، وبجوارها هارون الصغير تتحرق لخبر.. أي خبر، يطمئن قلبها: أن رضيعها ما زال حيًّا.

فُتح الباب، فإذ بالفتاة تبتسم بوجه أمها، وهي تغالب مشاعرها، كي لا تنفضح.. تكتم صرخات الفرح وقفزاته وعناقه، وإذ بخدم الطاغية، الذين روعوا أمه بالأمس، حتى ألقته في النهر، يتقدمون نحوها بلطف، فتمد إحدى الوصيفات يديها، لتقدم موسى هدية ملفوفة بالحرير.. تحرسه القوة، التي كانت تريد حز رأسه بالأمس.

فاضت عينا أم موسى، حمدًا لله، وبكى قلبها، وضمت طفلها، فألقمته صدرها، فإذ بالصغير يقبل على نبع الحياة بشغف.. رضع الطفل حتى ارتوى، ثم بدأ يناغي أمه، التي تغالب الدموع حتى لا ينفضح سرها.. تضمه وتشمه.. كان الخدم والجنود ينظرون إلى بعضهم، وهم في غاية السعادة.. ينتظرون العودة، ليبشروا الملكة الطيبة.. طلبوا من أم موسى مرافقتهم لمقابلتها، فوافقت، وكيف لا توافق وهي ستكون برفقة حبيب القلب. نهضت مباشرة وهي تحمل قرة عينها.. مشت بين الوصيفات والخدم نحو القصر.

دهش الإسرائيليون من هذا الموكب المهيب، وهم الذين تعودوا على مداهمات دوريات الشرطة الوثنية الفرعونية، ودمعت عينا عمران، وهو يرى ابنه محمولًا محفوفًا بالحاشية، والحرس يفرقون الناس، كي يفسحوا الطرقات، ليمر موكب سموه، ورؤوس الفضوليين تتطاول.. تحاول التعرف على هوية هذا الأمير المبجل.. ظل موسى محمولًا وسط همهمات الإعجاب، حتى أقبلوا على القصر، الذي تجري من تحته الأنهار، فتهادت أمه عبر بوابته.. كانت سيدة القصر في استقبالها.. مدت يديها وأخذته منها بشوق، واحتضنته، وهي تكاد تطير من الفرح، حين رأته قد ارتوى، وكف عن البكاء. تبادلت أطيب امرأتين على تلك الأرض الابتسامات والأحاديث الودية.



موسى بين شعبين وديانتين

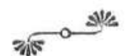
في قصر فرعون المجرم، تبادلت أطيب امرأتين على تلك الأرض الابتسامات والأحاديث العذبة.. أحاديث تمحورت حول هذا الدلال النائم في حجر آسية.. يتقلب بين أرحم أمين.. انثالت الهدايا والعطايا والحلي على أم موسى، ورَدهُ الله ﴿إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَيۡ تَقَرَّ عَيۡنُهَا وَلَا تَحۡزَنَ وَلِتَعۡلَمَ أَنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ﴾، وجرى الحديث مع سيدة القصر العظيمة حول طريقة إرضاعه: هل ستنتقل أم موسى للسكن في القصر، أم سينتقل موسى إلى حي بني إسرائيل، أم سيتردد به الحرس عليها لترضعه.

هكذا حُذف الذبيح موسى بن عمران من قوائم المطلوبين، الذين ستكون السكاكين والخناجر في موعد مع رقابهم الصغيرة حال ولادتهم، ومذ دخل الذبيح القصر حلت البركة على حي الإسرائيلي المحاصر بالجنود الوثنيين.. بدأ الاضطهاد يخف تكريمًا لأم موسى الطيبة.. أصبح بيت عمران مرحبًا به

فـي القصـر، أمـا موسـى فبدأ يكبـر في الـدلال، وكلمـا كبـر.. كبر حبه فـي قلب آسـية الكريمة.

كان فرعـون لا يكرهـه، بـل يحبـه، فقـد ألقـى الله عليـه المحبـة، لكـن ليـس لـدى فرعون وقت له.. هو مشـغول بعرشـه.. يتوجـس خوفًا مـن كل حركة، وإذ بـه يرتكـب حماقـة، جعلـت عرشـه مهـدًا.. كان يخاطب شـعبه القبطـي الوثني بفوقيـة.. يقـول لهـم: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾، وهـم بالمقابـل يرضـون بهـذه الخرافـة، وكيـف لا يعبدونـه، وهم الذيـن عبدوا آلهة من نسـج خيالهم.. إله للشـمس وإله للنيـل، وإلـه بـرأس تمسـاح، وخرافات وأسـاطير، لم تجـد آذانا لـدى الكثير من الإسـرائيليين أحفـاد الأنبيـاء، مما زاد من حقـد فرعون عليهم، لولا زوجته آسـية التـي خففـت من هـذا الاحتقـان والمعاناة.

مـرت السـنوات، وكبر موسـى تحيطـه رعاية الله ومعيتـه.. يصنعه علـى عينه، ويصطنعـه لنفسـه سـبحانه.. كان يتردد بيـن أميه الحبيبتيـن، ولما كبـر أخبرته أمه بالسـر الـذي لا يعلمـه إلا هـي ووالـده وأختـه.. أخبرتـه أنه مـن أحفاد إسـرائيل (يعقـوب) بـن إسـحاق بـن إبراهيـم عَلَيْهِمَا السَّلَامُ، وأنـه مـن سـلالة أنبياء، رسـالتهم التوحيـد والعدل، فنشـأ علـى التوحيد النقي، رغـم الوثنية الجارفـة، التي تعصف بالقصـر ومصر، ولما تجـاوز الثامنة عشـر، و﴿بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ﴾، آتاه الله حكمًا وعلمًـا، ووهبـه قـوة جسـدية فريـدة.. كان جسـده فـي القصـر، لكـن مشـاعره ووجدانـه مع معاناة شـعبه الإسـرائيلي.. معاناة شـعورية، عاشـها رغـم الترف.. حتـى جـاء ذلك اليـوم، الذي غـادر فيهـا القصر والحـي معًا.



موسى من أمير إلى مطلوب

كان الشاب موسـى يرى تهميش الإسرائيليين الموحدين واضطهادهم.. يتألم مـن العنصريـة الفرعونيـة الوثنية تجاههم، ومـع ذلك ظل وفيًا للقصـر، حتى جاء

ذلـك اليوم الذي قلب حياته رأسًـا علـى عقب، فقد دخل المدينة سـاعة الظهيرة، وبينمـا هـو في أحـد الطرقات، إذ به يسـمع نـداء اسـتغاثة من بعيـد.. ركض نحو المسـتغيث، فإذ هو إسـرائيلي يسـتغيث من قبطي وثنـي، فهب لنجدته.

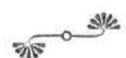
وفـي لحظة من لحظات الشـعور بالاضطهاد.. وجه موسـى لكـزة قوية لصدر الوثنـي، فـإذ به يرتطم بـالأرض دون حراك.. صعق موسـى فانحنـى على القبطي يتحسـس نفسَـه، فإذا هو قد انقطع وفارق الحياة.. امتلكه شـعور بالخوف من الله لا يوصـف.. شـعر بخطئه حين انفعل تعاطفًا مع شـعبه، فالوثنيـون كانوا يذبحون إخوتـه الرضـع.. يفصلـون رؤوسـهم الصغيـرة عـن أجسـادهم دون مبـرر، ومع ذلـك لم يبـرر لنفسـه، ولـم يجـد لها عذرًا فـي إزهاق نفـس بريئة، حتـى وإن كان خصمًا لقومه.

قتلـه الندم، واعتـرف لربه بذنبه، وهو يتأمل الرجل الممدد أمامه، فقال: ﴿هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ﴾، اسـودت الدنيـا فـي وجـه موسـى، وتلفـت ليتأكـد أن أحـدًا لم يره، ثم انطلق هاربًا وسـط نظرات ودهشـة الإسـرائيلي.. ندم موسـى، وتوجـه بقلبـه ولسـانه ومشـاعره إلى مـن أنقذه مـن سـكاكين الجزارين الفراعنـة، وهـو فـي مهـده، وجعلـه أميـرًا، وأسـكنه القصـور طالبًـا منه سـبحانه الغفـران، فقـال: ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَٱغْفِرْ لِي﴾.

ظـل موسـى يدعو ويسـتغفر، حتى ألقي فـي روعه: أنـه قد غُفر لـه، فاجتاحته السـعادة، وعاهـد ربـه الذي منحـه هذه القـوة، ألا يسـتخدمها في خدمـة مجرم، أو نصـرة متسـلط، وقـال: ﴿رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ﴾، ومـع ذلـك ﴿فَأَصْبَحَ فِي ٱلْمَدِينَةِ خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ﴾، يخرج متنكـرًا، ويدخل متخفيًا، لكن يبدو أن الأمـر بـدأ ينكشـف.. ربما من ثرثرة ذلك الإسـرائيلي، حتى علـم أهل القتيل، وذات يوم كان موسـى يسـير في أحد الطرقـات متخفيًا، يتلفت يتحاشـى العيون، وإذ بشـخص يتمكن من معرفته.. ناداه باسـمه، واسـتنجد بقوتـه الخارقة.. توجه

موسى نحو مصدر الصوت، ثم دنا منه فإذا هو الإسرائيلي المشؤوم نفسه، يستقوي به على قبطي آخر، ويهدده بمصير صاحبه الميت، فغضب موسى من هذا الإسرائيلي الذي لا يكف عن الشجار مع الناس، وتوريط الآخرين في مشكلاته.

وفجأة حدث شيء جعل موسى يهرب من المدينة كلها.



موسى يهرب من مصر

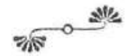
اشتد غضب موسى ﷺ على ذلك الإسرائيلي المزعج، الذي لا يكف عن الشجار مع الناس، وتوريط الآخرين في مشكلاته. فزجره وقال له: (إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ) تريد توريطي وإغوائي، كي أرتكب جريمة أخرى، ثم توجه نحو القبطي الوثني فقط ليردعه عن اضطهاد الإسرائيليين، وإذ بالقبطي يرتعد، ويوقن بالهلاك بعد أن عرف موسى، فصرخ في وجهه، قائلًا: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًۢا بِٱلْأَمْسِ ۖ إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ﴾.

أفاق موسى.. اكتشف أن سره قد انكشف، وأن الإسرائيلي قد فضحه.. أيقظته كلمات القبطي الخائفة، وكان ﷺ أوابًا رجاعًا للحق، فتراجع فورًا عما هم به.. تذكر توبته ووعده لله، وفي أثناء هذا اللجاج، التفت الثلاثة على وقع أقدام مقبلة من بعيد.. رجل يركض نحوهم بأقصى سرعته.. يقبل نحو موسى، وما إن توقف حتى بدأ بالتقاط كلماته من بين أنفاسه المتقطعة.. قال: وصدره يعلو وينخفض: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّى لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾، فقد انكشف الأمر، وأهل القتيل يمشطون المدينة بحثًا عنك.

انطلق موسى على الفور وولى هاربًا.. قرر أن يغادر مصر، دون أن يودع آسية الحبيبة أو يستأذنها، أو يمر على أمه وأبيه.. ﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾، ظل هائمًا على وجهه باتجاه الشمال أيامًا وليالي.. لا يملك مالًا كافيًا، ولا دابة تحمله، حتى أصبح على مشارف بلاد يقال لها مدين ﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّي أَن يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾، دعا بتلك الدعوات، وواصل سيره، حتى دخل مدين، وإذ به بعد مسافة يرى حشدًا من الناس.

اقترب فإذا هم جمع من الرعاة، يستقون الماء لهم ولغنمهم ودوابهم.. جال طرفه في المشهد، فوقع على شيء أحزنه، واستثار نخوته ورجولته، وكان من أشد الناس على الظلم، وأكثرهم نجدة ورحمة بالضعفاء ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ﴾، آلمه مشهد الفتاتين، وهما واقفتان في حالة انكسار وانتظار بين رعاة أجلاف.. لا يرعون حقًّا لضعيف، ولا ذوقًا في التعامل مع النساء. لم يطق موسى صبرًا.. مشى خطوات نحو الفتاتين، واقترب منهما، وسألهما عن سبب انتظارهما، و﴿قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ﴾.

انغرزت كلمة شيخ في قلبه.. حدب على شيخوخة الأب، وضعف البنات اللواتي لا يستطعن الاقتراب من البئر، حتى يغادر الرعاة، ولن تتاح لهما البئر إلا بعد انصراف الجميع حتى لو قدمتا مبكرتين، فقرر اقتحام البئر.



الغربة والحزن تحت الظل

شعر موسى بالشفقة على شيخوخة الأب، وضعف البنات اللواتي لا يستطعن الاقتراب من البئر حتى يغادر الرعاة، فطلب منهما أن تعطياه

دلويهما. مدت الفتاتان الدلاء، فأخذهما صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ثم توجه نحو البئر، وإذ بأكتاف الرعاة مصطكة حول ركية، الأولوية فيها للأقوى لا للنظام، وإذ بكتفين كالحديد تفلان تلك الحلقة من الأكتاف الغليظة، وسط ذهول الرعاة وخوفهم.

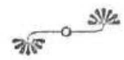
رمى موسى الدلاء، ثم انتشلها من أعماق البئر، وهي تلمع وتفيض، ثم ترك البئر والرعاة خلف ظهره، وتوجه نحو الفتاتين، وقدم لهما الدلاء، وسط فرحتهما بالعودة للمنزل مبكرتين، وإعجابهما وسرورهما بهذا الفتى العطوف، الذي لم يطلب أجرًا أو شكرًا.. كل الذي أراده هو أن ينصف ضعيفتين، قد تأتيان ضمن أول من يرد على البئر، فلا تحصلان على حقهما إلا مع آخر من يبقى، ثم عاد موسى ليستريح تحت ظل شجرة، أو جدار. من عناء السفر، فهو قد وصل للتو، و﴿تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّى لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾، ثم غط في نومة مسافر، أتعبه الخوف والطريق والندم والغربة.

غادرت الفتاتان، وهما تشعران بالشفقة على هذا الشهم الغريب.. تتحدثان عن طيبته، التي خلصتهما من هم الانتظار، وكأنهما تقارنانه برعاة مدين القساة.. تهادتا بقربهما اللامعة على أبيهما في وقت أبكر من المعتاد، فنظر إليهما متعجبًا، فأخبرتاه أن شابًّا شهمًا أشفق عليهما، حين رآهما بلا حول ولا قوة، فقام بالسقاية لهما، ثم ﴿تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّى لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾.

أشفق الشيخ على هذا الغريب، بعد أن سمع دعاءه.. دعاء يوحي بأن بين أضلاعه معاناة مريرة، وقد آن الأوان لإزاحتها. طلب الشيخ من إحدى ابنتيه أن ترجع إليه، وأن تقول له: إن أبي يدعوك ليكافئك على عملك النبيل.

انطلقت الفتاة على الفور نحو البئر، وما إن رأته تحت الظل، حتى غشيها حياء العذارى، فتهادت نحوه بأدب، ولما وقفت أمامه، قالت له بصوت خجول: ﴿إِنَّ أَبِى يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا﴾.

مـلأت تلك الكلمات قلب موسـى بالسـرور، فرفع رأسـه ونهـض على الفور معها، ومشـيا حتى أقبلا على الشـيخ المهيب، فحياه موسـى، ورحب به الشـيخ، وتأمل شـحوبه، وشعث رأسـه، وضمر خصره من طول السـفر.. دعاه للجلوس، فجلـس، وقدمـت الفتاتـان الطعـام للضيـف، الـذي أنهكـه الجوع والتعـب، وإذ بالشـيخ يقدم لـه عقد عمل طويـل الأجل.



موسى وأشق مهر يدفع لفتاة

جلس موسـى ﷺ مع الشـيخ المؤمن الموحد.. عرَّفه بنفسـه، وأنه أحد أحفـاد إسـرائيل عَلَيْهِ السَّلَامُ، وقـص عليه قصـة معاناتـه وهروبه وسـفره، وأنه ملاحق من قبل الأقبـاط الوثنيين.

كان الشـيخ ينصـت باهتمـام، لـذا طمأنـه وكلـه ثقـة بالواحـد الأحـد، فقال: ﴿لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، ويبـدو أن قلـب إحـدى الفتاتيـن خفـق رحمـة بأبيهـا وإعجابًـا بموسـى، فدنـت من والدهـا، واقترحـت عليـه أن يوظفه عنـده، فهم بلا أخ يعينهـم، ويعتمدون عليه بعـد الله، كما أنها وأختهـا تعانيان من مشـقة التعامل مـع الرعاة الأجـلاف. قالت الفتـاة: ﴿يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِيُّ ٱلْأَمِينُ﴾.

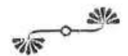
فكر الشـيخ بـرأي ابنته الحكيـم، ورؤيتهـا الثاقبة لأهم صفـات الموظف، بل همـا أهم صفـات القيـادي والمسـؤول. فالأمانة بلا قوة تجعل المسـؤول سـهل المنـال والاسـتغفال، والقـوة بلا أمانـة تجعـل المسـؤول متهـورًا عنيفًـا، يسـهل استفزازه.

اقتنـع الشـيخ بوجهة نظـر ابنتـه، لكن طموحـه أرفع مـن طموحهـا.. لم يكن يريـد أي أجيـر.. كان يريـد أجيـرًا بمواصفات ابن، وقبـل أن يغادر موسـى.. نظر

الشيخ له نظرة محب، وعرض عليه أمرًا بالغ الصعوبة، على أي شاب طموح في مثل سنه، يتقد حيوية ونشاطًا.. عرض عليه أن يزوجه إحدى ابنتيه، مقابل أن يعمل عنده لمدة ثمان سنوات على الأقل، وقال: ﴿إِنِّيٓ أُرِيدُ أَنۡ أُنكِحَكَ إِحۡدَى ٱبۡنَتَيَّ هَٰتَيۡنِ عَلَىٰٓ أَن تَأۡجُرَنِي ثَمَٰنِيَ حِجَجٖۖ فَإِنۡ أَتۡمَمۡتَ عَشۡرٗا فَمِنۡ عِندِكَۖ وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أَشُقَّ عَلَيۡكَۚ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾.

لم تكن تلك الفتاة باقتراحها ذاك بصدد الحديث عن الزواج، ولم يكن لدى موسى من المال والجاه ما يجعله هدفًا لقلوب الفتيات البسيطات.. سوى الرجولة والوسامة.. كان شابًّا طويلًا، شديد الجسم، لونه لا يميل للبياض، وشعره دهين، لكنه ليس ناعمًا ولا مجعدًا.. من يراه يظنه من قبيلة من قبائل اليمن، يقال لها (أزد شنوءة)[1].

وافق موسى على العقد، وقال للشيخ: ﴿ذَٰلِكَ بَيۡنِي وَبَيۡنَكَۖ أَيَّمَا ٱلۡأَجَلَيۡنِ قَضَيۡتُ فَلَا عُدۡوَٰنَ عَلَيَّۖ وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٞ﴾، مرت الأيام فذهب الشحوب والشعث عن موسى، وتم اختيار الزوجة، بناء على موافقتها، فزفت إليه في احتفال متواضع، لم يحضره أحد من أهله.. تمنى لو زفته أمه الحبيبة، أو آسية الطيبة، تمنى لو احتفل بزفافه في حيه الإسرائيلي.. تمنى، وتمنى، لكن ما حدث له بعد الزواج كان فوق أمنياته.



اخلع نعليك

تزوج موسى صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وتحول إلى أجير، يعمل مقابل طعامه وشرابه.. تحولات مريرة مر بها موسى كتحولات يوسف.. كان مقذوفًا في النهر، ثم

(١) صحيح البخاري (٣٢٣٩)، حيث قال النبي محمد عَلَيْهِ السَّلَامُ: «**رأيت موسى ليلة أسري بي موسى رجلاً آدم طوالًا جعدًا، كأنه من رجال شنوءة**».

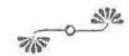
أميرًا، ثـم شـريدًا، وأخير أصبح أجيرًا في امتحـان جديد، وتمحيـص وتهيئة له، ليكـون أهـلًا لمسـؤوليات عظمـى تنتظـره. ظـل يكد علـى أرض مديـن.. يرعى الغنـم، ويجلـب المـاء من الآبار، ثـم رزق بذرية، ولما مرت عشـر سـنوات على إقامته فـي مديـن كان قد تجـاوز الثلاثين.

هنـا انتهت مـدة العقد الذي أبرمه مـع صهره، فتحرك قلبه نحـو والديه وأهله، ولمـا حل الشـتاء، حان موعـد الوداع، بكـت القلوب وفاضت العيـون، ثم انطلق موسـى وزوجتـه وأولاده جنوبًـا عبر سـيناء.. سـار وسـار، وفـي ليلة مـن الليالي البـاردة، لمـح ﷺ وهـو فـي الطريـق وميضًـا من بعيـد.. قرب جبـل، يقال لـه الطور.. حـدق فـرأى ﴿مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًا﴾ توقف والتفـت لزوجته وأولاده، وطلـب منهـم البقـاء ريثمـا يعـود، وقـال لهـم: ﴿ٱمۡكُثُوٓاْ إِنِّيٓ ءَانَسۡتُ نَارٗا لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنۡهَا بِخَبَرٍ أَوۡ جَذۡوَةٖ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمۡ تَصۡطَلُونَ﴾، ﴿رَءَا نَارٗا فَقَالَ لِأَهۡلِهِ ٱمۡكُثُوٓاْ إِنِّيٓ ءَانَسۡتُ نَارٗا لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنۡهَا بِقَبَسٍ أَوۡ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدٗى﴾.

بقيـت الأسـرة الصغيرة في الظـلام، يحدقـون بحبيبهم، الذي بـدأ يختفي عن أنظارهـم شـيئًا فشـيئًا، ليتوغل في عالم الأنـوار، الذي أذهله عن أسـرته وعن كل شـيء.. سـلك موسـى شـاطئ الوادي الأيمـن.. يتوكأ علـى عصاه رغم شـبابه، حتـى دنـا مـن النـار.. تأملهـا فـإذا هي ليسـت كتلـك التـي طالمـا أوقدهـا.. نار لم يوقدهـا بشـر، ولم تورث رمـادًا.. وفجأة غمرته مشـاعر روحانيـة لم يعهدها، حيـن ﴿نُودِيَ مِن شَٰطِيِٕ ٱلۡوَادِ ٱلۡأَيۡمَنِ فِي ٱلۡبُقۡعَةِ ٱلۡمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ﴾، نـداء أخـذ بنيـاط قلبه.. يقول لـه: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ﴾.

أنصـت موسـى وهـو يسـبح فـي النـور، وإذ ببدنه يقشـعر هيبـة، حين قـال له النداء: ﴿إِنِّيٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾، ﴿إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخۡلَعۡ نَعۡلَيۡكَ إِنَّكَ بِٱلۡوَادِ ٱلۡمُقَدَّسِ طُوٗى﴾، ذاب قلبـه.. خشـعت جوارحه، وشـعر أنه في عالم غيـر العالم.

انحنى عَلَيْهِ السَّلَامُ فخلع نعليه، ثم اعتدل، وبقي مأخوذًا أمام الجلال، الذي سلب مشاعره، وغيبه عن نفسه وأهله.. عن كل شيء حوله.. تماهى بأجمل لحظات حياته.. لحظات أغلا عنده من الدنيا وما فيها ومن فيها. لا يريد لها أن تنقطع أو تتوقف. لحظات تحترق قلوب المؤمنين شوقًا لمثلها، حين يناديهم الرحمن في الجنة، ويكلمهم في النعيم: فمن أسعد من موسى حينها، ومن أقرب منه ساعتها، والرب جل جلاله يناديه مرة أخرى، ويقول له: ﴿وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ﴾، خشعت جوارحه، وأطرق ينصت بقلبه للأوامر الصادرة من العلي الأعلى.



عد يا موسى

أنصت قلب موسى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بأذنه وقلبه وكله للعلي الأعلى سبحانه، وهو يصطفيه ويختاره، يقول له: ﴿وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ ﴿١٣﴾ إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِى وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ ﴿١٤﴾ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا تَسْعَىٰ ﴿١٥﴾ فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرْدَىٰ﴾.

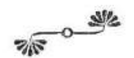
ابتداء من هذه اللحظة تحول موسى إلى رسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وإذ بالجبار سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يسأله سؤالًا هو أعلم بجوابه، فيقول: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ﴾؟ سؤال نقل موسى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من عالم الدهشة والذهول، إلى الواقع الذي يجب إصلاحه بالنبوة. قال موسى: ﴿هِىَ عَصَاىَ أَتَوَكَّؤُا۟ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِى وَلِىَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ﴾، فقال سبحانه: ﴿أَلْقِهَا يَٰمُوسَىٰ﴾.

رمى موسى عصاه مباشرة، فلم تتدحرج، ولم تحدث صوتًا.. انقلب حية ضخمة، تتلوى بسرعة، وكأنها في سرعة اهتزازها نوع من الحيات، يسمى (جان). لم ينتظر موسى.. أطلق ساقيه هاربًا نحو زوجته وأطفاله، لما ﴿رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ﴾، وفجأة سمع نداء ربه: ﴿يَٰمُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّى لَا يَخَافُ لَدَىَّ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾.

طـار الخوف مـن قلبه وتوقف، فقـال له الجبـار: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ ٱلْآمِنِينَ﴾، فامتثـل وعاد إلى عالم النور بسـكينة، حتى صـار أمام الحية، التي لا تـزال تهتز، وكأنهـا تنتظره.. توقف وحـدق بها، فقال الله لـه: ﴿خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ﴾، انحنـى موسـى على الحية ثقة بربـه، ومد يده، وما إن لامسـت أصابعه طرفهـا، حتى عادت عصا فـي كفه، فأخذهـا والمعجزات تعرج بروحـه، وتزيـد إيمانـه، فقـال المولـى لـه: (﴿ٱسْلُكْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ﴾، ﴿وَٱضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ءَايَةً أُخْرَىٰ ﴿٢٢﴾ لِنُرِيَكَ مِنْ ءَايَٰتِنَا ٱلْكُبْرَى﴾، أدخـل موسـى يـده في جيبـه، وضمها إلى جنبـه، ثم أخرج كفـه، فإذا بها بيضـاء كالنور.

معجـزات وأنـوار، أذهلـت كليـم الله.. تبعتهـا معجزة سـتُطمئن فـؤاده، كلما اجتاحـه رعـب فـي المسـتقبل.. لا سـيما وهـو فـي مهمة إلـى أكبر طاغـوت في عصـره (فرعـون).. حين قال لـه الله: ﴿وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهْبِ فَذَٰنِكَ بُرْهَٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦٓ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ﴾، إذا فهـو فـي مهمـة بالغة الخطورة إلـى أكبر طاغوت في عصره (فرعون)، حيث قال سـبحانه: ﴿ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ﴾.

هنـا تغيـر خط الرحلـة، فلن يكـون الهدف هو الحـي الإسـرائيلي، ولن تكون سـفرته زيارة سـرية لبيت أمـه الحبيبة، كي تـرى أحفادها، وقبل أن ينطلق موسـى ارتبـك.. تذكر شـيئًا نغص عليه حياته، وتسـبب في غربته.



افتحوا الباب لحبيب القلب

تأهـب موسـى ﷺ لتنفيـذ أمر ربـه، لكنه تذكر شـيئًا نغص عليـه حياته، وتسـبب فـي غربته، فقـال لربـه عَزَّوَجَلَّ: ﴿رَبِّ إِنِّى قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ﴾، ثـم تذكر شـيئًا آخـر.. تذكـر الصعوبـة التي يجدهـا أحيانًا فـي النطق، فناشـد ربه

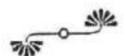
قائلًا: ﴿ وَأَخِي هَٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِيٓ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴾.

واصل موسى أدعيته وتوسلاته: ﴿رَبِّ ٱشْرَحْ لِي صَدْرِي ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِيٓ أَمْرِي ﴿٢٦﴾ وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا۟ قَوْلِي ﴿٢٨﴾ وَٱجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي ﴿٢٩﴾ هَٰرُونَ أَخِي ﴿٣٠﴾ ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِي ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكْهُ فِيٓ أَمْرِي ﴿٣٢﴾ كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ﴿٣٣﴾ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ﴿٣٤﴾ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا ﴾، فاستجاب الله له، وقال: ﴿سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَٰنًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا ۚ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَٰلِبُونَ ﴾.

ارتفعت معنويات موسى، ثم عاد من جبل الطور نحو أسرته الصغيرة، الغارقة في ظلام الليل.. سمعوا خشف نعليه وسط الظلام.. لم يروا معه شعلة، أو جذوة من النار، لكنه عاد بأنوار النبوة في قلبه وروحه وعقله، أما يده فمعجزة تحمل معجزة.. أقبل موسى بغير القلب الذي ذهب به.. ذهب رجلًا موحدًا من أولياء الله، وعاد لزوجته نبيًّا من أولي العزم من الرسل.. جلس بين يديها والسكينة تغشاه.. تأملته، وكأنها تتأمل شخصًا آخر.. ترى ما الذي جرى له؟ ما الأمر الذي غيره حول النار؟

لاحظ تساؤلاتها القلقة، فأخبرها بما جرى بين النار والنور، فاقشعر بدنها، وارتجف قلبها، ورفت روحها لعظمة ما سمعته.. تحولت من زوجة الأجير الإسرائيلي القوي الأمين، إلى زوجة كليم الله ونبيه ﷺ.. نهضت الأسرة الصغيرة، واستأنفت رحلتها عبر الأودية والشعاب وبين الجبال، حتى أقبلت على مصر.. سلك كليم الله طرقات وممرات ملونة بالذكريات، تؤدي إلى بيت عمران في الحي الإسرائيلي.. وقف أمام بيت أمه القديم فاستأذن، فسرى صوته الحبيب، فأطرب قلب أمه، فتلاشت عنها غيمة الحزن، التي كدرته عشرة أعوام من الوجد والفراق.

افتحوا الباب لقرة العين.. فاضت العيون للقاء حبيب القلب، الذي لا يكف عن إبكاء قلبها، منذ أن غفا في التابوت.. لمعت عينا الزوجة، وهي ترى الحفاوة والحب والعناق حولها.. قدمت لعائلتها الجديدة أحفادهم، الذين لم يتجاوزوا العاشرة.. جلس موسى وأسرته بين والديه، وكأنه يعوضهما عن سنوات الغربة، ثم أخذ شقيقه هارون، وتوجها نحو القصر.



موسى والذكريات

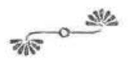
جلس موسى صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأسرته بين والديه، وكأنه يعوضهما عن سنوات الغربة، أخبرهما بنبوته ومسؤولياته، والتقى بأخيه وصديق طفولته هارون الفصيح الحبيب.. فتعانق النبيان الأخوان، وتفاهما حول التوجه للفراعنة والأقباط الوثنيين، لانتشالهم من وحل الوثنية، وعبادة البشر، والظلم. إلى عبادة رب البشر وخالقهم، ومالك الملك، الذي ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾، وقبل أن ينطلقا ليقولا لفرعون: أنت مجرد بشر، تأكل وتشرب، وتنام وتذهب لدورات المياه مثلهم، وتمرض مثلهم، وستموت يومًا مثلهم.. نزل الوحي يطالبهما باللطف واللين مع طاغية، ينحر المواليد، ويقول لشعبه ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾.

قال سبحانه لهما: ﴿ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾. تساءل النبيان عن جدوى اللين مع طاغية، بلغت قسوته حدًّا لا يطاق، فقالا: ﴿رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ أَوْ أَن يَطْغَىٰ﴾، فقد تحجر قلب هذا الطاغية الوثني، حتى صار يتلذذ بحز رؤوس المواليد وقطعها، ومع ذلك نزل الوحي ينيرهما: أن للملوك خطابًا ليس لغيرهم.. خطاب يفترض أن يحفظ لهم مكانتهم ومركزهم وألقابهم وهيبتهم.. خطاب يقوي دولتهم بالعدل والتوحيد، مع جرعة وعي، تذكرهم بكرم الله ونعمته، الذي فضلهم على غيرهم، ومكنهم

مـن رقـاب عبـاده.. خطاب يذكرهـم بقـدرة الله عليهـم، وأن أنفاسـهم وعقولهم وحواسـهم وأرواحهم بيده سـبحانه.

انتشـر خبـر وصول موسـى ونبوته فـي الحي الإسـرائيلي، فبدأ الإسـرائيليون الاحتفـالات، وتبـادل التهانـي فرحًـا بظهـور النبـي المنتظـر، الـذي سـينقذهم الله بـه مـن بطـش فرعون، فقـد أصبـح ظلمه لا يطـاق، وما مـن فرج سـوى فرج الله.. تداعـوا نحـو بيـت عمـران، علهم يحظـون بلقاء موسـى، ورؤيته بعـد غيبته الطويلـة، بينمـا كان موسـى بصحبـة أخيـه يغـادران الحـي.. مشـيا بين جـدران، طالمـا رددت نـواح الأمهـات، وصرخـات الرضـع، وتلونت بدمائهم، لا لشـيء سـوى أن أهلهـم يقولـون: لا إله إلا الله. وحده لا شـريك لـه، فالتوحيد يثير جنون فرعـون، وحاشـيته القبطيـة الوثنية.

تجـاوز النبيـان الحـي الحزيـن، وبعـد مسـافة أقبلا علـى القصـر الفرعونـي البـاذخ؛ لتشـرق علـى موسـى ذكريـات حميمـة.. هنـا كان يلهـو ويلعـب تحت ناظـري آسـية الحبيبـة ودلالهـا.. تـرى أيـن هـي الآن.. هـل اشـتاقت إليـه، كما اشـتاق لهـا؟ هـل سـيتغير قلبهـا إن سـمعت خطابـه اليوم؟



من ربكما يا موسى؟

تسـاءل شـوق موسـى ﷺ: تـرى أين آسـية الحبيبـة.. هل اشـتاقت إليه كما اشـتاق لها؟ هل سـيتغير قلبها إن سـمعت خطابه اليوم، أم أن حبه سـيزداد في قلبهـا الحنـون؟ واصل الأخوان سـيرهما، حتـى أوقفهما الجنـود، الذين تحيروا ما يقولـون، بعـد أن عرفهـم موسـى بنفسـه: هـل سـيدخلونه بصفتـه فتـى القصر المدلـل، أم سـيقبضون عليه، لأنه المطلـوب الأول للأقباط الوثنييـن.. تحيروا.. مـاذا سـيقولون لفرعـون. توجـه الحرسـي لرئيسـه، وأخبـره بالغائـب الـذي عاد. فأسـرع نحو فرعـون الذي أمـر بإدخاله.

دخل موسى وهارون، وأقبلا على فرعون، الذي رمقهما بنظرات حادة، تحمل مشاعر متناقضة.. عتاب أم شوق أم غضب. وقفا محاطين بحرس شرس، ليبدأ موسى وهارون بكلمات لينة، عل فرعون يفتح عقله لحوار متعقل، ثم قالا: ﴿إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ ۖ قَدْ جِئْنَٰكَ بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكَ ۖ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ﴾.

نظر فرعون إلى موسى بفوقية ومنة، قائلًا: ﴿أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴿١٨﴾ وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ٱلَّتِى فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾.

لم يجحد موسى سكنه في القصر، وعناية زوجته به في طفولته، لكن فرعون نسي أنه هو السبب، وأن موسى ألقي في النهر خوفًا من مجازره المرعبة، أما تربيته في قصره، فمعجزة تدل على قدرة الله على جعله يعتني بالطفل، الذي أمر جنده بالبحث عنه وذبحه.

لم ينكر موسى أيضًا ما ارتكبه بحق القبطي.. اعترف بخطئه مباشرة، فالمكابرة ليست من صفات الأنبياء ولا الأولياء.. هي من صفات فرعون وأمثاله.. اعترف موسى، وقال: أجل ﴿فَعَلْتُهَآ إِذًا وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٢٠﴾ فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِى رَبِّى حُكْمًا وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾.

انتفض فرعون غضبًا، وانتفخ غرورًا: ما هذه الكلمة التي ترددها: ربي؟ هل لك رب غيري؟ صاح في وجه موسى قائلًا: ﴿وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾؟! فقال موسى: ﴿رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾، فقال الطاغية: ﴿فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ﴾، فقال بكل ثقة: ﴿رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾، ثم تلطف موسى به وتحنن إليه تحنن الولد لوالده، وقال: ﴿هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ﴾، تلفت فرعون والغرور يملأ جمجمته الفارغة.. نظر لحاشيته فقال: ﴿لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ أَلَا تَسْتَمِعُونَ﴾؟ ودون أن تنطق الحاشية بأي كلمة، فتحوا أفواههم، واتسعت أعينهم من شدة الخوف.

لغة العقل والدليل

خاطب موسى صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حاشية فرعون، وهو يدعوهم إلى عبادة الله، خالق السماوات والأرض، وخالقهم، وقال: ﴿رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾، سكتت الحاشية، فصاح بهم فرعون: ﴿إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾، تحولت الحاشية إلى تلاميذ، بين نبي يحاور ويحرر العقل، وطاغية يملي، فواصل صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تفعيل عقولهم، وقال: ﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾.

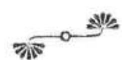
خاف فرعون من حجج موسى الدامغة، فقابلها بالصياح والتهديد، قائلًا: ﴿لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَـٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ﴾، طلب موسى من فرعون التخلي عن لغة الصراخ والهياط، قائلًا: ﴿أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَىْءٍ مُّبِينٍ﴾؟ أحرج فرعون أمام أتباعه.. حاصره العقل، فاضطر أن يقول: ﴿فَأْتِ بِهِۦٓ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ﴾، هنا سكت موسى.. لم ينطق بحرف.. كانت العيون شاخصة نحوه.. منهم من ظن أنه سيخرج ليأتي بالدليل، ومنهم من ظن أنه سيواصل مرافعته المفحمة.. أما موسى فكل الذي فعله هو أنه: ﴿فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ﴾.

دب الرعب في القصر، وأصيب فرعون بالهلع من ضخامتها، أما الحاشية، فتغيرت طريقة جلوسهم، وكأنهم يتأهبون للفرار، وترك فرعون لمصيره. في أثناء ذلك اللغط أدخل موسى يده في جيبه، ﴿وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّـٰظِرِينَ﴾، رفعها فإذا هي كالبدر.. شخصت أبصار الوثنيين، وتحيرت عقولهم، وقلوبهم وأبصارهم تتقلب بين النور والحية.

لم تهاجم الحية أحدًا، فظن فرعون أن موسى يستخدم نوعًا من السحر، فالتفت نحو مستشاريه، و﴿قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ إِنَّ هَـٰذَا لَسَـٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾، كانت مصر آنذاك تعج بالسحرة.. كانوا جزءًا من الثقافة الفرعونية والقبطية الوثنية، وبعد تشاور بين الحاشية، اقتربوا من فرعون، واقترحوا أن يؤجل الرد على موسى، حتى يتمكن من إحضار

ببرع السحرة، قائلين: ﴿أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَٱبْعَثْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٣٦﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ﴾، وافق فرعون، وعاد المستشارون إلى مقاعدهم، وعاد فرعون للتهديد، قائلًا لموسى: ﴿أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٥٧﴾ فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِۦ فَٱجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَّا نُخْلِفُهُۥ نَحْنُ وَلَآ أَنتَ مَكَانًا سُوًى﴾.

وافق موسى، بل طلب أن يكون يوم التحدي يوم العيد؛ ليتمكن أكبر عدد من الشعب من الحضور. ثم خرج النبيان نحو الحي الإسرائيلي الذي كان يتحرق شوقا لمعرفة ما جرى بينه وبين فرعون.



التوحيد يعود للحي الإسرائيلي

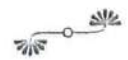
طلب موسى صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يكون موعد التحدي مع السحرة الوثنيين صباح يوم العيد، وقال: ﴿مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى﴾، ليتمكن أكبر عدد من الشعب من الحضور. ثم خرج هو وهارون نحو بني إسرائيل، الذين كانوا يتحرقون شوقًا لمعرفة ما جرى بينهم وبين فرعون، ونزل أمر الله بجعل بعض البيوت الإسرائيلية مساجد، حيث نزل الوحي ﴿إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَٱجْعَلُوا۟ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

بدأ النبيان بتنفيذ الأمر، لكنهما صدما بهول التغير، الذي طرأ على توحيد الإسرائيليين بفعل القمع الوثني، ﴿فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ ۚ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾، فقد أصبح التوحيد في عهد فرعون تهمة، مما جعل الكثير من بني إسرائيل يتلوث بالبدع، لذا كانت مهمة موسى شاقة في اقتلاع تلك الخرافات من النفوس، التي غرستها الثقافة الفرعونية الوثنية بالقوة.

أما خارج الحي، فصدر الأمر الفرعوني بدعوة أعظم وأشهر السحرة في البلاد، فركب الجند والرسل خيلهم وجمالهم، وانطلقوا مسرعين نحو القرى والمدن وحتى البوادي.. يمشطون مصر بحثًا عن أي ساحر أو ساحرة، حتى تمكنوا من جمع أكبر قدر من الدجالين، الذين طارت قلوبهم فرحًا بتلبية دعوة فرعون.. تواصلوا مع شياطينهم، وأحضروا رقاهم ورقعهم، وركبوا دوابهم، وتداعوا نحو مصر، ولما وصلوا تمت استضافتهم في أماكن، أعدها الفراعنة لهم، وتم إخبارهم أن سحر موسى يتلخص في أمرين: أنه يحمل عصا تنقلب إلى حية، ويجعل يده بيضاء كالقمر.

هون السحرة من الأمر، فهي خدع قديمة بالنسبة لهم، لذا كانوا متحمسين للمشاركة طمعًا في جوائز الفرعون، وخوفًا من بطشه. تم الإعلان في الأسواق والطرقات والميادين: أن يوم العيد هذا العام سيكون مختلفًا، فستجري فيه مباراة للتحدي بين السحرة وموسى ﷺ.

مرت الأيام واقترب يوم العيد، فازدادت الإشاعات والإثارة في البلاد، بينما كان موسى وهارون منخرطين في إزالة ما علق بتوحيد قبائلهم الإسرائيلية، ثم جاء يوم العيد، فبدأ المنظمون إعداد الساحة مبكرًا، وفي ساعة الضحى حضر الفرعون وحاشيته والسحرة، واكتظ المكان بالمتفرجين.. هنا نظر السحرة لفرعون، فاشترطوا شرطًا قبل بدء التحدي.



السحرة يشترطون

انتهى المنظمون من تهيئة المكان: هنا سيجلس فرعون، وهنا كبار الشخصيات، وعلى رأسهم وزير اسمه (هامان)، الذي يبدو أنه المسؤول الأول عن البناء. هنا سيصطف السحرة، وهنا مكان موسى، والباقي للمتفرجين.. تم

نشر الحرس في الصباح، وتوزيعهم لضبط الأمن، وبدأ الفضوليون الحضور مبكرًا، ليضمنوا مواقع مميزة للمشاهدة.

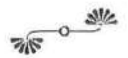
اقتربت ساعة الضحى، فحضر كبار الشخصيات، وتداعت آلاف الخطوات، وحضر أناس من بني إسرائيل لمؤازرة موسى ولو معنويًّا. بدأ الهمس يرتفع.. والحماس يرتفع، وتعالى ضجيج الوثنيين كالعادة. أقبل السحرة بملابسهم الغريبة، وحبالهم وعصيهم، وهمهماتهم الأغرب، فتعالى التشجيع لرفع معنوياتهم، وتهادى موسى وهارون، فانطلقت صيحات الاستهجان الوثنية، وانطلقت دعوات الإسرائيليين الموحدين بينهم وبين أنفسهم: أن ينصر الله رسله. وأخيرًا أقبل موكب الطاغية، نحو مكان الاحتفال.

أقبل فرعون بملابسه الفاخرة وحليه الذهبية، فارتفعت هتافات التمجيد والتطبيل والتأليه، ثم توجه نحو عرشه؛ ليجلس منتفخًا كطاووس، فسجد السحرة له بذُلٍّ، ثم رفعوا رؤوسهم، وطلبوا منه الإذن بالكلام، قبل بدء العرض، فسمح لهم، فقدموا شرطًا على شكل التماس، وهو أن يمنحهم الهبات إن انتصروا، قائلين: ﴿إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ﴾، فأحب الطاغية أن يشحذ هممهم، ويرفع معنوياتهم بالمال، وأكثر من المال، فقال: ﴿نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ﴾، ستكونون من الحاشية ورجالات البلاط.. المهم أن تهزموا موسى، وتثبتوا أنه مجرد ساحر مشعوذ.

تحمس السحرة، ولاحت المناصب والثراء في مخيلتهم، فاصطفوا يحملون حبالًا وعصيًّا وأخشابًا، وكأنهم سيخوضون شجارًا. اصطفوا في مقابل موسى، وموسى صامت أمام هذا الحشد الفارغ.

هتف صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بهم لا ليخوفهم بما معه، بل ليخوفهم بالجبار سبحانه، وقال: ﴿وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ ٱفْتَرَىٰ﴾، فهم يعرفون أنفسهم، وأنهم مجرد دجالين.

تضعضـع بعضهـم، هنا شـعر البعـض بالقلـق، وطالبـوا بالتحلق للتشـاور في المضـي والإقـدام، أو الانسـحاب قبـل الفضيحـة. دنـت رؤوس الخرافـة مـن بعضها، وشـكلوا حلقة تتهامس وتتنازع، ﴿فَتَنَٰزَعُوٓاْ أَمۡرَهُم بَيۡنَهُمۡ وَأَسَرُّواْ ٱلنَّجۡوَىٰ﴾، وبعـد أن ثرثـروا فقـرروا التحدي.. رفعـوا رؤوسـهم، وهتفوا بموسـى متحدين.



موسى يمنح السحرة تقاعدًا مبكرًا

دنـت رؤوس الخرافة من بعضهـا، بعد أن اهتزت معنويات البعض، وشـكلوا حلقـة تتهامـس، فطالبـوا بعضهـم بالثبات. فموسـى مثلهـم سـاحر، يريد خطف الأضـواء عنهم، والشـهرة، والاسـتئثار بالمـال، و﴿قَالُوٓاْ إِنۡ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ يُرِيدَانِ أَن يُخۡرِجَاكُم مِّنۡ أَرۡضِكُم بِسِحۡرِهِمَا وَيَذۡهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلۡمُثۡلَىٰ ﴿٦٣﴾ فَأَجۡمِعُواْ كَيۡدَكُمۡ ثُمَّ ٱئۡتُواْ صَفّٗاۚ وَقَدۡ أَفۡلَحَ ٱلۡيَوۡمَ مَنِ ٱسۡتَعۡلَىٰ﴾.

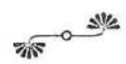
استعاد السحرة معنوياتهم، وصاحوا بموسى المتكىء على عصاه المتواضعة، قائلين: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلۡقِيَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحۡنُ ٱلۡمُلۡقِينَ﴾.

لـم يكـن عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ في عجلـة من أمره، لذا هتف بهم قائـلًا: ﴿أَلۡقُواْ مَآ أَنتُم مُّلۡقُونَ﴾، فتحفـزوا، وزمزموا بتعاويذهم، وكانـت آخر تعويذاتهم هي ﴿بِعِزَّةِ فِرۡعَوۡنَ إِنَّا لَنَحۡنُ ٱلۡغَٰلِبُونَ﴾، ﴿فَلَمَّآ أَلۡقَوۡاْ سَحَرُوٓاْ أَعۡيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسۡتَرۡهَبُوهُمۡ وَجَآءُو بِسِحۡرٍ عَظِيمٖ﴾، انطلقت على تلك المشاهد تأوهات الجمهور، وأصيبوا بالدهشة، وتطاولت الرؤوس؛ لتتمكن من الرؤية.. أخافتهم أشياء غريبة تزحف وتتحرك، بل أخافت موسى الذي ﴿يُخَيَّلُ إِلَيۡهِ مِن سِحۡرِهِمۡ أَنَّهَا تَسۡعَىٰ ﴿٦٦﴾ فَأَوۡجَسَ فِي نَفۡسِهِۦ خِيفَةٗ مُّوسَىٰ﴾، فـإذ بالوحي ينتشـل موسـى ممـا هو فيه.. ينتشـله من أجواء الدجـل والضجيج، ويقـول له: ﴿لَا تَخَفۡ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡأَعۡلَىٰ ﴿٦٨﴾ وَأَلۡقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلۡقَفۡ مَا صَنَعُوٓاْ﴾.

رفع موسى عصاه، فانحبست الأنفاس، ثم خاطب السحرة: ﴿مَا جِئۡتُم بِهِ ٱلسِّحۡرُۖ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبۡطِلُهُۥٓۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصۡلِحُ عَمَلَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾، ألقى الكليم عصاه وسط تلك النفايات، وما إن لامست الأرض، حتى انقلبت حية ضخمة فاغرة فاها.

تراجع السحرة.. أصيبوا بالفزع، وهم يرون أنيابًا كالخناجر، وتضعضع فرعون، وقبض على عرشه، وهو يراها تتلوى، وتلتف بين نفايات السحرة، وإذ بها تبتلعها واحدة تلو الأخرى، حتى أتت عليها كلها، ونظفت الساحة، ثم ظلت تهتز، ولها فحيح مرعب.. ترفع رأسها.. تتلفت كأنها تتصفح وجوه السحرة، الذين قتلهم الخوف.. كأنها تقول لهم: هل من مزيد؟

هنا أيقنوا، وهم المحترفون للسحر: أن ما فعلته عصا موسى لا يمت للسحر بصلة، فليس هنا أسحر، ولا أعلم بالسحر منهم، حتى شياطين الجن، الذين يلوذون بهم، ويتمتمون بأسمائهم هربوا، وولوا في حضور الوحي. أيقنوا أنهم أمام نبي.. أمام معجزات فوق مستوى الإنس والجن، لذا لم يطالبوا بجولة ثانية، ولم يماطلوا، أو يكابروا.. خروا لله الواحد الأحد سجدًا أمام فرعون، الذي فقد صوابه، وقرر البطش بهم.



ساحة احتفالات أم ساحة للإعدامات

خر السحرة لرب السماوات والأرض، و﴿قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ﴾، تعالى صراخ الحشود، واستنارت وجوه الإسرائيليين، وهم يغالبون حماسهم، فقفز فرعون من على عرشه غاضبًا، يزبد ويرعد، ويهدد ويصرخ بالسحرة: ﴿ءَامَنتُمۡ لَهُۥ قَبۡلَ أَنۡ ءَاذَنَ لَكُمۡ﴾، فالإيمان عند فرعون لا علاقة له بالاقتناع.. هو يعد إيمان شعبه ضمن ممتلكاته.. يشكله حسب مزاجه، لذا لجأ للتهمة المعلبة هناك (مؤامرة) من تخطيط الكاهن الأكبر موسى قائلًا: ﴿إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِي

عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ﴾، والهدف من المؤامرة غسل أدمغة الشعب، ليكونوا أتباعًا لكم: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِى ٱلْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا۟ مِنْهَآ أَهْلَهَا ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾، ودون محاكمة أو حتى تحقيق أو أدلة، فهو القاضي، وهو الأدلة، صاح فرعون: ﴿فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ﴾، لم يدرك هذا المغرور أنه قد فات الأوان.. لم يعد تهديده ووعيده، وحتى عطاياه تساوي عند المؤمنين شيئًا.. كل ما يتعلق به تلاشى، ابتلعته الحية.. حتى ألوهيته ابتلعتها.. حتى الحية اختفت.. عادت عصا في كف موسى.

قارن السحرة ما عند ربهم بما لدى فرعون، فردوا ثقة بربهم: ﴿لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا ۖ فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ ﴿٧٢﴾ إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ ۗ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾، رفت قلوبهم شوقًا لربهم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وكأن فرعون يبشرهم بموعد رحلتهم، التي لا يريدون التأخر عنها، و﴿قَالُوٓا۟ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتْنَا﴾، ولذا لم يلتمسوا عفوه.. تجاهلوه، وتوجهوا نحو خالقهم وحبيبهم سبحانه: ﴿رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾،

طار تهديد الطاغية وصوابه، وحول ساحة الاحتفال إلى ساحة إعدامات دامية.. طوقهم الجزارون بوحشية، وسحبوهم بعنف أمام أعين الإسرائيليين الباكية، التي طالما رأت أولئك الجلاوزة يحزون رقاب صغارهم.. سُلت السيوف، وجُر المؤمنون الجدد واحدًا تلو الآخر.. يمدون اليد اليمنى للمؤمن، فيرفع الجلاد سيفه، ثم يهوي به، فإذا اليد تطير، ويطش دمها شلالًا، ثم يمدون رجله اليسرى، ثم يهوي السيف فيقطعها، وينفجر الدم مجددًا. تطايرت أيديهم وأرجلهم، وكأنها تسبقهم إلى الجنة، وتحولت الساحة إلى بركة دم. ومع ذلك لم ينته المشهد.



كل من في القصر مضطرب إلا واحدًا

لم يكتف جند فرعون الوثنيون بقطع أيدي وأرجل الموحدين الجدد.. بدؤوا يجرونهم ودماؤهم تشخب على الأرض، ثم يرفعونهم، ويصلبونهم على جذوع النخل، وهم يناجون ربهم، ويحتفلون بالشهادة.. نزفوا ونزفوا حتى اصفرت ألوانهم، وفاضت أرواحهم، ففاضت عيون المؤمنين، وذاب قلب موسى ﷺ كمدًا، فرفع دعوة مظلوم حرى من أعماق قلبه، وقال: ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِكَ ۖ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾.

فإذ بالقاهر الجبار يبشره، ويبشر أخاه هارون، ويقول: ﴿قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَٱسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

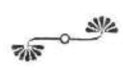
مالت الشمس للغروب، بعد أن ارتوت نخيل مصر من دماء الشهداء.. خلت الساحة بعد يوم دامي، وانصرف المسلمون باكين، وأقفى فرعون ووزراؤه إلى القصر، لكنه أصبح منذ اليوم في حالة رعب.. يخشى الاقتراب من موسى ومن عصاه، كان هو ومستشاروه في حالة غليان مما جرى، ورغم شلالات الدماء، التي صبغت جذوع النخل، لم تنطفىء نار الحقد في نفوسهم.. القصر كله كان مضطربًا إلا شخصًا واحدًا، كان في أقصى حالات السكون والطمأنينة.. (آسية) الطيبة.. كانت هناك حين ألقى السحرة حبالهم وعصيهم.. كانت هناك حين ألقى قرة عينها عصاه، فإذا هي تبتلع كل شيء، وتخطف قلبها وعقلها.. آمنت أنه لا إله إلا رب موسى وهارون.



هو خالقها ورازقها والمنعم عليها سبحانه، أما فرعون فليس إلهًا.. هو مجرد زوج، وهي أعلم الناس بخصوصياته وأسراره، وكذبه وظلمه، وجوعه وضعفه وعطشه، ورائحته وعفنه، وقد ضاقت به، وضاقت بها الدنيا، فلم تعد

تطيـق قصـره.. لم تعد تطيق كنـوزه، ولا حليه، ولا حتى رؤيته.. تشـعر بأنها ترقد مـع وثن، يزعجها شـخيره، وتزكمها أنفاسـه.

لـذا لجـأت لربها، وناجته مـن أعماق قلبهـا، وقالـت: ﴿رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، فقـد شـاهدت زوجهـا الطاغـوت حين عاد محبطًا منكسـرًا.. تتأمـل جبنه وخوفـه، من أن يمس شـعرة مـن رأس موسـى، لأنـه يشـعر أن نهايتـه أقـرب مـن ذلـك، لـذا طلب من مستشـاريه الرأي بعد إيمان السـحرة بالله سـبحانه، فخوفوه علـى ملكه، وصوروا لـه الحق باطلًا، والإصلاح إفسـادًا، قائليـن: ﴿أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ﴾.



تفعيل قانون التطهير العرقي

أنصـت الطاغيـة باهتمـام لبطانـة السـوء، حيـن أشـاروا قائليـن: ﴿أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ﴾، لكنـه تجاهـل المسـاس بموسـى، لأنـه لا طاقة له به، واكتفى بالبطش بالإسـرائيليين المسـلمين. أصـدر أمرًا بإعادة تفعيـل قانـون التطهيـر العرقـي والديني، وبشـكل أكثر وحشـية، فقال: ﴿سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ﴾.

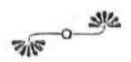
انطلـق الجنـد مجـددًا يمشـطون الحـي الإسـرائيلي.. ينشـرون الرعـب فـي طرقاتـه وممراته، فحُطمت الأبواب، وسـالت دماء الصغار، فتوجه الإسـرائيليون إلـى بيت موسـى، يحملون الأطفـال والرضـع.. يحاصرونـه بالبـكاء والعويل.. يطالبونـه بالتحـرك، لإيقـاف المجـاز، التـي أمسـت أفظـع مـن الماضـي.. خرج موسـى إليهـم، وخاطبهـم بالصبـر، وقـال لهـم: ﴿ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾.

لكن هذا الكلام لم يعجب الكثيرين منهم، فقالوا متذمرين: ﴿أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا﴾ فطمأنهم، وقال: ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾، ولم يكتف صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالدعاء، بل توجه مباشرة للقصر، أقبل عليه فدخله بكل ثقة وسط فزع الجند والحاشية والوزراء.. لم يعد أحد يجرؤ على منعه، أو حتى إبقائه ينتظر على الباب.

دخل دون يأس، وخاطب الطاغية باللين مجددًا، ففرعون يظل واحدًا من البشر، والبشر يتغيرون.. قناعتهم تتغير، مواقفهم تتبدل، إلا المعاندين، الذين تحركهم الأهواء والأحقاد والغرائز. نصحه موسى بالرجوع عن الوثنية والظلم، فازداد الطاغية صلفًا، بل أصدر أمرًا على سبيل السخرية، قائلًا لوزيره (هامان): ﴿فَأَوْقِدْ لِى يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾.

كان فرعون في عبثيته تلك، يدرك أن هامان لا يستطيع أن يبني مثل هذا البناء، إلا بعد أن تزول أجيال.. كان يروغ عن الإجابة بشكل مضحك، فيقول: ﴿يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾، هذا دليل على أني إله، ثم يسخر من لكنة موسى، قائلًا: ﴿أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾، ثم يطالب موسى بملائكة تمشي معه، وتلقى عليه أساور من ذهب، قائلًا: ﴿فَلَوْلَآ أُلْقِىَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ﴾، تحجج ومناكفة وعناد، فالمعاند لا يهدف للوصول للحقيقة.. هدفه إسكات محاوره فقط.

لذا فقد انتهى وقت اللين. فليستعد للأسوأ.



الآيات لا تجدي مع المعاند

استنفد موسى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كل أساليب الإقناع واللين مع فرعون، فالأسلوب الذي يفهمه هذا الوثني وأمثاله هو القوة، لذا طلب موسى أن يكف عن التعذيب، ويوقف المجازر، وأن يطلق سراح قومه، وإلا فسوف يرى ما لا طاقة له به.

صمت فرعون خوفًا، لكن جلاوزته استمروا بمجازرهم.. تمادوا في القتل والبطش، وإذ ببوادر العقوبات تلوح في الأفق، ويلوح معها السحاب فلا يمطر.. حتى حلت بمصر سنوات قحط، كالتي حلت أيام يوسف.. جفت المراعي، وماتت المواشي، وقلت الثمار في الأسواق، وضعف الاقتصاد، فبدأ الوثنيون بالتشاؤم من موسى والموحدين، ﴿فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ قَالُوا۟ لَنَا هَٰذِهِۦ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا۟ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ ۗ أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

ازداد القحط، فخف الظلم والاضطهاد على الإسرائيليين، فبدأت الحياة تعود مجددًا، والاقتصاد ينتعش شيئًا فشيئًا، لكن الإسرائيليين ظلوا ممنوعين من السفر للديار المقدسة في الشام، بل عاود فرعون بطشه بهم، فخوفه موسى بعقوبة أخرى من جبار السماوات والأرض، لكنه تمادى في سكرة التعافي الاقتصادي، وفجأة اجتاح الديار طوفان، أغرق المزارع، فأتلفها، وهدم الكثير من الدور، وأغرق الكثيرين، وأصبحت البلاد في حال يرثى لها، فانشغل فرعون وجنده بأوضاعهم المأساوية عن اضطهاد بني إسرائيل، وبعد زوال الطوفان عاد القمع، فعاد موسى للتحذير، لكن فرعون لم يتراجع.

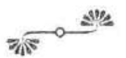
ذات يوم أصبحت السماء غير السماء.. غيمة سوداء هائلة، تسد الأفق، تقبل من بعيد، فيتحول النهار إلى ليل... لم تمطر تلك الغيمة السوداء كالعادة.. فعلت شيئًا مخيفًا.. إنها تهبط على المزارع، تظل على الأرض مدة ثم تقلع،

فإذا المزارع جرداء.. إنها أسراب مهولة من الجراد، أفنت المحاصيل أمام صيحات الفلاحين وعويلهم، وعجز فرعون عن فعل شيء، أقلعت الأسراب المحاربة، تاركة بؤسًا وعويلًا.

لم يقتصر الأمر على السماء.. هناك كارثة أخرى تمتد على أرض الفراعنة.. سجادة من الموت تمتد على مد النظر.. جيش من صغار الجراد المسمى الدبى أو (الْقُمَّلَ) يزحف.. يحصد ما تبقى من زرع، ويسيل في الطرقات والأسواق والبيوت.

لم تنته الجوائح.. سرعان ما ابتلاهم الجبار بالضفادع، التي أحالت حياتهم إلى جحيم ونقيق مزعج.. لا يعرفون معه طعما للراحة، وأخيرًا (الدم): اجتاحهم وباء يسبب الرعاف أو النزيف، لا يعرفون له سببًا ولا علاجًا.

هنا شعر فرعون بتعاطف شعبه الوثني مع موسى، فقرر التخلي عن عناده، وإخلاء سبيل بني إسرائيل، وتركهم يغادرون، وبعد أن غادروا قام بعمل كالانتحار.





استسلام أم خديعة

استسلم فرعون بعد تلك الآيات، التي يقول الله عنها: ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ فَٱسْتَكْبَرُواْ وَكَانُواْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴾، لم يؤمن فرعون ولا قومه.. ظلوا على وثنيتهم، ﴿ وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ ٱلرِّجْزُ قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾، دعا موسى ربه فانزاحت العقوبات، أما في الحي الإسرائيلي فعمت الأفراح والاحتفالات، وبدؤوا بجمع حاجياتهم وأمتعتهم، استعدادًا للرحيل إلى الديار المقدسة.. وضعت الأمتعة على الرواحل، وودعت

القلـوب مصر الحبيبـة الجميلة.. مصـر النيل، مهـد الصبا، ومرتع الشـباب، التي أفسـدها الفرعون بظلمه، وشوهها ببطشـه.. تحركت القافلة الإسرائيلية مبتهجة.. متجهـة نحو المسـجد الأقصـى.. كان مشـهدًا مؤلمًا لفرعون، ليـس لأنه آمن كما وعـد، ولا لأنه شـعر بالنـدم على جرائمـه.. تألم فرعـون لشـعوره بالهزيمة، فهو لا يـزال يرى موسـى مجـرد طفل إسـرائيلي، تربى فـي قصره.. كيـف يفعل طفل بـه كل ذلـك؟! كيف اسـتطاع تحرير شـعبه رغمًا عـن أنفه؟

شـعور قاتـل، يشـل تفكيـره، جعلـه يعـود لطغيانـه، وينكـث وعده لموسـى، حيـث يقـول الجبـار سـبحانه: ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلرِّجْزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ﴾، بـدأ ذلـك النكـث حيـن أصـدر الطاغـوت فرعون أمـره لجنده بالتسـلح، وتجهيـز عربـات القتال، والاسـتعداد لملاحقة بني إسـرائيل، والقبض عليهـم، وإبادتهـم بشـكل كامل. وفـورًا بـدأ التأهب، ومـا هو إلا يـوم أو يومان، وإذا بفرعـون مزهـوًّا علـى عربته الحربيـة، يقود جيشًـا ضخمًا مدججًـا لمطاردة قافلـة موسـى المتجهة نحو سـيناء..

لـم تكـن القافلـة المؤمنة تعلم بغـدر فرعون.. كانت تسـير وتتوقـف بأريحية، ففيها الأطفال والنسـاء والشـيوخ والعجائز، وبعد أن قطعوا مسافة كبيرة، واقتربوا مـن البحر المسـمى بخليج السـويس، رأوا عجاجة ترتفع خلفهـم.. تكبر عجاجة الغبـار، وتقتـرب.. اسـتطلع بعضهم، ثم جـاء يرتجف خوفًا، فأخبر موسـى الذي صدمـه الخبـر، وفجأة توقفت قافلة موسـى رغمًـا عنها.. أوقفها السـاحل الغربي للخليـج. انتهـى الطريـق، وما مـن مفر.. البحـر أمامهـم، وصياح جيـش الطاغية المخيـف يدوي، ويدنـو خلفهم، فهل هـي النهاية؟

طوقهـم الجيـش الفرعونـي، وسـل الوثنيـون سـيوفهم، وبـدأ بـكاء النسـاء والأطفـال يرتفـع، و﴿قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ﴾.. وأيقنـوا أنهـم هالكـون بالتأكيـد.

طريق الموت الفاخر

قـام فرعون على عربتـه الحربية الفاخـرة مزهوًّا.. يحدق بموسـى وقومه على شـاطىء خليج السـويس بهم، وقـد قرر هذه المـرة أبادتهم عن بكـرة أبيهم، بينما كانـت أرجل الشـيوخ والعجائز والأطفال حائرة، قد غاصت في رمال الشـاطىء، وقلوبهـم ترتجف بين موتين.. البحر أو النحر، أما القائد موسـى ﷺ فكان لا يـدري ما يفعل، وسـط هـذا الضجيـج، واسـتغاثات شـعبه وعويلهـم.. الذين يصيحـون: ﴿إِنَّا لَمُدْرَكُونَ﴾، لكنـه كان هادئـًا هدوء إبراهيـم ﷺ حين ألقي فـي النار.. طمأن شـعبه.. حثّهـم على التماسـك، والثقة بربهـم.. كان ﷺ فـي قمـة الثقة بربـه، وكأنه يتذكـر قوله لـه ولأخيه فـي بدايات رسـالته: ﴿لَا تَخَافَآ إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾، لـذا صاح بشـعبه: ﴿كَلَّآ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾.

وإذ بالوحي ينزل عليه.. يأمره بحركة.. حركة واحدة فقط، وبعصاه المتواضعة نفسها، لا لتنقلب حية، بل لشيء أكثر هولًا: ﴿ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ﴾.

مشـى موسـى علـى رمال الشـاطىء، ومـا إن انغمسـت قدماه في المـاء، حتى رفـع عصـاه، ثـم ضـرب بهـا المـاء، وإذ بصوت مخيـف يخلـع القلوب.. انشـق البحـر.. انفلـق أمـام الكليـم إلـى نصفيـن.. مـن مضـرب العصـا إلـى السـاحل الشـرقي للخليج.

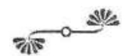


وقـف موسـى مذهولًا من قـدرة العظيم الجبار.. اهتز كيانـه إجلالًا لربه، وهو يـرى أمامـه ﴿طَرِيقًا فِي ٱلْبَحْرِ يَبَسًا﴾، ناشـفًا، لا طيـن فيـه، ولا زلـق، ولا طمـي.. طريـق واسـع، منحـدر نحـو الأعمـاق، مفتوحًا على السـماء، أمـا المـاء، فالماء تحـول إلـى جدارين عـن اليميـن وعن الشـمال هائليـن.. يتلألآن، وكلمـا توغل الطريـق فـي أعماق البحر، كلمـا ارتفعت جدران الماء لعشـرات الأمتـار.. انفلق البحـر فرقيـن ﴿فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ﴾. أيقـظ الوحـي موسـى المنبهـر..

يأمره بتدشين الطريق الأزرق الفاخر، ويقول له: ﴿فَٱضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي ٱلْبَحْرِ يَبَسًا لَّا تَخَٰفُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ﴾.

خطا موسى أولى الخطوات، فتحركت قافلة الموحدين ثقة بالله.. الدموع تسيل، والقافلة تسير، والماء يصطف كالجبال على الجانبين، حرسًا يحمي الموحدين.

عبر المستضعفون.. عبر الأطفال والنساء والشيوخ والعجائز، وهم يتلفتون منذهلين مما هم فيه، وعيونهم تفيض.. تتسع، وهي تتأمل تلك اللوحتين الجداريتين الهائلتين، تتأمل هذا السرادق الأزرق، الذي يتلألأ احتفاء بهم في اليوم العاشر من شهر محرم من تلك السنة القمرية[1].



تاريخ تدشين الطريق الفاخر

في اليوم العاشر من شهر محرم من تلك السنة القمرية.. دشن موسى ﷺ الطريق الأزرق الفاخر.. خطا أولى الخطوات عليه، فتحركت خلفه قافلة الموحدين المستضعفين.. عبر الأطفال والنساء والشيوخ والعجائز، ورؤوسهم تدور بين الجدران الزرقاء المهيبة، وقلوبهم تلهج بالشكر لربهم، وعيونهم تفيض، وهي تتأمل هذا السرادق، الذي يتلألأ احتفاء بهم.. تتابعوا حتى عبروا إلى الشاطىء المقابل.

رست القافلة على ميناء سيناء، دون أن تبتل بالماء، بينما كان فرعون أمام بوابة الممر كالتمثال من الذهول، وفجأة أيقظه حقده الذي يسافر في قلبه

(١) صحيح البخاري (٢٠٠٤) عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: قدم النبي ﷺ المدينة فرأى اليهود تصوم يوم عاشوراء، فقال: «ما هذا؟»، قالوا: هذا يوم صالح، هذا يوم نجى الله بني إسرائيل من عدوهم، فصامه موسى، قال: «فأنا أحق بموسى منكم»، فصامه، وأمر بصيامه.

كالخنجر المعقوف، وهو يحدق في قافلة سجنائه، وهي تتحرر منه.. يحبسه الخوف من مطاردتهم، فهو يدرك تفسير ما يجري أمامه، لكنه يكابر، وأخيرًا طاش حقده على عقله.. عجز عن تحمل رؤيتهم ينعمون بأمان، فأصدر أمره للجيش، باقتحام الطريق المذهل.

علا صياح الجند، وصهيل الخيل، وتحركت العربات، وسلت السيوف، فالطريق مرصوفة وفسيحة، والمسافة ليست بعيدة، وموسى وقومه لا زالوا في متناول اليد.

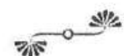
كان القلق يقتل بعض أفراد قافلة المستضعفين، وهم يحدقون بالجيش الوثني مقبلًا كالموت نحوهم، أما كليم الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فكان قائمًا على البوابة الأخرى، وأقدامه منغمسة في رمال وماء شاطيء سيناء، ممسكًا بالعصى، وكأنه يتهيأ لاستقبال فرعون وجنده.. يراقب جيش قتلة الأطفال، حتى أصبح كله وسط الطريق، وإذ به يضرب بوابة السرادق المائي بعصاه، فإذ بدويّ انفجار مروع، يفجر الآذان.

اصطك الجداران ببعضهما، فإذ بموج هائل يصطفق، يعلو في السماء.. يطوح بالعربات والجند والخيل والأسلحة والطغيان في الهواء، ثم تهوي بتلك الأشياء نحو القاع.. اضطربت أمواج البحر، وامتلأت بطون الجند بالماء.. ذاب طغيانهم وسط تأوهات وتسبيحات المتفرجين المؤمنين، ثم ساد الأجواء سكون مهيب.

سكن طوفان البحر الغاضب شيئًا فشيئًا، وكأنه يلتقط أنفاسه، ثم انقطع المشهد، واختفت البوابات، وأمحا الجيش، أما قاتل الأطفال الذي كان يقول قبل ساعات: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾، فهو الآن مجرد شيء، يرفعه الموج ويهوي، وهو بلا حول ولا قوة.

خارت قوى الإله المزيف، وأيقن بدنو أجله وهو يتنفس ماء وموتًا وندمًا.. أيقن بدنو أجله، وهو يغرغر ندمًا.. يحاول تدارك الأمر.. يقول بعد أن أدركه

الغرق، وأشرف على الموت، وهو يغرغر: ﴿ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِيٓ ءَامَنَتۡ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾، آمن برب بني إسرائيل، المسلمين الذين نحرهم، من أجل أنهم آمنوا بربهم، من أجل أنهم يقولون: لا إله إلا الله.



موسى يترك قافلته

اصطك الجداران المائيان، فدكا جيش الفراعنة، وندم فرعون حيث لا ينفع الندم.. في توقيت يقول الجبار سبحانه عنه: ﴿ءَآلۡـَٰٔنَ وَقَدۡ عَصَيۡتَ قَبۡلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾، ابتلع الطوفان قاتل الأطفال، وأذهلت المشاهد الإسرائيليين، وهم يرون قدرة ربهم، الذي أذل من أذلهم وأغرقه.. ينظر بعضهم إلى بعض، وكأنهم يقولون: من يصدق أن فرعون وجنده الوثنيين يختفون بلمح البصر؟

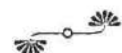
تحول البحر إلى ضريح، لكنه لم يطق جثثهم.. لفظها بعد مدة، فطفت على سطحه، ثم قذفتها الرياح على الساحلين.. قذفت بمن كانوا يملؤون الأجواء رعبًا.. تناثرت جثث من قطعوا أيدي التائبين وأرجلهم، وصلبوهم في جذوع النخل. تناثرت، فانطلق بعض الإسرائيليين نحوها، يسلبونها.. يخلعون حليها وأساورها الثمينة، وبعد مدة غادر موسى وقومه، وانطلقوا بمحاذاة الساحل شمالًا نحو الأرض المقدسة، لكن ماذا عن بقايا دولة الوثنيين؟

وصلهم الخبر، فأرسلوا قوة نحو ساحل الفناء، فإذا بالجثث على الساحل. قلبوها.. تصفحوها، وقد غيرتها الشمس، وأخيرًا عثروا عليه: ها هو فرعون جثة متورمة.. بلا سلطة.. بلا حرس.

رفعوا جثته المتعفنة، ثم وضعوها على إحدى العربات وعادوا، ثم أخذوها إلى معمل للتحنيط، حيث يبرع الفراعنة، ليبقى جسده حتى اليوم شاهدًا وآية، يقول عنها الجبار سبحانه: ﴿فَٱلۡيَوۡمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنۡ خَلۡفَكَ ءَايَةٗ

﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ﴾، معجزة متاحة للفرجة حتى اليوم.. تشهد بصدق القرآن، وزوال الطغيان، ونبوة موسى، الذي انطلق لبيت المقدس، لكنه اكتشف في أثناء الطريق أن فرعون ما زال حيًّا بين الإسرائيليين.

حدث ذلك حين كان رجل إسرائيلي غامضٌ متأثرًا بوثنية الأقباط، يدعى (السامري)، يتعاطى السحر.. كان السامري يتابع موسى، وإذ به يشاهد جبريل، ينزل على موسى في أثناء غرق فرعون على هيئة مقاتل، كما ينزل على بعض الأنبياء في أثناء حروبهم، ويبدو أنه بعد أن افترق جبريل وموسى، دنا السامري الغامض من المكان، وانحنى على الأرض، ومد يده، وأخذ قبضة تراب من أثر الرسول، وأخفاها في ثيابه، واحتفظ بها، بينما سارت القافلة الإسرائيلية بطمأنينة، فلا خوف بعد اليوم، ولا ملاحقة، ولا عنصرية، ولا اضطهاد.. قافلة تحلم بمستقبل واعد، وآمال تمحو الآلام. بينما كان السامري يخطط لأمر، ينسف كل جهود موسى ﷺ.



إلى أين ستذهب يا موسى؟

اكتشف موسى ﷺ بعد غرق فرعون: أن بعض الإسرائيليين قد تأثروا بوثنية الأقباط، كما تأثر السامري، الذي برع في السحر الوثني في أثناء إقامته مع الفراعنة.. اكتشف ذلك على أرض سيناء، حين مروا ﴿عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ ۚ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ﴾.

صدم ﷺ بمقولتهم، وغضب منها غضبًا شديدًا، ثم اكتشف أنه لم يؤمن ﴿لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ﴾، صاح بوجوههم، و﴿قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾، وأخبرهم أن هؤلاء الوثنيين غاية في التخلف والغباء، حين يعبدون ما لا ينفع ولا يضر.

يعبـدون أشـياء هـم صنعوهـا أو نجروهـا، فقـال لهـم: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾، ثـم كشـف لهـم أي جحـود يرتكبونه بحـق خالقهم ورازقهـم، الـذي نصرهـم، وفضَّلهـم بنعم ليسـت عند غيرهـم، وأولهـا التوحيد والنبـوة، فقـال: ﴿أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾، فضلكـم بالتوحيـد، فبلا توحيـد تكونون أنتـم والعاكفـون على الأصنام سـواء.. بعـد ذلـك التنبيـه واصـل موسـى بمحـاذاة السـاحل، وبعد مسـافة شـعر بشـوق عاصـف للـوادي المقدس، فلم يطـق صبرًا.. أمـر القافلة بالتوقـف والنزول على السـاحل.

توقفـت المطايا، ونزل المسـافرون، وأنزلوا أمتعتهم، وانتشـروا في الأرض.. توجـه موسـى لأخيـه هـارون، وأخبـره بوجهتـه، وأمـره أن يخلفـه في قيـادة بني إسـرائيل، وأن يكـون حازمًـا تجـاه مـن يعبـث بالتوحيـد، أو يبتـدع فـي الديـن، أو ينشـر فسـادًا، قائـلًا: ﴿ٱخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾.

انطلـق موسـى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلـى الـوادي، وهـو يسـبح فـي نعـم تقلـه وتظلـه، فقـد خـرج من مصـر بالأمـس خائفًا، ثم شـقي فـي غربته أجيرًا لعشـر سـنوات، مقابـل لقمة عيشـه، وها هو اليوم يخـرج منها نبيًّـا وقائدًا منتصرًا علـى الطاغوت وجنـده.. سـار وسـار، ولمـا اقترب مـن الوادي، خفـق قلبه شـوقًا، ولمـا أصبح علـى مشـارف الوادي، تهـادى نحوه، وقد غشـيه إجـلال لربه، ولمـا وصل خلع نعليـه ثـم مشـى خطـوات ثم توقـف حيث توقـف تلـك الليلة، فـإذ بنـداء الجبار سـبحانه يجتاح مشـاعره وحواسـه. الجبار العظيـم جَلَّ جَلَالُهُ يكلمه؛ لتتلاشـى الدنيا بأسـرها، ويشـعر بشـغف لا يطيقه.. عجز عن كتمانه، أو السـكوت عنه.. شـغف موسـى بأكثـر مـن الـكلام مـع الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.. ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾، ﴿ٱلْحَيُّ ٱلْقَيُّومُ﴾، طمـع موسـى برؤية جبار السـماوات والأرض، وقـال: ﴿رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ﴾، فـإذ بموسـى يصاب بشـيء يعجـزه، حتى عـن رؤيـة ما حوله.

الوثنية بين الإسرائيليين مجددًا

خلع موسى ﷺ نعليه، وخلع معها الدنيا بأسرها، فمن أسعد منه، والجبار سبحانه سيكلمه.. دنا من البقعة المباركة، في الوادي المقدس، فأخذته رهبة المكان، وإجلال الخالق الذي ناداه، فقال: ﴿وَمَآ أَعۡجَلَكَ عَن قَوۡمِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٨٣﴾ قَالَ هُمۡ أُوْلَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِي وَعَجِلۡتُ إِلَيۡكَ رَبِّ لِتَرۡضَىٰ﴾، وإذ بالجبار جَلَّجَلَالُهُ يخبره بأمر جلل، حدث بعد مغادرته للمعسكر الإسرائيلي، قائلًا: ﴿فَإِنَّا قَدۡ فَتَنَّا قَوۡمَكَ مِنۢ بَعۡدِكَ وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِيُّ﴾.

صعق موسى للخبر، ثم هدأ حين أنزل الله عليه مقدمة التوراة.. كلامًا مكتوبًا على لوحين من الصخر، ابتدأ بتوحيد الله سبحانه، ونفي أي شريك معه.. ظل موسى في الوادي المقدس أربعين يومًا، في حال لا مثيل لها: ذكر لله وخلوة وصفاء للروح.. تحلق روحه في أنوار، يعجز عن وصفها، ويشعر بحب يزداد مع كل كلمة يلهج بها، فيشعر بعطش للمزيد من هذا الشوق والحب، ويحاول أن يرتوي فيزداد عطشًا، فيرف قلبه للمزيد.. يرف قلبه لأبعد من الصوت والحرف.. يتحرق شوقًا لرؤية الحبيب سبحانه، فيعجز عن كبت مشاعره، ويقول: ﴿رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَۚ﴾.

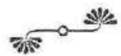
فإذ بالإجابة نور لا يطيقه موسى ولا غيره.. حتى الجبال الصم الرواسي لا تطيقه، فلا عقل موسى ولا جسده ولا قلبه ولا كل حواسه قادرة على تحمل رؤية الجبار المتعال، الذي قال له: ﴿لَن تَرَىٰنِي وَلَٰكِنِ ٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡجَبَلِ فَإِنِ ٱسۡتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوۡفَ تَرَىٰنِيۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلۡجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكّٗا﴾.

التفت موسى نحو جبل هائل، كان طودًا شامخًا قبل قليل، فلم يجده.. تلاشى.. تبخر حين رفعت الحجب، فكيف لإنسان من لحم ودم أن يصمد. ﴿وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقٗا﴾، من هول ما رأى.. أغمي عليه رهبة وحبًّا وإجلالا وهيبة..

مشاعر أكبر من أن يتحملها، أو أن يصفها، ﴿فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبۡحَٰنَكَ تُبۡتُ إِلَيۡكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾.

تاب موسى من هذا الطلب، فلن يراه أحد في الدنيا، حتى محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، حين سئل: هل رأى ربه؟ قال: «**نور أنَّى أراه**»[1]، فالرؤية هناك في الجنة، حين يعاد خلق الإنس خلقًا آخر أرقى وأعظم.. خلق قابل لرؤية الجبار.. خلق عظيم قابل للخلود، بلا أمراض، أو آفات، أو أحزان، أو تغير إلا إلى الأحسن، وحين يرى أهل الجنة حبيبهم سبحانه تذهلهم رؤيته وجلاله وجماله، عما هم فيه من نعيم.

أفاق موسى صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو أكثر إيمانًا وإجلالًا لربه، ثم نهض وأخذ ألواح التوراة، وغادر الوادي المقدس، ليعالج الوثنية التي أغوت المعسكر الإسرائيلي.



المعسكر الإسرائيلي فوضى ووثنية

عاد موسى صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من الوادي المقدس بعد أربعين يومًا، قال الله سبحانه عنها: ﴿وَوَٰعَدۡنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيۡلَةٗ وَأَتۡمَمۡنَٰهَا بِعَشۡرٖ﴾، وهي أيام لا علاقة لها بشهر ذي القعدة، ولا بعشر ذي الحجة، لأنها جاءت بعد محرم، فالله قد أنقذ موسى صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأغرق فرعون في العاشر من محرم من ذلك العام، فلا يمكن للتاريخ أن يرجع.

عاد موسى ممتلئًا بالإيمان، لكن ما جرى داخل المعسكر الإسرائيلي أجج غضبه، فنضاله ونضال الأنبياء قبله والأنبياء بعده كان من أجل توحيد الله سبحانه

(١) صحيح مسلم (١٧٨).

أولًا وقبل كل شيء، ولما وصل صدم صدمة كبيرة، حيث وجد الوضع كارثيًا: المعسكر يعج بالفوضى والشرك والانفلات، فقد استغل الساحر السامري غيابه، فمارس ألاعيبه، التي تعلمها في مصر مستغفلًا الكثير من الإسرائيليين، فصدقوه، وأعطوه حليهم، والحلي التي سلبوها من جثث الفراعنة والأقباط الوثنيين، المتناثرة على الساحل، ثم قام بصهرها وصياغتها على شكل عجل أجوف، يصدر صوتًا كآلات النفخ الموسيقية، ثم قام باستخدام أثر الرسول، كما يفعل السحرة بالآثار الموجودة على الرمال والملابس والشعر.

أحاط الإسرائيليون بالسامري، وهو يمارس سحره، فانخدع به السذج، وتابعه ضعيفو الإيمان. لم يكتف السامري بالسحر.. لقد تجرأ وتمادى إلى محاولة نسف التوحيد، وإعادة إنتاج الوثنية، فبث أتباعه المتأثرين بوثنية الفراعنة، ليقولوا للناس: ﴿هَٰذَآ إِلَٰهُكُمۡ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ﴾، أي أن موسى نسي إلهه، فذهب للبحث عنه، وأن السامري قد عثر عليه، وها هو أمامكم، فاعبدوه.

سمع الموحدون هذا الدجل، فغضبوا، وانطلقوا نحو النبي هارون ﷺ فأخبروه، فأقبل غاضبًا نحو الجموع، التي تطوف بالعجل الذهبي، وهي تتمتم وتهمهم، فقال لهم: ﴿يَٰقَوۡمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦۖ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ فَٱتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوٓاْ أَمۡرِي﴾، فأجابوه إجابة تدل على أنهم يعانون خللًا كبيرًا في العقيدة.. أصروا على أن يحسم موسى أمر العجل بنفسه، و﴿قَالُواْ لَن نَّبۡرَحَ عَلَيۡهِ عَٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرۡجِعَ إِلَيۡنَا مُوسَىٰ﴾، واصل هارون المشي بينهم، محاولًا ثنيهم عن الشرك بالله سبحانه، لكن السامري شكل عصابة منظمة.. حاولوا إسكات هارون، بل والاعتداء عليه، لدرجة أنهم حاولوا قتله.

قلت حيلة هارون ﷺ فشكا أمره لربه، وانتظر قدوم أخيه وقلبه يتمزق، وبعد أكثر من شهر ونصف.. تعالت الأصوات والضجيج في المعسكر، حين انتشر خبر نزل كالصاعقة على السامري وعصابته.

موسى يلقي ألواح التوراة

أقبل موسى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على المعسكر الإسرائيلي، والغضب يلون وجهه.. لم يتجه لأخيه هارون.. توجه كالسيف البتار نحو الجموع الغبية، التي تطوف بالعجل الصنم.. حدق بجهلهم، وصاح بهم: ﴿غَضْبَٰنَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِنۢ بَعْدِيٓ ۖ أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ﴾، ﴿يَٰقَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا ۚ أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ ٱلْعَهْدُ أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِى﴾.

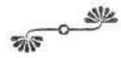
زلزلتهم الكلمات، وأسقط في أيديهم.. أدركوا أنهم وقعوا في الشرك، فاعتذروا، و﴿قَالُوا۟ مَآ أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا وَلَٰكِنَّا حُمِّلْنَآ أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ ٱلْقَوْمِ فَقَذَفْنَٰهَا فَكَذَٰلِكَ أَلْقَى ٱلسَّامِرِىُّ﴾، فتركهم موسى، ثم انطلق نحو نائبه هارون؛ ليسأله عن موقفه مما جرى، ولماذا لمْ يتركهم، ويلحق به حين وقعوا في الشرك؟

وما إن رآه حتى تأجج غضبه، وفقد شعوره؛ لدرجة أن موسى ألقى الألواح على الأرض، دون أن يشعر، ومد يده بغضب، ﴿وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيْهِ﴾، ويهزه، وأمسك بلحيته، وهو يعاتبه، قائلًا: ﴿يَٰهَٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوٓا۟ ﴿٩٢﴾ أَلَّا تَتَّبِعَنِ ۖ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِى﴾؟

كان هارون لينًا عطوفًا على شعبه.. يخشى انقسامهم، بعد ما مروا به من سنوات قمع مريرة، ومجازر مؤلمة، لذا قال: ﴿يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِى وَلَا بِرَأْسِىٓ ۖ إِنِّى خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِى﴾، ﴿ٱبْنَ أُمَّ إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِى وَكَادُوا۟ يَقْتُلُونَنِى فَلَا تُشْمِتْ بِىَ ٱلْأَعْدَآءَ وَلَا تَجْعَلْنِى مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

رق موسى لكلمات هارون ورجاءاته، فترك رأسه، وانطلق نحو رأس الفتنة والبدعة.. نحو السامري الساحر الإسرائيلي الوثني، المزهو بين الغوغاء، ولما وقف أمامه شزره بنظرة كالموت، وصاح به: ﴿فَمَا خَطْبُكَ يَٰسَٰمِرِىُّ﴾.

تضعضع الدجال من نظرات موسى، فبدأ يبحث عن مخرج هنا أو هناك، ويقول: ﴿بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُواْ بِهِۦ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِى نَفْسِى﴾، هنا أخبره موسى أن عقابه لن يكون اليوم، فلا مساس به في الدنيا.. حسابه يوم القيامة، قائلًا: ﴿فَٱذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّن تُخْلَفَهُۥ﴾، ثم أشار موسى إلى عجله الأجوف، وقال: ﴿وَٱنظُرْ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ ٱلَّذِى ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِى ٱلْيَمِّ نَسْفًا ﴿٩٧﴾ إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا﴾، ثم خاطب موسى أصحابه المؤمنين.. طالبًا منه تحطيم هذا الإله المزيف وحرقه، ثم رميه في الخليج، كما رُمي الطاغوت، الذي كان يقول: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾.



البحر يبتلع الإله المزيف الآخر

هتف موسى صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بصحابته، وأمرهم بجمع حطب، وإشعال النار فيه. انطلق الإسرائيليون المسلمون يحتطبون هنا وهناك، ثم أقبلوا وقد انحنت ظهورهم تحت حزم الحطب، ولما وصلوا رموا بها على الأرض، وكدسوها فوق بعضها كومة هائلة، ثم أشعلوا فيها النار، ولما تأجج اللهب.. توجه مجموعة منهم نحو العجل الذهبي إله السامري، فحملوه وأقبلوا به نحو النار، ثم طوحوا به وسط ألسنة اللهب.

لم يقاوم ذلك الإله، بل ولم يصمد لوقت طويل.. دقائق فإذ بإله السامري والمغفلين يتغير قوامه.. يذوب، ثم يسيح مختلطًا بالرماد والتراب، ومتحولًا إلى نفايات. تركوه حتى برد، ثم حملوا الخليط فطوحوا به وسط مياه الخليج.

انتهى الإله المزيف الذي صنعه السامري.. انتهى إله لم يتجاوز من العمر أكثر من شهر ونصف.. هوى لقاع البحر، كما هوى الفرعون الذي كان

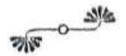
يقـول لشـعبه: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾، وبعـد التخلـص مـن تلـك النفايـة توعد موسـى الإسـرائيليين الوثنييـن الذيـن عبـدوا العجل بمصير أسـود، يقـول الله عنه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُفْتَرِينَ﴾.

شـعر موسـى بأن معاناته مع الطغيـان الوثني قـد ولت، لكن معاناتـه الجديدة والأطـول قـد بـدأت، وهـي معاناته من شـعبه الإسـرائيلي أنفسـهم، فالسـنوات التـي قضوهـا فـي بيئـة فرعونية وثنيـة قمعيـة، حولت الكثيـر منهم إلـى مزيج من التناقضـات، فبنـو إسـرائيل يتمتعـون بأعظم نسـب فـي العالم، ويباهـون غيرهم بأنهـم أبناء يعقوب بن إسـحاق بـن إبراهيم، بينما يتعامل معهـم الوثنيون بازدراء، وكأنهم من طبقة العبيد.. الإسـرائيليون ينتمون لأنبياء بشـروا بالتوحيد، وناضلوا لنشـره، بينما يرغمهم الوثنيون على ممارسـة الشرك والركوع والسجود لأخشاب وصخـور منحوتة، ولدجال اسـمه فرعون.

أجـداد الإسـرائيليين (الأنبيـاء) يحملـون رسـالة العـدل، بينمـا أصبحـوا هم يستوحشـون مـن الحريـة، لكثـرة ما تعرضـوا لـه مـن القمـع والظلـم والتقتيل.

نفسـية أمثـال هؤلاء لـن تكون سـوية غالبًا، والأيام القادمة سـتحمل لموسـى سلسـلة من المفاجآت الصادمة، فهي نفسـيات تحمل إرثًا ثقيلًا مـن القمع متعبًا، ممـا جعلهـم يتحولـون إلـى بيئـة مناسـبة للتطـرف فـي كل اتجـاه، لـذا لا يمكن لموسـى أن يعتمـد فـي التعامـل معهم على أسـلوب الوعـظ والإرشـاد والتعليم فقـط.. لا بـد أيضًا مـن الصرامة والرقابـة معًا.

فما الذي سيتخذه موسى تجاه من عبدوا العجل؟



بنو إسرائيل وأول عقوبة تنزل بهم

كانت عبادة العجل نسف كامل لتوحيد الله سبحانه، وكفر برسالة موسى ﷺ، وارتكاب لأعظم ذنب عند الله الذي يقول: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا﴾، لذا توجه موسى ﷺ نحو شعبه، وقام خطيبًا في معسكره الإسرائيلي بقسميه: المسلم والوثني معًا. فقال: ﴿يَٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ فَتُوبُوٓا۟ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ﴾.

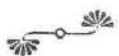
كانت تلك عقوبة واختبارًا قاسيًا للمسلمين، الذين انصاعوا للأمر، وتهيؤوا لقتال إخوة النسب، الذين عبدوا العجل.. حملوا السلاح، وشنوا عليهم هجومًا، فسقط من الموحدين شهداء، ومن السامريين قتلى، ثم أمرهم موسى بإيقاف القتال، بعد أن أعلن السامريون توبتهم، واعترفوا أن ارتكابهم للشرك ليس بالأمر الهين، بعد كل ما رأوه من معجزات لموسى ونصر وتأييد رباني، وهل اضطهدهم فرعون إلا من أجل توحيدهم لله، وهل أرسل الله أنبياءه ورسله إلا من أجل التوحيد، فكيف يقوم أبناء الأنبياء بنسفه؟ بل وصناعة الأصنام وعبادتها؟ كيف يقوم أهل التوحيد بخيانة ربهم، الذي شق لهم البحر، وأنجاهم، وأغرق عدو الله وعدوهم؟



كان الشرك مفزعًا جدًّا لموسى، لذا تبرأ منه، ودعا ربه طالبًا المغفرة، وقائلًا: ﴿رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِأَخِى وَأَدْخِلْنَا فِى رَحْمَتِكَ ۖ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾، استغفر ربه رغم أنه لم يسهم بالوثنية، ولم يرض هو ولا أخوه بها.. استغفر، لأن الاستغفار اعتراف مستمر بالحاجة لرحمة الله سبحانه، وأن ما يتلقاه موسى من تأييد وخوارق هي من الله وحده، ولو شاء لسلبها في لحظة.. النبي دائم الشكر. دائم العرفان. دائم التواضع لمن رفعه واختاره وفضله، لأنه يعرف قدْر الله وقدرة الله أكثر من غيره.

مـر ذلـك الاختبـار مريرًا على بني إسـرائيل، ثـم عفا الله عنهم، وتـاب عليهم، واسـتأنف موسـى وهـارون نشـر الوعـي بينهـم مجـددًا، بتعاليـم جديـدة، تتنزل تباعًـا.. تعاليم مـن أجل تقوية إيمانهـم، لذا طلب منهم الاجتمـاع، ولما اجتمعوا انتقـى منهـم سـبعين رجـلًا ليرافقـوه فـي رحلتـه الثالثـة لجبـل طـور، وليكونـوا شهودًا.

انطلـق السـبعون خلـف موسـى عَلَيْهِ السَّلَامُ، حتـى أقبلوا علـى الـوادي المقدس، وكان غيـر بعيـد جدًّا عن مـكان إقامتهم على البحر.. سـاروا حتى دنـوا منه، ولما دنـوا ارتجـت الأرض مـن تحتهـم ومـن حولهـم.. تسـاقطوا وشـعروا بالرعب، واجتاح موسـى خـوف شـديد، وظن أنـه الهلاك بسـبب العجل.



أمة محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في سيناء

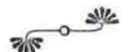
اجتـاح الخـوف موسـى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.. خشـي أن تكون هـذه الرجفـة عقوبة لما ارتكبـه بعضهـم مـن وثنية.. خشـي أن تكـون مقدمة لمثـل الصيحة، التـي أبادت قـوم ثمـود ومديـن، فناشـد الغفـور الرحيـم سـبحانه اللطـف قائـلًا: ﴿أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ إِنْ هِىَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهْدِى مَن تَشَآءُ أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْغَٰفِرِينَ﴾، فخاطبـه سـبحانه وقـال: ﴿عَذَابِىٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنْ أَشَآءُ وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ﴾.

ثم بيّن سـبحانه أن أحق الناس برحمته ليس أولئـك المتقلبون الجاحدون، بل هـم أمة نبينـا محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، التي يحملها المسـتقبل، وذلك لصفات يحبها الله فيهم، قائلًا: ﴿فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ

﴿عَلَيۡهِمُ ٱلۡخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنۡهُمۡ إِصۡرَهُمۡ وَٱلۡأَغۡلَٰلَ ٱلَّتِي كَانَتۡ عَلَيۡهِمۡۚ﴾، تلك هي إحدى البشارات ببعثة نبينا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.. بشارة نزلت في سيناء.. في لحظات خذلان معظم شعب موسى لموسى، وتخليهم عن التوحيد.. بشارة تكشف أن رسالة محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأمته هي الأمر بالمعروف، وأوله التوحيد والعدل، والنهي عن المنكر، وأشده الشرك والفساد والظلم، وقد أغرق الله فرعون قبل أشهر، لأنه ادعى الألوهية، وظلم الإسرائيليين، رغم تلوث الكثير منهم بالشرك، ولو لم يلاحقهم في البحر، ويصر على إبادتهم، لربما كان حيًّا، فالجبار سبحانه حرم على نفسه الظلم، وحرمه على خلقه.. فقال: «**يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي، وجعلته بينكم محرمًا، فلا تظالموا**»[1]، لا يرضى بالظلم، ولو لمن يكفرون به، ففي الدنيا: من شاء فليؤمن، ومن شاء فليكفر، فالحساب في الآخرة، أما الفساد والظلم، فلا تسامح فيها في الدنيا ولا في الآخرة، ولذا تنهار الأمم الفاسدة، رغم قوتها وثرائها، وتدوم الأمم العادلة، مهما كانت عقيدتها.

مفاهيم جاهد موسى لإيصالها، لكن يبدو أن قومه يحتاجون لمجاهدة أكبر، فها هم بعدما عاد موسى والسبعون.. يستقبلونهم، والفضول يقتلهم.. يحتشدون حولهم.. يسألونهم عما جرى لهم، وعن كلام الله لموسى.. يطلبون المزيد من التفاصيل. لكن حديث موسى والسبعين لم يشبع غرورهم، فلم تتوقف أسئلتهم التي لا تبحث عن الإجابة لتعمل، بقدر ما تبحث عن جمع المعلومة للمعلومة نفسها.

بدؤوا بمطالبة موسى بأشياء غريبة.. توجهوا نحوه ذات يوم، فطالبوه بشيء مستحيل.



(١) صحيح مسلم (٢٥٧٧)، وهو حديث قدسي.

القبيلة المغرورة تتواضع

رغم أنه يوجد من الإسرائيليين أنبياء ورجال ونساء عظماء وعظيمات، وموحدون نبلاء، ورغم أن منهم من وصفهم الله سبحانه بأنهم: ﴿أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ﴾، وأنه فضل هذه القبيلة على الأمم والقبائل، إلا أن غالبيتهم وقفوا من نبيهم موسى صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ موقفًا محيرًا.. ممتلئين بالغرور.. مغترين بحلم الله، وتفضله عليهم، وكأنهم يقولون لأنفسهم:

من مثلنا من القبائل: نحن بنو إسرائيل بن إسحاق بن إبراهيم.. أجدادنا وآباؤنا وأعمامنا أنبياء، بل من إخوتنا، ومن بيننا من هو نبي.. نحن من جعل الله النار بردًا وسلامًا على جدنا.. نحن من بنينا بيت المقدس.. نحن من شق الله لنا البحر، وأغرق من أجلنا فرعون وجنده الأقباط الوثنيين.. منا يعقوب ويوسف والأسباط، ومنا كليم الله موسى وهارون، فمن مثلنا؟

لا أحد، وما دمنا الأعظم، فلا ينقصنا سوى شيء واحد، وإن لم يتحقق فسوف نتمرد.

مشى هؤلاء الإسرائيليون نحو رسول الله موسى صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وقد تورموا من العجب والغرور، معلنين تمردهم إن لم يتحقق لهم ما يريدون. قالوا: ﴿يَـٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾.

وبينما هم ينظرون إلى موسى، وينتظرون جوابه، وقبل أن يرد.. قبل أن يحرك شفتيه بكلمة.. أتاهم الرد من السماء.. دوت صاعقة مرعبة رددتها الجبال، فإذا هم جثث متناثرة أمامه.. ارتج موسى مما حوله.. كان مشهد الجثث مروعًا، وكأنما خرت من السماء.. رق صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لمآل هؤلاء الأشقياء، فدعا ربه، وناشده العفو عنهم، فاستجاب الرحمن الرحيم، فإذا الحياة تسري بأطرافهم.. يتحركون.. ينهضون ببطء، والذعر يجتاحهم.. يتأملون العالم من حولهم.. يتحسسون أبدانهم.. تدور أعينهم بين الأرض والسماء.

شعروا بعظمة الجبار سبحانه، فتلاشى فخرهم، وشكروه، واستغفروه مجددًا، وتاب من كان وثنيًّا، واعتذروا لموسى، وعادوا لأطفالهم، الذين كانوا قبل قليل أيتامًا، ولنسائهم بعد أن كن قبل دقائق أرامل. سكنت تلك القبائل وهدأت، ومرت الأيام، فإذا بهم يطلبون من موسى شيئًا آخر.. يطالبونه بمياه عذبة، بدلًا من السقيا المرهق من الآبار، فدعا موسى ﷺ ربه، فإذا به يتلقى أمر الجبار: ﴿ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ﴾.

تقدم الكليم نحو أحد الحجارة الكبيرة، ولما وقف أمامه رفع عصاه، فضرب به حجرًا كبيرًا أمامه، فإذ بأطراف الحجر تنبجس أمامهم شلالات ماء.. اثنتا عشرة عينًا، تتفجر ماء زلالًا بعدد قبائل بني إسرائيل، لكل قبيلة شلال، فهل انتهت مناكفات بني إسرائيل؟ لا يبدو ذلك، فزمن المناكفات الإسرائيلي لم ينته، لكن يبدو أن زمنًا آخر للتحايل قد بدأ.



أنهار ومن وسلوى ونظام

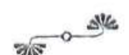
في سيناء أمر الله سبحانه موسى ﷺ: ﴿ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ﴾، فرفع عصاه فضرب به حجرًا كبيرًا جدًّا أمامه، فإذ بالماء ينبجس من أطراف الحجر شلالات ماء عذب.. اثنتا عشرة عينًا اتسعت لها أعين القبائل الإسرائيلية، ومعجزة هرول بعدها الرجال والنساء والأطفال إلى رحالهم، فأخذوا قربهم وأوانيهم ومزاداتهم، ثم عادوا نحو العيون العذبة، ليملؤوها بالماء المعجزة. لكن موسى أوقفهم، حتى لا تدب الفوضى والنزاع، لا سيما وهم قد تمرسوا عليها.

هتف بهم، ولما شخصت أبصارهم أشار للعين الأولى، فجعلها لقبيلة فلان، وللعين الثانية، فخصصها لقبيلة فلان، وهكذا حتى حدد لكل قبيلة عينًا و﴿عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ﴾.

بدأت الأرض تخضر من حولهم، فإذا بأسراب من طيور المن تحلق فوقهم.. يصطادون منها ما شاؤوا، ويتفننون في إعداد موائدهم طبخًا وشيًا، ويتلذذون بعسل النحل، الذي كثرت خلاياه لكثرة الزهور من حولهم. أمن وأمان، ومن وسلوى، وساحل جميل، وأسماك، ومعجزات تتلوها معجزات، ونعيم يتلوه نعيم.. لتتوالى أحكام التوراة بعدها تفقههم بأمور دينهم، وتنظم دنياهم، فالشعب يكثر لا سيما، وتعدد الزوجات عندهم لا حدود له، وهم بحاجة لقوانين، لا إلى أعراف غير ملزمة، كما أن الأنظمة تحتاج إلى قيادة صارمة، تضمن تطبيقها، وإلا تحول المجتمع إلى غابة، يفترس القوي فيها الضعيف.

لذا نزل نظام جنائي، بدأ بتحريم سفك الدماء، وأن ﴿مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾، ثم نزل الوحي بقوانين القصاص، التي تقرر أن ﴿ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ وَٱلْأَنفَ بِٱلْأَنفِ وَٱلْأُذُنَ بِٱلْأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥ﴾، وبين الله أن أحكامه وعي وتنوير، فقال: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ﴾، وطالب بعدم المجاملة في تطبيق النظام، فقال: ﴿فَلَا تَخْشَوُا۟ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾.

هنا بدأ الفوضويون وأعداء النظام سلسلة من المماحكات.. لا يريدون عقوبات.. لا يريدون نظامًا.. يريدون مجتمعًا هلاميًا، لا قوام له، كي يعبثوا، ويتحايلوا، ويفسدوا دون حسيب أو رقيب، وكأنه لا يصلحهم إلا البطش.. نصحهم موسى، وطالبهم بعدم التمادي، لكنهم تمادوا، وإذ بشيء فوق رؤوسهم، أرعبهم، جعلهم يهرولون نحو موسى.



مخلوقات غريبة على الساحل

رفع الإسرائيليون رؤوسهم للسماء، فإذا شيء أسود، لا يشبه الغيوم.. شيء مرعب، لا غيث فيه ولا مطر، ولم يروا مثله.. هرولوا كالعادة نحو الكليم ﷺ.. وقفوا أمامه يرتجفون، فزادهم رعبًا، حين أخبرهم أن الذي فوق رؤوسهم هو جبل الطور.. ملايين الأطنان من الصخور لسحقهم، إن لم يطبقوا نظام التوراة، التي يقول الجبار عنها: ﴿وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُۥ وَاقِعٌۢ بِهِمْ خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُواْ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾.

خلع المشهد قلوبهم فسجدوا لله، وأعلنوا خضوعهم لشريعة التوراة، التي بدأ موسى بتطبيقها، وأولها العدل.. أسقط في أيديهم.. أدركوا أن أي تمرد، أو خلق للفوضى، أو مجاهرة بمخالفة النظام، ستقابل بعقوبة عاجلة.. كانت المعجزات رحمة لهم، فأمثالهم يدمرون أنفسهم، لو تُركوا لغرائزهم، ومع ذلك بقيت قلة منهم، عجزت عن مقاومة غرائزها، لم ينته زمن المطالب، لكن بدأ زمن آخر للتحايل والالتفاف على النظام:



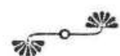
ذات يوم أنزل الله عليهم تحريم أكل الشحوم، فإذ بهم يقومون بإذابتها، ثم يبيعونها ويأكلون ثمنها.

أنزل الله عليهم تحريم صيد السمك يوم السبت، فتحايلوا.. صاروا يرمون شباكهم في عرض البحر يوم الجمعة، ثم يعودون لأخذها يوم الأحد، وقد امتلأت بالأسماك. ظلت هذه القلة المتحايلة تتمادى، فزجرهم موسى، وحذرهم من عواقب التحايل، لكنهم تمادوا مما أثار غضب الإسرائيليين المحتسبين، فوعظوهم، وذكروهم بنعم الله، التي لا تعد ولا تحصى، لكن المادة طغت عليهم، فلم ييأس المصلحون من الاحتساب، مما جعل بعض المؤمنين يلومون الآمرين بالمعروف، الناهين عن المنكر لتكرار نصيحة أناس ميؤوس منهم، قائلين:

﴿لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾، فذكر المحتسبون سببين: ﴿قَالُوا۟ مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾.

السبب الأول: أداء واجب النصيحة، والآخر عدم اليأس في حياة المصلح.

وفي أحد أيام الجمعة ذهب المتحايلون للساحل، يحملون شباكهم. وضعوها في مراكبهم، وركبوها وجدفوا، ولما أصبحوا في عرض البحر، توقفوا، ونشروها، ثم رموها، لكنهم لم يعودوا إلى الساحل، ولا إلى بيوتهم هذه المرة.. استبطأتهم عائلاتهم.. خرجوا يبحثون عنهم.. مشطوا الساحل فلم يجدوا لهم أثرًا، لكنهم وجدوا مخلوقات غريبة على الساحل.



ساحل القردة

لم يعد أحد من الصيادين المحتالين يوم الجمعة.. استبطأتهم أسرهم، فخرجوا يسألون عنهم.. لم يجدوا جوابًا، فلا أحد رآهم بعد إبحارهم.. بحثوا.. مشطوا القرية، فلم يجدوا شيئًا، لكنهم وجدوا بين الساحل والقرية مخلوقات غريبة.. قردة لها صراخ.. تنظر بحزن وخوف إلى المحدقين الخائفين منها.. الكل خائف إلا موسى ﷺ، الذي أقبل، وكأنه يقول لهم: لا تبحثوا بعد اليوم عن الصيادين المحتالين، فهم لم يغرقوا، ولم يموتوا، ولم يسافروا.. ها هم أمامكم.. هؤلاء القردة هم أخوانكم، الذين نصحتموهم بتطبيق أحكام التوراة، فلم يستنصحوا، ونهيتموهم عن الفساد فلم يأبهوا، وخوفتموهم بالله فلم يخافوا، وخالقهم سبحانه يقول: ﴿فَلَمَّا عَتَوْا۟ عَن مَّا نُهُوا۟ عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ﴾.

شكر المؤمنون ربهم على نعمة الهداية، والنجاة من هذا المصير، أما تلك القردة فظلت تتقافز، وتصرخ حزينة هنا وهناك.. لا أحد يعرف من هو أخوه،

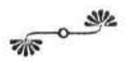
أو ابـن عمـه منها، ولا أحد يريدها فـي بيته، رغم المرارة التي تشـعر بها عائلاتهم وأقاربهـم.. ظلت القردة تائهة على السـاحل، وفوق صخـور الجبال حتى ماتت، وانقطع نسـلها، فالله «لم يجعل لمسـخ نسـلًا ولا عقبًا»[1].

ثم ماذا يا بني إسرائيل؟

كل هـذا العنـاد والتمـرد والتحايل، ثـم ماذا؟ آيـة أو معجزة واحـدة، مما جاء بهـا موسـى تكفي العاقـل، لكن معجزات الأنبيـاء كلها لن تحرك شـعرة في رأس حسـود أو حقود أو شـخص يعبد هواه.

ظـل النبي العظيم موسـى ينشـر التوحيد، ويحكـم بالعدل، لكن معظم شـعبه ظلـوا كالأطفـال.. يبحثـون عـن الخـارق والمدهـش، وليـس لديهـم أي توجـه لمسـاعدته فـي مهمتـه، ففـي أحـد الأيـام وجـد بعضهـم جثة قتيـل.. أخبـر أهله فجـاءوا وتعرفـوا عليه، وشـاع الخبر فـي القرية، لكـن أحدًا لم يسـتطع الوصول إلـى القاتـل.. بـدأت الظنـون تلقـي الاتهامـات هنـا وهنـاك، بعيـدًا عـن القاتـل الحقيقـي الـذي يبدو أنـه أصبح فـي مأمن.. بـدأت مطالبـة أهل الضحيـة بتطبيق القصـاص دون دليـل، ولما عجزوا انطلقوا نحو موسـى، واندس معهـم القاتل.. يطالبـون بإخبارهـم عـن هويـة القاتل، فظنـوا أن حياتهـم مرهونـة بالمعجزات.

سـكت موسـى حتى جاءه الوحي، فقال لهـم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تَذۡبَحُواْ بَقَرَةً﴾، نظروا إليه باستخفاف، ثم قالوا: ﴿أَتَتَّخِذُنَا هُزُوٗاۖ قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾، أدركوا أنه جاد، وأن ذبحهم لأي بقرة كاف، لكن يبدو أن القتلة بدؤوا بالتشـويش والمناكفة.



(١) صحيح مسلم (٢٦٦٣).

شددوا، فشدد الله عليهم

طلب موسى صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من أهل القتيل ذبح بقرة.. أي بقرة. لم يحدد لونًا أو صفة.. هنا يبدو تدخل القتلة للتشويش.. أظهروا حرصهم على الظفر بالقاتل، فهتفوا بموسى، و﴿ قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ ۚ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَٰلِكَ ۖ فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ ﴾.

هيا ابحثوا عن أي بقرة في منتصف العمر، لا فارض هرمة، ولا بكر صغيرة.. إنها صفة يسهل الحصول عليها، لكن القتلة لا يريدون ذلك.. لا يريدون حتى الحصول على البقرة، لذا ﴿ قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا ۚ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ ﴾.

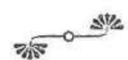
بدأت الدائرة تضيق، فالبقرة الصفراء النقية اللون، يصعب الحصول عليها، ومع ذلك شوشوا، فقالوا لموسى: ﴿قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِن شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ (٧٠) قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا﴾.

اطمأن القتلة أنهم لن يحصلوا على بقرة بتلك المواصفات.. خاصة الصفة الأخيرة. بقرة لم يذللها العمل أو يطوعها، ولم تستخدم يومًا في حرث الأرض، أو السقاية بالسواني، ولا يوجد في لونها الأصفر أي بياض أو سواد، وكأنهم يريدون أن تنزل عليهم بقرة من السماء.

انطلق الأهل.. يسألون.. يبحثون في الحظائر، والمزارع داخل القرية وخارجها، حتى أضناهم البحث، وفجأة عثروا عليها، فاشتروها بأي ثمن، ولما دفعوا ذلك الثمن، أخذوها نحو موسى، حتى أوقفوها أمامه، و﴿قَالُوا الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ ۚ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ﴾، هنا تضعضع القاتل وارتج، وهو ينظر إلى موسى، والله يقول له: ﴿اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا ۚ كَذَٰلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾.

مـد أحدهـم يده بالسـكين، واحتز من لحمهـا قطعة، ثم ضرب بهـا الجثة، فإذ بالمعجـزة الربانيـة.. القتيـل يتكلـم.. يفصـح عن هويـة قاتله.. لـوى الحاضرون رؤوسـهم، وحدقت عيونهم بشـخص منغرز بينهم.. كان يناكف نبي الله، ويحاول تعجيزه حتى لا تظهر الحقيقة.. تبين أنه من القبيلة نفسها، ربما طمعًا بإرث.. ربما حقـدًا.. ربمـا خصومة.. المهم أنه قد تم القبض عليـه، ونال جزاءه بعد أن فضحه الوحـي، الذي يقول: ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾.

مرت أشـهر وسـنوات، وكثـرت معها مناكفات شـعب موسـى، لدرجـة أنهم بـدؤوا يتذمـرون مـن المـن والسـلوى، والعسـل ورغـد العيـش، فكانـت عاقبـة تذمرهـم كارثية.



يعشقون أرض البصل، ويرفضون الأرض المقدسة

توجـه الإسـرائيليون لقائدهـم موسـى ﷺ معلنيـن تذمرهم مـن أطعمة متوافـرة ولذيـذة، وقالـوا لـه: ﴿لَنْ نَصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا﴾، وإذ بـه يتعجـب مـن تذمرهـم مـن كل شـيء.. حتى مـن رغـد العيش، قائـلًا: ﴿أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ﴾، ويبـدو أنهـم كانـوا يريـدون أطعمـة لا يتعبون فـي زراعتهـا، وجنيهـا.. هنا بلغ موسـى من الحلم والحدب على شـعبه مسـتوى غيـر مسـبوق، لذا دعـا ربه، فاسـتجاب له، وطلـب منهـم التوجه إلـى أي بلد في سـينا قائلًا: ﴿اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مَا سَأَلْتُمْ﴾، ادخلوا أي بلد، ولا يقصد مصـر التي هربـوا منها.

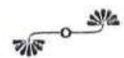
جمـع الشـعب المشـاكس أمتعتـه، ووضعهـا علـى الرواحـل، ثـم انطلقـوا بمحـاذاة سـاحل الذكريـات، متوجهيـن إلـى أي بلـد، تتوافـر فيها تلك الأشـياء،



لكنهم دخلوها كغرباء طفيليين، أذلة صاغرين بين سكانها الأصليين، حتى قال الله سبحانه: ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ﴾، بعد أن كانوا أعزة يعيشون بين المعجزات ورغد العيش، ويتمتعون باثنتي عشرة عينًا، تتفجر ماءً زلالًا، وبعد سنوات من الشعور بالذلة والغربة والمسكنة، طلب منهم موسى الاستعداد لمغادرة هذا المصر، فإذ بهم يوافقون.

تأهب الإسرائيليون، وحملوا أمتعتهم وانطلقوا، وبعد يوم أو يومين من المسير، وفي إحدى محطات استراحاتهم، قام موسى ﷺ فخطب فيهم خطبة بالغة الخطورة.. معلنًا عن موعد الرحلة الكبرى والمحطة الأخيرة، لكن قبل أن يحددها بدأ بتذكيرهم بنعم الله عليهم، وتفضيلهم على غيرهم، فقال: ﴿يَٰقَوْمِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، ثم كشف تلك الوجهة، فإذا هي مهوى الفؤاد.. الأرض التي عليها ثاني مسجد بناه جدهم إبراهيم ﷺ بعد بنائه للمسجد الحرام بمكة، فقال: ﴿يَٰقَوْمِ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا۟ خَٰسِرِينَ﴾.

نظر المناكفون إلى بعضهم، وكأنهم يقولون: ما هذا؟! أينقذنا من خناجر فرعون، ليرمينا بين سيوف الكنعانيين؟ تشاوروا، ثم صاحت تلك الأغلبية دون حياء: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ﴾، كانوا يريدون حياة سهلة.. ثمارًا يقطفونها، ويزاحمون شعوبها. لكن يبدو أن عصر المعجزات قد ولى.



انتهى عصر المعجزات يا بني إسرائيل.

بعد كل تلك المعجزات والبراهين.. ما زال الإسرائيليون يريدون أن يعيشوا بقية حياتهم بالمعجزات.. بحر ينشق، وصخور تتفجر ماء، وها هم يريدون

مـن الوثنييـن أن يخلوا أراضيهم لهم بكل بسـاطة! لم يتحدث موسـى عن قتال.. تكلم عـن دخول.

هنـا تقـدم رجـلان مـن الأقليـة المؤمنـة الثابتـة، حتـى أصبحـا أمـام الجموع المناكفـة الرافضـة، فقـالا: ﴿ٱدۡخُلُواْ عَلَيۡهِمُ ٱلۡبَابَ فَإِذَا دَخَلۡتُمُوهُ فَإِنَّكُمۡ غَٰلِبُونَۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾.

هـذا هـو الفرق بين من يسـتحضر عظمـة الله وقدرته، فإذا كل القوى تتلاشـى مـن قلبه، وبين قوم يخشـون الناس كخشـية الله أو أشـد.. هذا هو الفـارق بين من عبـروا البحـر بقلوبهم وعقولهم، وبيـن من عبروه بأقدامهم فقـط. كلمات عظيمة تكشـف مدى التوكل على الجبار سـبحانه.. كلمات لم تجد سـوى قلوب قاسـية وصفها الله، فقـال: ﴿ثُمَّ قَسَتۡ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَٱلۡحِجَارَةِ أَوۡ أَشَدُّ قَسۡوَةٗ﴾.

كـرر الجبنـاء رفضهـم، وصاحـوا بوقاحـة: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدۡخُلَهَآ أَبَدٗا مَّا دَامُواْ فِيهَا فَٱذۡهَبۡ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ﴾، لـن ندخلهـا أبدًا؟ إذا فالديـار المقدسـة لا تهمهم.

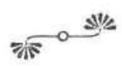


صدم موسـى من هذا الجحود.. شـعر بخذلان شـعبه له، فتولـى عنهم حزينًا، وتوجـه نحو ربـه معتذرًا إليه، ومتبرئـًا من الخونة، وهو يقـول: ﴿رَبِّ إِنِّي لَآ أَمۡلِكُ إِلَّا نَفۡسِي وَأَخِيۖ فَٱفۡرُقۡ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾، وإذ بغضـب الجبـار سـبحانه يحل على ذلـك الجيل.

ليـس بعد اليوم مـن معجزات، ولا حتى تهديد بالفناء.. هي حياتكم فعيشـوها بواقعيـة.. منذ اليوم لسـتم أفضل أهـل الأرض، ولن تحظـوا بالتأييد، إلا إن بذلتم مـن أجلـه وناضلتـم.. أمامكم تيـه طويل، وشـقاء ومعانـاة، مدتها أربعـون عامًا، ولـن يغير الله ما بكـم، حتى تغيروا ما بأنفسـكم.

أمـا موسـى فظل معهـم يعاني منهـم ومعهـم، فمهمة الأنبياء ليسـت سـهلة.. واصـل قيادتهـم وظـل يعلمهـم، وبينما هـو معهم ذات يوم، سـأله أحـد تلاميذه، فقـال: (أي النـاس أعلم؟)

اسـتعجل موسـى الإجابـة فقـال: (أنـا أعلـم) لم يقـل: أنـا أعلم إن شـاء الله. لم يقـل: الله أعلـم، فعاتبـه ربـه سـبحانه، لأنه لم يـرد العلم إليـه. ثم أوحـى إليه: (أن عبـدًا مـن عبادي بمجمع البحرين، هو أعلم منك)، خفق قلب موسـى شـوقًا لرؤيـة رجل ليـس بنبي، لكنه أعلم مـن كليم الله، فقال: (يـا رب، وكيف به؟ فقيل لـه: احمـل حوتًـا فـي مكتـل، فـإذا فقدته فهو ثـم)[1] سـتراه هنـاك.. فـي المكان الـذي تفقد فيه سـمكتك.



ليس بنبي، لكنه أعلم من نبي

أخذ النبي موسـى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ زبيلًا متوسـطًا، يسـمى (المكتل)، ونادى تلميذًا مخلصًا، من أفضل تلاميذه، اسـمه (يوشـع بن نون)، وطلب منـه مرافقته.. انطلق الاثنـان نحـو البحـر، فاصطـادا عَلَيْهِمَا السَّلَامُ سـمكة، ووضعاها فـي الزبيل، ثم سـارا بمحاذاة سـاحل خليـج السـويس جنوبًا.. ظلا يسـيران ويتوقفان، حتـى أدركهما التعـب فـي ملتقـى الخليجيـن السـويس والعقبـة مـع البحـر الأحمر، فلجـأا إلى صخـرة على الشـاطىء، فرقـدا تحت ظلها، وفـي أثناء رقادهما حدثـت المعجزة الربانيـة.. اضطربـت السـمكة، وتقلبت داخل المكتـل، حتى غادرتـه. أفاق النبي وتلميـذه عَلَيْهِمَا السَّلَامُ، ثم واصلا سـيرهما.

ظلا يسـيران حتـى قرصهمـا الجوع فتوقفا، ثم التفت موسـى ليوشـع، وطلب منـه شـي السـمكة. توجـه يوشـع نحـو المكتـل، وأدخـل يـده فلـم يجد شـيئًا..

(١) صحيح البخاري (١٢٢).

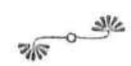
اتسعت عيناه من الدهشة، فالسمكة ليست في داخله، فقال لنفسه: لا بد أني نسيتها هناك عند الصخرة. عاد لموسى، وقال له: ﴿أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّى نَسِيتُ ٱلْحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ﴾.

شعر موسى بالارتياح رغم الجوع، وقال: ﴿ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ﴾، طلب من تلميذه النهوض، ثم عادا من حيث أتيا.. يتتبعان آثار خطواتهما، وبعد مسافة لاحت لهما الصخرة، فلما لاحت، إذ بالمفاجأة تنتظرهما.. لم يجدا حوتًا.. وجدا شخصًا مغطى بثوب من رأسه إلى قدميه.

وقف موسى باحترام، يتأمل هذا النائم المسجى.. يتأمل رجلًا آتاه الله علمًا ليس عنده. لم يقل الله لموسى: اذهب إلى البلد الفلاني، واسأل عن قصره، فستجده هناك، أو اذهب إلى القرية الفلانية، فهو أشهر من نار على علم، وستجد تلاميذه جيوشًا حوله.. وجده وحيدًا على الساحل، ليس معه إلا الله.. لا جاه ولا منصب ولا شهرة، ولا حاشية ولا مريدين.

وليٌّ حباه الله بشيء ليس عند موسى، رغم أنه ليس أفضل من موسى، ولا من بقية الأنبياء.. ولي يعيش مع الله.. يأنس بذكره سبحانه، ويسعد بمناجاته، ويتلذذ بالخلوة معه.. أهذا هو الخضر، الذي عاتب الله من أجله موسى، وأمره بالتتلمذ على يديه؟ يفترش رمال الشاطىء، ويلتحف قطعة قماش.

وقف كليم الله متعجبًا.. معه العصا التي ابتلعت كيد السحرة، وشقت البحر، وفجرت الأنهار بإذن الله.. يتساءل أي علم سيجده عند هذا الفقير، الذي لم يجد بجانبه راحلة تقله، أو حتى قاربًا يبحر به.



أول الدروس صدمة

وقـف كليـم الله موسـى صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ معـه العصـا، التـي ابتلعـت كيد السـحرة، وشـقت البحـر، وأغرقت فرعون وجنـوده، وفجـرت الأنهار.. وقـف على رمال الشـاطىء، يتسـاءل: أي علـم سـيجده عنـد هـذا الفقيـر؟ الـذي لم يجـد بجانبـه راحلـة تقلـه، أو قاربًـا يبحر به.

وقف أمام الخضر المسجى على الساحل، وقال له: السلام عليكم.

كشـف الخضـر الثوب عـن وجهه، وقـال: وأنى بأرضك السـلام؟ اسـتغرب موسـى من هـذه الإجابـة، التـي تتكلم بأكثر مـن أحرفهـا، فقال: أنا موسـى.

رفع الخضر رأسـه، وحدق به مسـتغربًا، وسـأله: موسـى بني إسـرائيل؟ قال: نعـم. (قـال الخضـر: أو مـا كان لك فـي بني إسـرائيل شـغل؟ قال: بلـى، ولكني أمـرت أن آتيـك وأصحبـك)، فقال متعجبًـا من طموح موسـى: «ومـا يكفيك أن التـوراة بيديـك، وأن الوحي يأتيك؟» قال كليـم الله: ﴿هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا﴾؟

هنـا.. حـذره الخضـر من علـم لا يطيقـه.. علم لو أصبـح لدى البشـر، لأفنى بعضهـم بعضًـا، ولكـره بعضهـم بعضًـا، ولأصبحـت الحيـاة لا تطـاق.. حـذره الخضـر، قائـلًا: ﴿إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾، «يا موسـى، إنـي على علـم من علم الله، علمنيـه لا تعلمـه أنت، وأنـت على علم، علمكـه لا أعلمه»[1]، أصر موسـى علـى التتلمـذ، وقـال: ﴿سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِي لَكَ أَمْرًا﴾، وافـق الخضـر، ولكن بشـرط هـو أن لا يطلب منه تفسـير أفعالـه، حتى يفسـرها هو له. قائـلًا: ﴿فَلَا تَسْـَٔلْنِي عَن شَيْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا﴾.

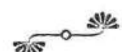
وافـق موسـى، دون تـردد فرفـع الخضر قطعـة القمـاش المتواضعـة التي كان يتغطـى بهـا وطواها، ثم نهض، وانطلق بصاحبيه موسـى ويوشـع بن نون عَلَيْهِمَا السَّلَامُ

(١) صحيح البخاري (١٢٢) وما بين الأقواس من القصة هو جزء منه.

يتهـادون علـى سـاحل البحر.. بدأ موسـى رحلـة طلب العلـم ظنًّا أنه لـن يرتوي منـه، وإذ بسـفينة صيـد تبحـر بمحاذاتهـم. هتـف الخضـر بأصحابهـا، فتوقفـوا مستفسـرين، فسـألهم أن يحملوهـم. فوافقـوا دون مقابل.

خاض الخضر وصاحباه مياه الشـاطئ، حتى وصلوا السـفينة، وسـلموا على أصحابهـا، وصعـدوا وأخـذوا مقاعدهـم.. ابحـروا وموسـى صامت بيـن جمال زرقـة السـماء والمـاء، وفـي أثناء ذلك رفـرف فوقهم طائـر، ثم هبـط على حرف السـفينة، ثـم نقـر البحـر بمنقـاره نقـرة، ثـم رف ثانيـة فـي السـماء.. كان الخضر يتأمـل موسـى الـذي ينظـر للطير، فقـال: «يا موسـى ما نقص علمـي وعلمك من علـم الله إلا كنقرة هـذا العصفور فـي البحر».

ازداد شـغف موسـى لنقرة العلم، لكن الخضر صدمه، حيـن نهض واتجه إلى قـدوم أو فأس في ناحية من السـفينة فأخـذه، ثم توجه لجدار من جدران السـفينة فهوى بـه عليه حتى اقتلع لوحًـا من ألواحه.



صدمة الدرس الثاني والثالث أكبر

صُـدم موسـى صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من سـلوك الخضر..كيف يعتدى علـى ملك غيره؟! لم يسـتطع الصبـر علـى اقتـلاع الخضـر للوحـة علويـة مـن ألـواح جدار سـفينة الصياديـن الكرمـاء.. عاتبـه مباشـرة، قائلًا: «قـوم حملونا بغير نـول، عمدت إلى سـفينتهم فخرقتها لتغـرق أهلها؟»[1].

نظر الخضر إلى موسـى بهدوء، وقال لـه: ﴿أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴾؟ اعتذر موسـى، وقال: ﴿لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا ﴾.

(١) صحيح البخاري (١٢٢)، وما بين الأقواس من القصة هو جزء منه.

واصلت السفينة إبحارها، حتى وصلت إلى ميناء قرية ساحلية، فتوقفت ونزل الخضر، وتبعه موسى ويوشع عَلَيْهِمَا السَّلَامُ، وتهادوا نحو القرية، وفي أثناء سيرهم شاهدوا أطفالًا يلعبون.. كانت براءتهم وضحكاتهم تزين المكان وتبهجه، لكن الخضر قتل البهجة في نفس موسى، حين تقدم نحو أحد الأطفال، فأخذه من بينهم، وسار به وسط دهشة الجميع، ثم قتله أمام عيني موسى، الذي فقد أعصابه، وكأنه يعيد مشاهد معاناة أطفال شعبه المريرة، حين كان الفراعنة الوثنيون ينحرونهم، فهتف بالخضر مستنكرًا: ﴿أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُّكْرًا﴾.

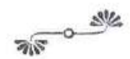
نظر إليه الخضر بثقة متناهية، وأعاد تذكيره بقوله: ﴿أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾؟ شعر موسى بالخطأ في تسرعه، فطلب منحه فرصة أخيرة، قائلًا: ﴿إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا﴾.

وافق الخضر، ثم واصل الثلاثة المشي عبر طرقات القرية وبين بيوتها، ثلاثة هم من أفضل من يمشي على وجه الأرض، ومع ذلك ليس معهم ما يشترون به وجبة لهم.

بحثوا عمن يستضيفهم فلم يجدوا وسط قرية البخلاء هذه.. قرية ﴿اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَن يُضَيِّفُوهُمَا﴾، لم يغضب الخضر.. على العكس من ذلك.. مر بأحد طرقاتها، فالتفت فرأى جدارًا متهالكًا آيلًا للسقوط ﴿يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُ﴾، بيده وأعاد له استقامته، أو أعاد بناء المائل منه، بينما كان موسى يتأمل متعجبًا.. حتى هذا العمل الجميل، لم يطق موسى صبرًا عليه، ربما لأن هذه القرية لا تستحق، فقال: ﴿لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾.

هنا توقف الخضر، ليخبر موسى بانتهاء العقد المبرم بينهما، فقد خرق موسى بند الاتفاق ثلاث مرات، وهي كافية لعدم جدوى المواصلة.. نظر الخضر إلى موسى، وقال له: ﴿هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ﴾، لكنه لن يفارقه حتى

يخبره بسبب تصرفاته الغريبة تلك، التي لم يستطع موسى الصبر عليها. بدأ الخضر أولًا بتفسير ما فعله في السفينة.



لم لا يطاق علم الخضر؟

بدأ الخضر عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ أولًا بتفسير ما فعله في السفينة، قائلًا لموسى صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ يَعْمَلُونَ فِي ٱلْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا﴾، فهو ملك متسلط، يسطو على كل جميل في بلدته، فأراد الخضر تشويه السفينة، دون الإضرار بها، حتى يزهد بها جواسيس الملك.. كان فعله رحمة بهؤلاء المساكين، فهي مصدر رزقهم.

وأما قتل الغلام فلا عجب أن تثير احتجاجات الملاحدة، فقد احتج موسى صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قبلهم، مع أن إجابة الخضر كافية، فقد أخبر موسى أن هذا الطفل مشروع طاغية، قائلًا: ﴿وَأَمَّا ٱلْغُلَٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ﴿٨٠﴾ فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا﴾، هذه الإجابة أقنعت موسى مباشرة.. إجابة تكشف عن العلم الذي لا طاقة للبشر به، فلو علموا به لسالت دماء أطفال العالم، وهل سيترك الإسرائيليون فرعون لو رأوه وهو طفل، وعلموا أنه سيذبح الرضع من أطفالهم؟



هل سيترك ضحايا العالم طواغيت أمثال هولاكو ولينين وستالين وهتلر وبشار لو وجدوهم أطفالًا؟ بل هل سيسعد البشر لو علم كل فرد منهم بتاريخ وفاته ووفاة أحبابه؟

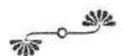
لكن هذا العلم المؤلم، والذي لا يطاق، لا يخلو من جميل، مثل قصة الخضر مع الجدار، فقد قال الخضر عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا

﴿وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ باليتيمين اللذين كانا سيفقدان مالهما، لو انهدم الجدار، وانكشف الكنز فسيتم نهبه. وأخيرًا كشف الخضر لموسى مصدر علمه، فقال: ﴿وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى ۚ ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾.

هو علم لا يطاق، وقد أُبتلي الخضر به.. ابتلي برؤية مستقبل أسود، ومشاريع مجرمين.. هموم لو حملها البشر لأصيبوا بالاكتئاب، ولما توقفت أنهار الدماء في العالم يومًا واحدًا.

هنا افترق موسى والخضر عَلَيْهِمَا السَّلَامُ، وليتهما لم يفترقا بهذه السرعة.. أمنية باح بها النبي محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال: «**يرحم الله موسى، لوددنا لو صبر حتى يقص علينا من أمرهما**»[1].

افترق النبي عن الولي، فكم هي المسافة بينهما؟



المساحة بين الولي والنبي

النبي وحي لإنقاذ البشر، يحييهم به الله، ويسعدهم.. ينشر التوحيد والعدل.. النبي قدوة.. منارة.. ضوء في قلب الظُّلمة.. دونه يتيه البشر، ويضيعون.. دونه تجتاح العالم الوثنية والظلم والفساد.. النبي معاناة ومكابدة، وتضحيات وعذابات.. قد يموت مقتولًا أو مسجونًا أو طريدًا، وقد يموت حاكمًا.. النبي تجسيد للخلافة والنظام على الأرض.

أما الولي فإلهام وكرامات تنهال عليه وحده، وتهمه وحده.. تؤنس وحشته بعد أن جعل الله أنيسه.. يجد سعادته بذكر ربه بعيدًا عن البشر.. بعيدًا عن الحشود

(١) صحيح البخاري (١٢٢).

والمريدين والاتباع والمداحين في الحل والسفر.. الولي حالة انشغال بالله عن الخلق.. حب لله يجرف القلب، فينسى ما حوله ومن حوله، وروحانية تنفر من الشهرة والجاه والحاشية والمنصب.. باطنه أنقى من ظاهره، وقد لا يكون له قدر بين الخلق.. قد لا يفتقد إذا غاب، ولا يؤبه له إن حضر، لكنه لو أقسم على الله لأبره، والله يقول: «ما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته: كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، وإن سألني لأعطينه، ولئن استعاذني لأعيذنه»[1]، لكنه لا يقدم في حياة البشر أو يؤخر.

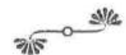
أما من من يتوسلون بضريحه أو يتاجرون ويسترزقون بكراماته.. هؤلاء يتجاهلون أنها من عند الله سبحانه.. يتناسون الحي القيوم، ويتمسحون بضريح ميت مرهون بعمله، لا يملك من أمره شيئًا، فضل النبي على الولي واضح، لأنه لا يخرج عما جاء به النبي، ولا يوحى إليه بشرع.

افترق الخضر الولي عن موسى النبي عَلَيْهِمَاالسَّلَامُ، وعاد كليم الله لشعبه المشاكسين، الذين ظلوا محصورين في سيناء أعوامًا، لذا اضطروا إلى التعامل مع أهل المناطق المتاخمة لهم، ومع الأيام والأشهر والسنوات صار بعضهم ثريًّا، وكان من بينهم تاجر إسرائيلي، بلغ ثراء فاحشًا، لم يصل إليه أحد قبله، يقال له قارون.. تضاعفت ثروته بشكل هائل، حتى آتاه الله ﴿مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُوْلِى ٱلْقُوَّةِ﴾، أي أن مفاتيح صناديق وأبواب مخازنه، يصعب على الرجال الأقوياء حملها، فكيف بثروته، لكنه أصيب بالجشع.

لم يكتف بعدم شكر الله على ما وهبه من ثروة.. صار يفتل الحيل للسطو على أموال الفقراء الإسرائيليين.. وإذلالهم.. تحول إلى حوت، يلتهم ضعفاءهم،

(١) صحيح البخاري (٦٥٠٢).

حتى ضجوا منه، ووصف الله فساده، فقال سبحانه: ﴿إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ﴾، وما من عقوبة أسرع من عقوبة البغي[1].



قارون رجل أعمال برتبة مجرم

تحول التاجر الإسرائيلي الهائل الثروة (قارون) إلى حوت، يلتهم الفقراء الإسرائيليين، حتى ضجوا منه، ووصف الله فساده، فقال سبحانه: ﴿إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ﴾، وليس هناك أسرع عقوبة عند الله من البغي.. خاصة البغي على الأقارب.. قد يمهل الله الكافر والمشرك حتى البعث، بل قد ينصره إن كان عادلًا، أما البغي فليس هناك أسرع من عقوبته.. سواء جاء من مسلم أو كافر.

ظل قارون في بغيه واستغلاله للضعفاء، حتى انقسم بنو إسرائيل حوله إلى ثلاثة أقسام:

قسم يتمنى أن يكون مثله، مهما كانت وسائل ربحه وحيله.

وقسم يئن من استغلاله وثقل فوائد ديونه، ويضج من رباه.

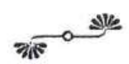
وقسم ثالث محتسب طيب ناصح.. يخشى عليه من عقوبة، قد تحل به، لذا توجه هؤلاء يومًا لنصحه، وقالوا: ﴿وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾، لكن قارون كأي ثري مغرور.. يرى أن هؤلاء مجرد

(١) سنده قوي رواه أحمد (٢٠٣٩٨)، وغيره من طرق عديدة عن عيينة بن عبدالرحمن الغطفاني، وهو صدوق، عن أبيه وهو ثقة، عن أبي بكرة، قال: قال رسول الله ﷺ: **«ما من ذنب أحرى أن يعجل الله العقوبة لصاحبه في الدنيا، مع ما يدخر له في الآخرة، من البغي، وقطيعة الرحم»**.

حفنة من الجهلة بالاقتصاد، يقتلهم الحسد، لأنهم لم يصلوا إلى ما وصل إليه، ولذا رد عليهم ردًا طافحًا بالغطرسة والكبر، وكأنه لا فضل لله عليه، قائلًا: ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓ﴾.

تفرق الناصحون عن قارون بعد أن يئسوا منه تجاهله لنصائحهم، فالتف حوله الوصوليون والمنتفعون والمتسولون، وذات يوم خرج من قصره كالطاووس.. يتبختر في الأسواق، مرتديًا الحرير والحلل.. لا يكاد يرى على الأرض سوى نفسه.. وسط تأوهات المتذمرين من أوضاعهم المادية، وهم يقولون: ﴿يَٰلَيۡتَ لَنَا مِثۡلَ مَآ أُوتِيَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٖ﴾، لا يهمهم كيف جمع ثروته من حلال أم من حرام، ولا كيف يوظفها.. فنصحهم العقلاء، فقالوا لهم: ﴿وَيۡلَكُمۡ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيۡرٞ لِّمَنۡ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗاۚ وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ﴾.

لكن هؤلاء المعجبين تجاهلوا نصيحة الناصحين، وظلت أعينهم تتابع الطاووس.. لم يعلموا أن جولته الاستعراضية كانت الجولة الأخيرة. عاد قارون لقصره، وقد امتلأ رأسه بالمديح والتبجيل، والهتاف والتسول، الذي أسكره عن مالك الملك، وواهب الأغنياء، الذي وهبه تلك الثروة، فلما دخل قصره.. سمع الناس دويًا في الحي الذي يسكنه، هز المدينة. انفتحت الأبواب، وخرج الناس مذعورين.. انطلقت آلاف الخطوات نحو مصدر الصوت، فإذ بها تلتقي حول هاوية مروعة خلعت القلوب.



حين ارتجت المدينة

انفتحت أبواب المدينة على إثر دوي ورجفة هائلة هزت القلوب والمدينة.. خرج الناس من بيوتهم في حالة ذعر يتلفتون ويتساءلون.. انطلقت آلاف

الخطوات، ثم توقفت أمام مصدر الصوت.. توقفت حول حافة فوهة مرعبة، ابتلعت قارون وقصره وكنوزه، وكل المديح الذي كان يكال له.

تحلق المعجبون والحساد والناصحون والمسحوقون حول تلك الهاوية.. تبحث عيونهم عن قارون.. عن قصر قارون.. عن بقايا من كنوز قارون.. عن أي قطعة ثمينة أو حجر كريم تركه خلفه.

لا أثر لشيء.. تحول المكان إلى قبر للبغي والظلم والغطرسة.. قبر بلا غطاء، ولو غطاء من مديح أو حزن أو رثاء.. انتهى قارون بالنسبة لهم.. نفض المعجبون والمتسولون والمداحون أيديهم منه ﴿فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٖ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُنتَصِرِينَ﴾، أصبح ﴿ٱلَّذِينَ تَمَنَّوۡاْ مَكَانَهُۥ بِٱلۡأَمۡسِ﴾، يحدقون بتلاشي بغيه وظلمه أمام قوة الله وبطشه، ﴿يَقُولُونَ وَيۡكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ وَيَقۡدِرُۖ لَوۡلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَا لَخَسَفَ بِنَاۖ وَيۡكَأَنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾.

تحول قارون إلى درس قاس لرجال الأعمال، الذين يغريهم جشعهم بالتحديق في أرغفة الفقراء، ودخلهم المتواضع، وما كان ليكون درسًا لو أدرك أن الله هو من منحه العقل والقدرة على جمع تلك الثروة، وما كان ليجمعها لو أن ربه خلقه متخلفًا أو أبكم أصم.

انتهى قارون، وبقي موسى ﷺ يعاني من أمثاله حتى شاخ.. ضعف كليم الله شيئًا فشيئًا، ثم مات بعد أن أمر بوضع الألواح، وما نزل من التوراة في تابوت.. مات في سيناء، أرض الوادي المقدس والنار والنور والتيه والمعجزات، بعيدًا عن مسقط رأسه.. محرومًا من مهوى فؤاده بيت المقدس، بسبب خذلان الإسرائيليين له، فخلفه أخوه هارون ﷺ الذي ما لبث أن مات أيضًا، فبكى الإسرائيليون نبييهما العظيمين.

بكوا تضحياتهما وبذلهما، فتولى القيادة يوشع بن نون، الذي استلم تابوت التوراة، ثم مات يوشع، وخلفه أنبياء تعرض بعضهم لحروب، تسببت في

تشردهم، وضياع التابوت، وضياع التوراة معه، إلا ما علق ببعض الذاكرة العشوائية، مع العلم أنه لم يوجد من التوراة إلا تلك النسخة الضائعة، التي لم تكن متاحة إلا لشخص أو شخصين، ثم جاء جيل شعر بالندم على ممارسات سلفهم الاتكالي، الذي استمرأ الخنوع.. سلف يريد أن تقوم المعجزات على خدمته، فهل ينجح الجيل الإسرائيلي الجديد في تعويض ما فات.



جيل رباه موسى وهارون

مات هارون بعد موسى عَلَيْهِمَاالسَّلَامُ، وبدأ الجيل الذي خرج معهما من مصر بالأفول والانقراض.. كان جيلًا اتكاليًّا عنيدًا مناكفًا.. جيل استمرأ الخنوع والقمع.. جيل يريد أن تقوم المعجزات على خدمته، وأن تكون الكرامات رهن إشارته، حتى وهو يمارس الموبقات، فسلط الله عليهم من يشردهم ثانية داخل سيناء حتى انتهوا، ثم ظهر هذا الجيل الإسرائيلي الجديد، الذي شعر بالحسرة على ضياع التابوت الخشبي، الذي وضع فيه موسى لوحي التوراة، وأوراق الشريعة التي دونت فيها الأحكام.. جيل شعر بالخزي من خذلان آبائهم لموسى في دخول الأرض المقدسة، لذا ظل دخولها هاجسهم، فتشاور بعضهم، ثم توجهوا نحو آخر نبي لهم، وكلهم تصميم على دخول الأرض المقدسة، قائلين: ﴿ٱبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾.

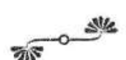
تأمل ذلك النبي حماسهم، فنبههم إلى أن القتال ليس سياحة، ولا حماسًا وبطولات خيالية في قصص تروى.. هو تضحيات وصبر، لذا أراد التأكد من عزمهم، فقال لهم: ﴿هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ أَلَّا تُقَٰتِلُوا۟﴾.

فأجابوه مباشرة، ودون تردد، و﴿قَالُوا۟ وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَٰرِنَا وَأَبْنَآئِنَا﴾، وإذ بالوحي ينزل على نبيهم، ليحدد لهم اسم ملكهم،

﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا﴾، وما إن سمعوا باسم الملك الجديد، حتى لاحت المناكفات والاحتجاجات.

كانت نظرتهم للأمور قاصرة.. محصورة في الوجاهة والثروة، لا في القدرات القيادية، لذا قالوا لنبيهم: ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِ﴾، فحسم الأمر بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ ۖ وَٱللَّهُ يُؤْتِى مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾، ثم ذكر دليله على أن طالوت مختار من عند الله، وهو أن الملائكة ستقوم بإعادة التابوت الضائع، قائلًا: ﴿إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَـٰرُونَ تَحْمِلُهُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾.

حدثت المعجزة، ورأى بنو إسرائيل التابوت بين يدي طالوت، فلم يجدوا مفرًّا من التسليم له، ومبايعته ملكًا. ومباشرة أصدر أمره بالتأهب لدخول الأرض المقدسة.. عندها بدأ أغلبهم بالمماطلة والتلكؤ، فسار بالبقية، لكن طالوت لم يطمئن لهذه البقية.. أراد التأكد، لذا قام بإجراء اختبار قاس، لمدى صمود هذه البقية الإسرائيلية، فإذ به يصدم بالنتيجة.



داود البطل

سار طالوت بجيشه، ولم تكن الجيوش آنذاك بالأعداد المبالغ بها في الكتاب المقدس أو كتب التاريخ، فسكان تلك المنطقة ليسوا بهذه الكثرة.. سار طالوت لمواجهة جيش أكبر منه وأقوى، يقوده فارس وثني متمرس، ومبارز شرس اسمه (جالوت)، وفي الطريق مر الجيش المؤمن بنهر، فإذ بالوحي ينزل على النبي، يأمره باختبار جيشه.

توقف طالوت، وتوقف جيشه أمام النهر، ثم استدار نحوهم، وهتف بهم طالبًا منهم عدم الشرب من النهر، أكثر من ملء الكفين، قائلًا: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُۥ مِنِّيٓ إِلَّا مَنِ ٱغْتَرَفَ غُرْفَةًۢ بِيَدِهِۦ﴾، لم يأبه الإسرائيليون بهذا الاختبار. نزل الجيش حول النهر، وتسابق الجند نحوه يغتسلون، ويملؤون القرب والمزادات، ﴿فَشَرِبُواْ مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ﴾.

كان طالوت ينظر إلى المشهد على حافة النهر بحسرة.. نظر للمؤمنين الصامدين معه، فإذ بهم لا يتجاوزون (بضعة عشر وثلاث مئة)، والتفت إلى تلك الكثرة.. حدق بهذا الغثاء، فطلب منهم البقاء في أماكنهم أو العودة، فلا خير في جيش لا ينفذ الأوامر، ولا نفع في جيش لا يعرف الصبر، ثم طلب من القلة الباسلة أن تعبر النهر معه.

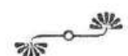
تحركت الجنود خلفه، وبقي المخذولون يحرسون قربهم.. ساروا حتى اقتربوا من جيش جالوت، وإذ ببعضهم يصاب بالصدمة.. إنهم أكثر من ضعف جيش طالوت، فحصل حوار جميل داخل الجيش المؤمن.. حيث قال المصدومون: ﴿لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ ۚ قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ ٱللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾.

شدت تلك الثقة بالله من أزر المصدومين، فعزموا على القتال.. بدؤوا بالدعاء، فلا مفر من الله إلا إليه، وما خرجوا إلا نصرة لدينه، ﴿وَلَمَّا بَرَزُواْ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ قَالُواْ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾، وفجأة دوى صوت مخيف.

صاح جالوت الشجاع، طالبًا المبارزة، وإذ بفتى مؤمن متواضع يتخلل الصفوف.. فتى جسور، لا يهاب جالوت ولا الموت، اسمه داود.. كان الوثنيون يحدقون بالفتى، وكأنما يحدقون بمتهور باع نفسه.

دنا داود من جالوت، وسـل كل منهما سـيفه، فإذ بسيف داود يعاجل جالوت، فـإذا هو يتلبط على الأرض.

خـر القائـد الوثنـي، فانهارت معنويـات الوثنييـن، وهم يرون فتـى يجهز على قائدهـم وأشـجعهم.. نصر لم يحمل داود نحـو الغرور.. حمله إلى شـيء أرقى.



داود بين الجبال وأسراب الطيور

انهـارت معنويـات الجيـش الوثني، بعد سـقوط قائـده جالوت علـى يد الفتى داود.. تحولـوا إلـى شـظايا.. انقشـع غبـار المعركـة، فـإذا هـم بين قتيل وأسـير، وفلـول هاربـة.. لم يتبختـر داود، كمـا تبختـر قـارون.. لم تـزده مياديـن الفـداء إلا تواضعًـا.. ظـل جنديًّـا مخلصًـا لملكـه طالـوت.. يتهـادى خلفـه نحـو بيـت المقـدس فـي موكـب.. يحمـل التابوت الخشـبي، الـذي يحتوي الألـواح وبقايا التـوراة، التـي ضـاع معظمها.

لم يسـتغل داود منصبـه في التسـلط، بل سـخر قدراتـه في حماية دينه وشـعبه وديـاره المقدسـة.. ظـل فتـى عابـدًا مخلصـا لله.. صوامًـا قوامًا، حتـى أثنى عليه نبينـا عَلَيْهِ السَّلَامُ فقـال: «**أحـب الصيـام إلـى الله صيـام داود، كان يصـوم يومًـا ويفطر يومًـا، وأحـب الصـلاة إلـى الله صـلاة داود، كان ينـام نصـف الليـل، ويقـوم ثلثه، وينام سدسـه**»[1].



أحبـه شـعبه حتـى شـيدوا له عروشًـا فـي قلوبهـم، وبايعوه ملـكًا عليهـم بعد رحيـل طالوت، ﴿وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ﴾، فبسـط حكمـه على القـدس والديـار الفلسـطينية حولهـا، وظـل متواضعًا نزيهًـا لدرجة

(١) صحيح البخاري (٣٤٢٠).

أنـه كان «يـأكل من عمل يـده»[1]، فاصطفـاه الله نبيًّا، وأنزل عليـه الوحي، وأجرى سـبحانه علـى يديـه معجـزات، لـم تكن لأحـد من الأنبيـاء قبله.

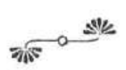
كانـت معجـزات داود تذهل البشـر.. تخطـف قلوبهم.. تحلـق بأرواحهم في عالـم غيـر العالـم، فقد أنـزل الله عليه كتـاب (الزبـور)، ووهبه صوتًـا تماهت فيه القـوة بمنتهى العذوبـة والجمال، فكان يتغنـى بتلاوة الزبور، و«ما أذن الله لشـيء مـا أذن لنبي حسـن الصوت يتغنـى بالقرآن، يجهـر به»[2].

زادت ابتهـالات داود روحانيـة، بعدمـا أمـر الله الجبـال والطير أن تـردد معه، فقال: ﴿يَٰجِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ﴾، إذا شـدا عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ بيـن الأودية والجبال وتغنى.. رددت الجبـال معـه تسـبيحًا لله وتقديسًـا، فإذا الكـون لوحة تأخذ شـغاف القلب وتذهـل العقـل.. تحلـق فيهـا الطيـور فـوق داود.. تحـوم حوله أسـرابًا سـارحة وبارحة، مسـبحة لله حين شروق الشـمس، وحين الغروب.. في أعذب الأوقات، وأكثرهـا روحانية.

كلمـات وأجنحة وأصـوات عذبة، تشـهد بنبوته.. يقـول الله عنها: ﴿إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِشْرَاقِ ﴿١٨﴾ وَٱلطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾، عالـم حالـم، يأسر المشـاعر، فتفيـض العيـون، وكأن الكـون محـراب لا حـدود لـه، وكأن السـامع والمشـاهد يحلقان فـي معـراج نوراني مهيب.



لـم تكـن معجـزة الصوت السـاحر، المعجـزة الوحيدة لـداود.. هنـاك خارقة أخـرى، لا تقـل إبهارًا.



(١) صحيح البخاري (٢٠٧٢).
(٢) صحيح البخاري (٧٥٤٤).

داود خائف

لـم تكن معجـزة الصـوت السـاحر المعجـزة الوحيـدة لـداود عليه السلام.. هناك خارقـة أخـرى لا تقـل إبهـارًا تنثال بيـن يدي هـذا النبـي الأواب.. تماهـت لديه العذوبـة الأخـاذة بالقـوة الجبارة.

لان لـه الحديـد فـي معجـزة يراها المـرء، فيوقن أنه أمـام نبـي.. كان يمد يديه نحـو الحديـد الصلـب، فيمسـكه ويعالجـه، فـإذا به يليـن بيـن أناملـه، كالعجين أو الصلصـال، دون عنـاء أو جهد.. دون قفـازات أو لهب أو أفـران.. معجزة من معجـزات الخالق سـبحانه، الذي إذا أراد شـيئًا قال له: كن فيكـون. والذي يقول: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا ۖ يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ ۖ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ﴾.

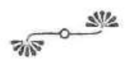
أمـره الله بصنـع دروع سـابغة، تغطي أطـراف جنـده وتحميهـم، وألهمه صنع المسـامير بدقة، تتناسـب مع الحلقـات، حيث يقول سـبحانه: ﴿أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ ۖ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾، ورغـم أنـه كان حاكمًا وعابدًا وقاضيًـا عـادلًا، إلا أنه تعرض يومًـا لما يتعرض له البشـر.

فتنـه يومًـا مـن الأيـام عـارض مـن عـوارض الدنيـا، فمـال فـي حكمـه إلـى عاطفتـه، فإذ بـه يفاجأ، وهو في أنقى لحظـات اتصاله بالله، وأهـدأ أماكن عزلته.. فـي غرفـة تعبـده المغلقة، التـي تسـمى المحـراب.. والتي يبـدو أنهـا كانت غير مسـقوفة.. يفاجـأ فـي لحظـات الخلـوة تلـك بشـخصين يتسـوران المحـراب، ويتسـلقان جدرانـه، دون أن يشـعر بهـم الحـرس.

ارتجـف قلـب داود، وهـو يراهمـا أمامـه.. يقطعـان عليـه خلوتـه دون إذن أو موعـد أو سـابق إنـذار.. شـخصان غريبـان ليسـا مـن أهلـه، ولا مـن سـاكني القصـر، بـل ولا حتى من أهل مدينـة القـدس أو مملكته. يقبلان عليـه.. يحدقان بـه، فيقـرأان في نظراته ارتباك الخـوف ﴿دَخَلُوا۟ عَلَىٰ دَاوُۥدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ ۖ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ﴾،

اطمـأن نبـي الله، وهدأت مشـاعره، فعـرّف الغريبان بنفسـيهما، وقالا: ﴿خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَٱحْكُم بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَٱهْدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ﴾.

وقبـل أن يسـألهما داود عـن قضيتهمـا، استرسـل أحدهمـا، وترافـع عـن نفسـه، قائـلًا: ﴿إِنَّ هَٰذَآ أَخِى لَهُۥ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِىَ نَعْجَةٌ وَٰحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِى فِى ٱلْخِطَابِ﴾. لم يأخـذ الأمر كثيـر تفكير من الملـك العادل، فقـال للمترافع: ﴿لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦ ۖ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ لَيَبْغِى بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ﴾، وبعـد أن أصـدر داود حكمه انتبه.. أدرك أن هذين المتسـللين ملـكان، بعثهمـا الله إليـه؛ لتنبيهه إلـى خطئه.



إنابة داود وتوبته

انتبـه داود.. تذكـر صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خطـأه، وأدرك أنهمـا ملـكان، بعثهمـا الله إليـه لتنبيهـه، حيـث يقـول الله: ﴿وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ﴾، سـجد ندمًـا وتوبـة وإنابـة إلـى ربـه.. ابتهـل إلـى الجبـار العظيـم، الـذي منحـه ما لـم يمنـح غيـره طالبًـا الصفـح والغفـران، فقـال الرحيم الرحمـن: ﴿فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ ۖ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ﴾.

ليـس هنـاك مـن لا يخطـىء، وارتـكاب الخطـأ مـن طبيعـة البشـر، والنبـي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يحلـف قائـلًا: «والـذي نفسـي بيـده لـو لم تذنبـوا، لذهـب الله بكـم، ولجـاء بقـوم يذنبـون، فيسـتغفرون الله، فيغفـر لهـم»[1]، ولـذا فمهمـة الأنبيـاء تتلخـص بأمريـن: تصحيـح العقائـد بالتوحيـد، لكن من غيـر إلـزام أو جبر، فمن شـاء فليؤمن ومن شـاء فليكفر، فالحسـاب علـى العقائد يوم الديـن.. يوم البعث

(١) صحيح مسلم (٢٧٤٩).

والهول والحساب ﴿وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ﴾.

أما المهمة الأخرى للأنبياء، فإلزامية لا خيار، ولا استثناءات فيها، وهي إقامة العدل، ولذا ألزم الله داود بتنفيذ هذه المهمة، قائلًا: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ﴾.

ظل داود ينشر العدل، ويحارب الظلم والفساد، حتى قويت دولته.. يعاونه ابنه الأكبر سليمان، الذي قال الله عنه: ﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيْمَٰنَ ۚ نِعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾، وأنزل عليه الوحي في حياة والده، فقال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًا ۖ وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، وقد مارسا مهمة القضاء جميعًا، بل أحيانًا يترافع الخصوم عند داود ثم عند سليمان.

كانوا يأتون داود أولًا، ثم يترافعون عند سليمان، وكأنها عملية استئناف.

ففي أحد الأيام وفي البرية.. كان هناك امرأتان تتنزهان، وربما ترعيان الغنم، ومعهما طفلان صغيران.. كان الطفلان يلهوان، بينما انشغلت الأمان بأمر ما، وفي لحظات الانشغال تلك اقترب مخلوق مخيف من الطفلين.. دنا فإذا هو ذئب، قد كشر عن أنيابه.. هاجم الذئب أحد الطفلين واجتره بعيدًا.

التفتت المرأتان على الصراخ، فإذ بالفاجعة.. الذئب يجتر الصغير ويمزقه، ويمزق معه قلب الأم، التي صرخت وصرخت، ولكن بعد فوات الأوان.. فقدت الأم المفجوعة صوابها، لدرجة ذهبت معها لداود تدعي فيه أن ابنها لم يمت، وأن المأكول هو طفل تلك المرأة.



أم تفجع مرتين أيام داود

افترس الذئب أحد الطفلين واجتره بعيدًا، فكادت أمه أن تفقد صوابها، بل فقدته، حين توجهت نحو داود صلى الله عليه وسلم تدعي فيه: أن الطفل الذي افترسه الذئب هو ابن صاحبتها. فحكم داود لها، فاستأنفت الأم الحقيقية الحكم عند سليمان صلى الله عليه وسلم.

وقفت المرأتان أمامه، فتأمل تصرفاتهما في أثناء مرافعاتهما، فأصدر حكمًا مفجعًا.. هتف بحاجبه، وأمره بأمر اتسعت له عيونهما، وارتجف له قلباهما، وهو يقول: «ائتوني بالسكين أشقه بينهما».

سكتت المدعية، وانهارت الأخرى.. لا تريد له الموت.. ناشدته الرحمة، وهي تقول: «لا تفعل، يرحمك الله هو ابنها»[1] سكت الجميع، وإذ بسليمان ينطق بحكم مفاجىء.. أمر بتسليم الصغير للمرأة، التي ناشدته ألا يؤذي الصغير، لأن الأم لا يمكن أن تضحي بطفلها، ولو كان سيؤخذ منها.

وفي قضية أخرى حدثت ذات ليلة، حين أهمل أحدهم غنمه، فساحت في الأراضي المجاورة، حتى انتشرت داخل بستان عامر بالثمار.. نفشت الغنم في الزرع، وأكلت الثمار، وعاثت حتى أصبحت المزرعة حطامًا.



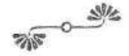
أشرقت الشمس، واستيقظ صاحب المزرعة، فهاله ما جرى لمزرعته فهرع إلى داود يشكو صاحب الغنم، فحكم له حكمًا، جعله يتوجه نحو سليمان، الذي حكم له حكمًا آخر، فلم يعاتب الله داود على اجتهاده، بل جعل للقاضي المجتهد أجرًا وإن أخطأ، ما دام لم يحكم بهواه، أما إذا انحاز إلى طرف على طرف، فيكون القضاء وبالًا على صاحبه، فـ«القضاة ثلاثة: قاضيان في النار، وقاض في الجنة، رجل قضى بغير الحق فعلم ذاك فذاك في النار، وقاض

(١) صحيح البخاري (٦٧٦٩).

لا يعلم فأهلك حقوق الناس فهو في النار، وقاض قضى بالحق فذلك في الجنة»[1].

كانت مدة حكم ونبوة داود وسليمان حافلة بالعدل والعجائب والخوارق، وبالقوة الهائلة في جسد كل منهما وسلطته، لكن سنة الله ماضية.. كبر داود وشاخ، ثم مات، ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ﴾، ورثه في الحكم، وليس في المال، فالأنبياء لايورثون: ميراثهم يوزع صدقة على شعوبهم، وقد قال النبي ﷺ: «إنا معشر الأنبياء لا نورث»[2] «لا نورث ما تركنا صدقة»[3].

تولى سليمان الحكم بعد وفاة والده، وسار على نهجه في العدل والقوة، واصطفاه الله نبيًّا، وآتاه ملكًا يفوق ملك والده، وحباه بمعجزات، خاطب شعبه عنها يومًا، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ﴾، وفي أحد الأيام كان يتفقد خيله المحببة.. يتأملها معجبًا بها، لكن هذا الإعجاب أدخله في عالم من الحزن والندم.



توبة سليمان

سار سليمان ﷺ على نهج والده في العدل والقوة، وآتاه الله ملكًا يفوق ملك والده، فذات يوم كان مشغولًا، بتفقد خيله ﴿إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِٱلْعَشِىِّ ٱلصَّٰفِنَٰتُ ٱلْجِيَادُ﴾، معجبًا بجمالها وأصالتها وحسنها.. قد صفت أمامه..

(١) سنده قوي رواه الترمذي (١٣٢٢) وغيره من طرق عن سليمان وعبد الله ابني بريدة عن والدهما أن النبي ﷺ قال. وابني بريدة ثقتان.

(٢) سنده صحيح رواه أحمد (٩٩٧٢) حدثنا وكيع عن سفيان عن أبي الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة. قال قال رسول الله ﷺ. وكيع وسفيان إمامان ثقتان، وأبو الزناد وشيخه عبد الرحمن بن هرمز ثقتان أيضًا. والحديث في الصحيح كما في الحديث الذي يليه.

(٣) صحيح البخاري (٤٠٣٣).

يتأملها، ويتحدث لمن حوله عنها.. يمسح نواصيها وأعرافها.. ظل كذلك لا تشبع عيناه من تمليها والشغف بها، حتى توارت الشمس بالحجاب، وغابت خلف الأفق.

أفاق سليمان من عالمه، فإذا إحدى الصلوات المكتوبة آنذاك قد فاتته، فحزن حزنًا شديدًا، وأمر بإبعاد الخيل عنه، وهب للصلاة والدعاء والإنابة طويلًا، وبعد أن فرغ التفت لمن حوله، فباح لهم بذنبه، ﴿فَقَالَ إِنِّيٓ أَحۡبَبۡتُ حُبَّ ٱلۡخَيۡرِ عَن ذِكۡرِ رَبِّي حَتَّىٰ تَوَارَتۡ بِٱلۡحِجَابِ﴾.

كان ذكر الله زاد الأنبياء على كل حال وفي كل حين.. ذكر الله هو غذاء أرواحهم.. ذكر الله هو الشلال، الذي يغسل همومهم ومعاناتهم، ويخفف من ضغط المسؤوليات الثقيلة عليهم.

هدأ غضب سليمان، فطلب من الجند إعادة الخيل، وقال: ﴿رُدُّوهَا عَلَيَّۖ فَطَفِقَ مَسۡحَۢا بِٱلسُّوقِ وَٱلۡأَعۡنَاقِ﴾، ظل يمسح قوائمها الرشيقة وأعناقها.. تلامس أنامله أعرافها الناعمة برفق، وكأنه يعاتبها، ويعاتب حبها.



لم تكن فتنة الخيل الفتنة الوحيدة، التي مرت بسليمان ﷺ، ولكن لأنه ولد ملكًا ابن ملك.. كان شغفه وحلمه بدولة قوية، تخدم التوحيد لا حدود له.. كان يحلم بسلطة تذل لها قوى الشر، لذا دعا ربه فقال: ﴿رَبِّ ٱغۡفِرۡ لِي وَهَبۡ لِي مُلۡكٗا لَّا يَنۢبَغِي لِأَحَدٖ مِّنۢ بَعۡدِيٓۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡوَهَّابُ﴾، هكذا كان حلم سليمان.. ملكًا لا يدانى في نشر التوحيد والعدل.

لم تكن تلك الدعوة الوحيدة، فقد قام سليمان بإعادة بناء المسجد الأقصى، وبعد أن بناه سأل الله ثلاثة أشياء.. سأل الله:

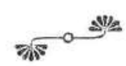
«حكمًا يصادف حكمه، فأعطاه الله إياه.

وسأله ملكًا لا ينبغي لأحد من بعده، فأعطاه إياه.

وسأله أيما رجل خرج من بيته لا يريد إلا الصلاة في هذا المسجد خرج من خطيئته مثل يوم ولدته أمه».

ولذا علق النبي محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على دعوته الثالثة، فقال: فنحن نرجو أن يكون الله عَزَّوَجَلَّ قد أعطاه إياه»(١).

هطلت زخات الهبات الإلهية على سليمان.. لا تدري أصبح ملكًا في السماء أم ملكًا على الأرض، أم ملكًا في البحار؟.. إنها باختصار نفحة من كرم مالك الملك، الذي يقول: ﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِى بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ ﴿٣٦﴾ وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ ﴿٣٧﴾ وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴿٣٨﴾ هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾، عطاء بلا حدود، وملك بلا مقاييس، ما زاد سليمان إلا تواضعًا للجبار سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.



عجائب مملكة سليمان

ناشد سليمان صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ربه عَزَّوَجَلَّ ملكًا فريدًا.. ملكًا استثنائيًّا في قوته وهيبته، لا ليباهي به، بل لينشر به التوحيد، ويحقق به العدل.. دعا الله، فقال: ﴿رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ﴾، وإذ بزخات الهبات الإلهية تهطل على سليمان، ففي السماء ﴿ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ﴾، ﴿ٱلرِّيحَ تَجْرِى بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ﴾، وكأن الآية تحدد أبعاد دولة سليمان بالمسافة، التي يقطعها المسافر تلك الأيام في مدة شهر.. كان سليمان يتحكم في الريح، ضمن تلك المساحة.

ليست الريح فقط.. الطير سخرت له أسرابًا وأفرادًا، ومن التسخير أن ألهمه

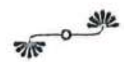
(١) سنده صحيح رواه أحمد (٦٦٤٤) وغيره من طرق عن الثقات ربيعة بن يزيد و أبي زرعة السيباني وغيرهم عن الثقة عبد الله بن فيروز الديلمي عن عبد الله بن عمرو مرفوعًا.

الله القـدرة علـى التواصـل معهـا، وتوجيههـا حيـث يريد، أمـا علـى الأرض فلم يكـن لسـليمان من الجنـود الكثير، نظـرًا لقلة الإسـرائيليين وتلكئهـم، لذا عوضه الله بقـوى خارقة.

سـخر له الجـن.. حتى الكفـار ﴿ وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٖ وَغَوَّاصٖ ﴿٣٧﴾ وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي ٱلۡأَصۡفَادِ ﴾، أمـا مـردة الجـن فتم تقييدهـم، وإرغامهم علـى الانقياد لـه، وأعطاهم الله القـدرة على الظهور والبناء والتشـييد لـه: ﴿ يَعۡمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٖ كَٱلۡجَوَابِ وَقُدُورٖ رَّاسِيَٰتٍۚ ٱعۡمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكۡرٗاۚ وَقَلِيلٞ مِّنۡ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ ﴾، بل إن الجبار سبحانه حذرهم من التمرد على نبيه، وتوعدهم، فقال: ﴿ وَمِنَ ٱلۡجِنِّ مَن يَعۡمَلُ بَيۡنَ يَدَيۡهِ بِإِذۡنِ رَبِّهِۦۖ وَمَن يَزِغۡ مِنۡهُمۡ عَنۡ أَمۡرِنَا نُذِقۡهُ مِنۡ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴾، وكمـا ألان الله الحديـد لوالـده داود، فقـد ألان الله لسـليمان النحاس، بل أسـاله لـه كي يصنع به ما يشـاء، فقال: ﴿ وَأَسَلۡنَا لَهُۥ عَيۡنَ ٱلۡقِطۡرِ ﴾.

هـذا هـو ملـك سـليمان: عالـم مـن العجائـب والمعجـزات، يمتد مـن لجج البحار إلى ذرى السـماء.. قوى بسـط سـليمان مـن خلالها العدل والنظام ونشـر التوحيـد. لم يتعـرض هـذا النبـي لمـا تعـرض لـه بقيـة الأنبيـاء مـن الاضطهـاد والتشـريد والفقـر والمعانـاة.. كان مهابًـا تجلـه الممالـك المجـاورة، وتخطـب وده وتتـودد إليـه، فلا أحـد يسـتطيع الصمود أمامـه أو اسـتفزازه، فمـا زاده ذلك إلا تواضعًـا مـع الصغيـر قبـل الكبيـر، ومـع الضعيف قبـل القوي.

ذات يوم ﴿ وَحُشِرَ لِسُلَيۡمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ وَٱلطَّيۡرِ فَهُمۡ يُوزَعُونَ ﴾، ويتم ترتيبهم، بحيـث لا يتقـدم أحد، أو يتأخر عن موقعـه، الذي وضع فيه، وفي أثنـاء الترتيبات رصـد سـليمان لغة لا تنتمـي لعالم البشـر.. لغـة خائفـة مرتبكة، تتوجس خشـية جيشـه المهاب، وما إن رصدها حتى انصدع قلبه خشـوعًا وامتنانًا لله سـبحانه.



سليمان غاضب

رصد سليمان صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في أثناء تفقد جيشه لغة خائفة، وحركة مرتبكة.. لغة لا تنتمي لعالم البشر.. صادرة من قرية للنمل قريبة من موقع الجيش.. نملة تقول: ﴿يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾.

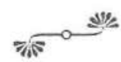
انصدع قلب سليمان امتنانًا لله، وهو يرى ما حوله من عوالم، خصه الله بتسخيرها من بين جميع الأنبياء، ﴿فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ﴾، فالذي منحه هذه النعم قادر على أن يسلبها منه.

تفقد جيش الإنس وجيش الجن، ولما توجه للجانب المخصص للطير، الذي يبدو أنه قد حضر عن كل نوع من الطير طائر يتواصل معه.. رأى مكان الهدهد شاغرًا، فهتف غاضبًا: ﴿مَا لِيَ لَا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ ﴿٢٠﴾ لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾.

لم يجبه أحد، فلا أحد وسط هذه المملكة مشغول بغير وظيفته، أما سليمان فكما هو أواب وشاكر.. هو حازم جدًّا، لأن مملكته تمتد من أعماق البحر إلى ذرى السماء.. مملكة تجمع المتناقضات.. إن لم يكن الحزم والعدل نهجها، تفلت شظايا، لكن غضبه هدأ حين رأى الهدهد يرفرف نحوه بعد مدة.. يقبل بكل ثقة، ودونما ارتباك أو اعتذار، فقد وقع على مشهد شده وأشغله، وما إن هبط حتى قال مباشرة: ﴿أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ﴾، ثم استرسل، فقال: ﴿إِنِّي وَجَدتُّ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾، ثم بين عقيدتها وعقيدة قومها الوثنية، فقال: ﴿وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ﴾.

لم يتوقف عند ذلك.. ظل يتكلم مبينًا استهجانه لوثنيتهم، وقائلًا: ﴿أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ (٢٥) اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾.

كان الحضور يحدقون بهذا الطير الجميل، وتاج الريش الملون، الذي يزين رأسه دون أن يفهموا شيئًا.. كانت لغة ثنائية بينه وبين سليمان ﷺ، الذي لم يصدقه ولم يكذبه، بل قرر التحقق من أقواله قائلًا: ﴿سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾، هتف النبي الملك سليمان بخدمه طالبًا إحضار قلم ورقعة للكتابة. ثم كتب فيها: ﴿إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ (٣٠) أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾.



بلقيس أحكم من وزرائها

استدعى سليمان ﷺ كاتبه فأتى، ووضعت المحبرة والرقعة أمامه، فغمس القلم في المحبرة بانتظار ما يملى عليه. نظر سليمان إليه، وبدأ الإملاء: ﴿إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ (٣٠) أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾، سطر واحد فقط، لكنه يغني عن خطب لأنه من سليمان.

جف الحبر، فطويت الرسالة، ونظر سليمان للهدهد، وقال: ﴿اذْهَب بِّكِتَابِي هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ﴾، ثم وضعت الرسالة بطريقة تُمكن الهدهد من حملها وإلقائها.. رفرف الطير الجميل، أيامًا فوق الأودية والصحاري، بل وفوق الجبال، فقد أعطي القدرة على الارتفاع لمستويات شاهقة.. يتوقف لشربة عند نبع، أو يأوي لغصن فينام، حتى أشرف على معبد الشمس وقصر بلقيس.. يتنقل من بستان إلى فناء، حتى رأى الملكة التي

تهادت، وحولها حاشيتها، ثم ارتقت الدرج العريض، نحو عرشها العظيم، المرصع بالأحجار والمعادن الثمينة.

رفرف الهدهد، فألقى الخطاب. فاهتزت الملكة من المشهد، وهي التي تعيش في بيئة لا تخلو من السحر والشعوذة.. مدت يدها نحو الرسالة، وحلت رباطها وفتحتها. ارتجف قلبها من سطر واحد.. من اسم المرسل.. من طريقة إيصاله، ثم هتفت بمستشاريها ووزرائها، وقالت: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَؤُاْ إِنِّيٓ أُلۡقِيَ إِلَيَّ كِتَٰبٞ كَرِيمٌ ۝٢٩ إِنَّهُۥ مِن سُلَيۡمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣٠ أَلَّا تَعۡلُواْ عَلَيَّ وَأۡتُونِي مُسۡلِمِينَ﴾.

تصفحت الوجوه المأخوذة والأعين حولها.. كانت امرأة عاقلة، وملكة حكيمة.. لا تنفرد برأيها، ولا تتعصب له.. كانت تقود شعبها عن طريق المشورة، لذا قالت: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَؤُاْ أَفۡتُونِي فِيٓ أَمۡرِي مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمۡرًا حَتَّىٰ تَشۡهَدُونِ﴾، فإذ بردة فعل عنيفة، تصدر منهم.. أبدوا استعدادًا للقتال والحرب، قائلين: ﴿نَحۡنُ أُوْلُواْ قُوَّةٖ وَأُوْلُواْ بَأۡسٖ شَدِيدٖ وَٱلۡأَمۡرُ إِلَيۡكِ فَٱنظُرِي مَاذَا تَأۡمُرِينَ﴾.

ثمنت بلقيس حماس وزرائها، لكن هذه المرأة التي خرجت للتو من غرفة تبرجها، ومن أمام مرآتها وأدوات زينتها وكحلها، كانت أحكم وأكثر اتزانًا من مستشاريها، فهذا الملك الذي استطاع إيصال كتابه بهذه الطريقة، قادر على أن يفعل بمملكتها العجائب، لذا فلن تقامر بحكمها وبشعبها أمام ملك كهذا، حتى مع افتراض أن قوتها مثل قوته، ففي الحرب يخسر الجميع حتى المنتصر، لذا قالت لهم: ﴿إِنَّ ٱلۡمُلُوكَ إِذَا دَخَلُواْ قَرۡيَةً أَفۡسَدُوهَا وَجَعَلُوٓاْ أَعِزَّةَ أَهۡلِهَآ أَذِلَّةٗ﴾، حكمة أيدها الجبار سبحانه، فقال: ﴿وَكَذَٰلِكَ يَفۡعَلُونَ﴾.

تجاهلت بلقيس خيار الحرب، وقررت القيام بخطوة لجس نبض سليمان، علها تكتشف المزيد عن شخصيته وأهدافه وسر جرأته.



بلقيس في الطريق

قررت بلقيس القيام بخطوة لجس نبض سليمان ﷺ واكتشاف شخصيته وأهدافه وسر جرأته. فقالت لوزرائها: ﴿وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ﴾.

أمرت على الفور بإعداد هدية ملكية فاخرة، علها تشتري بها أمن دولتها. أحضرت الهدية لها، فعبرت عن رضاها عنها، فوضعت على راحلة أو رواحل، ثم انطلقت القافلة تحمل الهدية وسط حراسة عبر الجبال والأودية.. انطلقت شمالًا نحو الشام.. عبرت الأرض المقدسة الأولى في الحجاز، وظلت تسير وتتوقف، حتى حطت ببيت المقدس.. سأل قائد القافلة عن مقر الحكم، فدلوه، ولما أصبحوا أمام بواباته، كشفوا عن هوياتهم، وطلبوا مقابلة الملك.

سمح النبي الملك سليمان ﷺ لهم بالدخول، فتهادى الرجال يحملون هدية فاخرة، ثم وضعوها بين يديه. قاموا بفتحها، وقلوبهم مفعمة بالسرور.. ظنًّا منهم أن سليمان طالب دنيا، وقد يطلب المزيد، وقد يبتزهم.. كل شيء وارد.. كل شيء مقبول.. المهم أن لا يشن حربًا.

حدق ﷺ بالهدايا.. جالت عيناه بين بريقها، ومهارة صنعها وصياغتها، فإذ به يشتاط غضبًا، ويقول لمبعوث بلقيس: ﴿أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَا آتَانِيَ اللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّا آتَاكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ﴾.

ارتجف المبعوث، وتحولت نظرات الوفد المسرورة إلى نظرات خوف، وإذ بسليمان يزيدهم رعبًا، ويقول: ﴿ارْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾.

ارتجفت القلوب، واهتزت الأيدي، وهي تغلق الصناديق، ثم تضعها على ظهور الدواب التي أحضرتها، ثم انثنت القافلة عائدة من حيث أتت.. مرت

الأسابيع طويلة ومملة على القافلة الحزينة، حتى دخلت أرض سبأ.. توجهت نحو القصر، ولما وصلت طلب المندوب مقابلة سيدته.. كانت الملكة بلقيس تنتظره على أحر من الجمر، فإذ به يرعبها بجواب الملك سليمان وتهديده.

تماسكت الملكة، وظلت على رأيها في عدم المجازفة بمكتسبات دولتها.. فكرت وفكرت، فقررت تجنيب دولتها ويلات الحرب وخرابها، مهما كان الثمن الذي ستدفعه، لذا قررت اكتشاف عالم سليمان بنفسها، وعلى الفور بدأ الموظفون بإعداد الرواحل والمركبات، وحملت الصناديق المليئة بأزياء الملكة وعطورها وأدوات زينتها، وبعد أيام أصبح كل شيء جاهزًا.

الرواحل.. الزاد.. الجند. القافلة، كلها رهن إشارة الملكة، التي عينت من ينوب عنها في إدارة الدولة، ثم انطلقت نحو الشام.. هذا ما كان يحدث في سبأ، أما الأرض المقدسة.. في بيت المقدس فالحركة هناك أشد سرعة ورعبًا.



أسرع الجن وأقواهم

كانت ملكة سبأ في مركبها محفوفة بموكبها في طريقها للشام.. تحف بها قافلة مهيبة، محاطة بالجند المدججين.. سارت بين جبال الجنوب، وتجاوزت جبال الحجاز، وحاذت الساحل مرات.. هذا ما كان يحدث في الطريق، أما في بيت المقدس، فالوضع غاية في الاستنفار، فقد وصل الخبر لسليمان، لذا أراد أن يستقبلها بمشهد، يريها شيئًا من آيات الله المبهرة، التي تكرم بها سبحانه عليه، وسخرها له.

أراد أن يريها قدرة الله، الذي تركت عبادته، واتجهت هي وقومها لعبادة الشمس، التي لا تستطيع تغيير اتجاهها ولا مواعيدها.. لا تستطيع حتى التخفيف من حرارتها، التي تتفجر وتضطرم في جوفها. من أجل ذلك استدعى

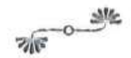
سليمان أقوى الجن وأسرعهم، وربما استعان بملك من الملائكة معهم، وهم الآن أمامه، ورهن إشارته.

حدق ﷺ بتلك القوى الخارقة، المصطفة أمامه، والمسخرة له، ثم هتف بهم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُاْ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ﴾، هنا نطق عفريت من عفاريت الجن، مبينًا سهولة الأمر، وقائلًا: ﴿أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ وَإِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ أَمِينٌ﴾، سكت سليمان بانتظار عرض آخر، فالخيارات أمامه في بداياتها، وهي عديدة، وإذ بشخص قد يكون من الملائكة يحسم الأمر.. شخص تتلخص قدرته في جملة واحدة، هي أن ﴿عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾، وقد عرض استعداده لإحضار عرش بلقيس في فترة زمنية قياسية، وهي أقل من مدة إرسال شخص إلى أقصى مكان يراه سليمان بوضوح، ثم عودته.

قال هذا الشخص: ﴿ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾.

وفي دقائق معدودة رأى سليمان عرش بلقيس أمامه، فانصدع قلبه إجلالًا للجبار سبحانه وتواضعًا وشكرًا، فسليمان نبي وولي يشعر بالقرب من الله مع كل نعمة، ولذا لما رأى العرش ﴿مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ﴾، تأمل سليمان العرش، فبدت له فكرة قد تسهم في إيقاظ بلقيس من خرافة الوثنية، فطلب من خدمه أن يضعوا بعض اللمسات على شكل العرش للتمويه، قائلًا: ﴿نَكِّرُواْ لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ أَتَهْتَدِىٓ أَمْ تَكُونُ مِنَ ٱلَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ﴾.

أخذ العرش إلى ورشة ما.. وبدأ العمل عليه، بينما كانت صاحبته قد تجاوزت مدائن صالح ووادي القرى، حتى أشرفت على تلك التلة المقدسة.هنا توقفت القافلة، ونزل المسافرون، وعسكر الجند، وضربت خيمة كبيرة للملكة.



وكشفت عن ساقيها

عسكرت قافلة الملكة بلقيس في الأرض المقدسة.. قرب قصر النبي سليمان ﷺ، الذي كان يعد لها المفاجآت، وبعد أن استراحت، قامت بالاستعداد لدخول القصر.. اغتسلت من وعثاء السفر، وتزينت، ولبست أزياء ملكية فاخرة، وتهيأت للقاء أعظم ملك على الأرض، وقلبها ممتلىء بالهيبة.

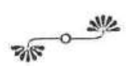
أقبلت وحولها حاشيتها، والانبهار يلون وجوههم، مما يحيط بهم من تماثيل وجفان ضخمة، وحدائق ساحرة.. ظلوا يسيرون، حتى أصبحوا أمام بوابات القصر فتوقفوا، حينها نزلت وتهادت، فاستقبلها الخدم بكل احترام.. دلفت البوابة، فإذ بالفخامة تصدمها وتسحرها، وبعد تجاوزها للمر المبهر، أوقفوها بكل ذوق أمام عرش عظيم، وضعوه في مكان زاده عظمة.. التفت إليها الخادم، وقال لها: ﴿أَهَٰكَذَا عَرْشُكِ﴾؟

تأملته، وقد حيرها المشهد، وأذهلها السؤال، ثم قالت: ﴿كَأَنَّهُۥ هُوَ﴾، ثم استأذنوها بالمواصلة، وبعد خطوات من الذهول، دلفت قصرًا آخر، أو بهوًا هائلًا، يسمى الصرح.. تأملته، فإذ بالمياه تتلألأ في سقفه.. تنساب في جدرانه، وتستقر على أرضيته.. أجواء تعصف بقلبها وعقلها، وهي ترى كل شيء يتلألأ فوقها وحولها ومن تحتها، ترددت في خوض النهر.. أبهرتها رؤية سليمان على عرشه في أقصى الصرح، وهي تتساءل: كيف تطفو قوائم عرشه على الماء، ولما همت بالتقدم، مدت يديها إلى فستانها السابغ، ورفعته بهدوء، وكشفت عن ساقيها، كي لا يتبلل الفستان بالماء.

وقبل أن تخطو قدماها توقفت.. أفلتت مقدمة فستانها.. حينها هتف سليمان طالبًا منها عدم الحاجة لرفع ثوبها، فهو لن يتبلل بالماء، لأنه لا وجود للماء أصلًا.. أذهلها ﷺ حين قال لها: إنها أمام ﴿صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ﴾، الجدران والممرات والسقف، وكل شيء حولها ممرد من زجاج.. فن أخاذ،

يوحي للمشاهد بأن القصر مشيد من الماء.. براعة وإعجاز انهارت أمامه بلقيس.. تلاشت وثنيتها، ولمعت عيناها، إجلالًا للخالق الجبار.. للواحد الأحد، الذي منح عبده سليمان ذلك، ثم انصدع قلبها، حين علمت أن عرشها هو ذلك الذي رأته في مقدمة القصر.. تهدج صوتها، خشية لله، وقالت: ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

كان نبي الله يرقب المشهد، دون أن يتسرب الغرور إلى قلبه.. مشهد زاده إيمانًا وامتنانًا، وشكرًا لله، وعدلًا وتواضعًا مع خلقه، فهو الذي أعطاه، وهو القادر على سلبه إياه.. مملكة من يراها يظنها خالدة، لكنها مملكة عظمى، اختفت بلمح البصر.



مملكة سليمان مملكة استثنائية

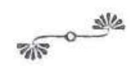
حكم سليمان مملكة عادلة قوية، لكنها كانت استثنائية في كل شيء، لأنها لم تكن، ولن تكون لغيره.. كانت مختلفة تمامًا عن أي مملكة على الأرض.. مختلفة حتى عن مملكة والده داود، حيث إنه لم يكن للشعب أي دور في تمددها الخاطف والمبهر، أما سر هذا التمدد الكبير والخاطف لمملكة سليمان، فليس لقوة البشر دور يذكر فيه، فشعبه هم بنو إسرائيل وهم قلة.

السر كان في المعجزات والخوارق والجنود غير البشرية، التي سخرها الله لنبيه: الريح.. الطير.. الجن.. إسالة النحاس.. الإبهار في الصناعات المختلفة، حتى قصره المسمى (الصرح)، لم يكن لليد البشرية دور في بنائه.. كان عامرًا بزعماء الجن، لا برؤوس البشر.. كانوا مسخرين له.. يوكل إليهم المهام الشاقة في داخل مملكته، من أقصاها إلى أقصاها.. مهام صعبة، ليست ضمن طاقة البشر.. كانوا مذللين لا يجرؤون على التحدث، قبل أن يحدثهم.

تلاشت في عهده خزعبلات شياطينهم، التي يلقونها على السحرة، ويخدعون السذج بها، ومن تلك الخزعبلات ادعاؤهم علم الغيب.. اتضح كل ذلك حين جلس سليمان على عرشه، وهو يشعر بتعب شديد، وحوله خدمه من كبار الجن، وإذ به يغير من طريقة جلوسه، فانحنى على عصاه، التي تسمى المنسأة، واتكأ عليها، وفجأة شخص بصره، وسكن جسده.. صعدت روحه إلى بارئها.

مات سليمان، والجن تجول خارج القصر.. لا أحد ممن في الداخل، يستطيع الاقتراب منه أو مبادرته.. معتقدين أنه يفكر أو يتأمل، أو أنه سابح في مناجاة قلبية مع الله، ولا أحد ممن في الخارج يجرؤ على الدخول.. مرت الأيام تلو الأيام، وبنو إسرائيل خارج القصر منشغلين بدنياهم كالعادة، بينما كان الجن يعملون بجد دون توقف.. يعانون من تلك التكاليف، التي لا يدرون متى تنتهي، وفي أحد الأيام دبت إلى عصا سليمان حشرة الأرضة، التي تسمى دابة الأرض، التي تنخر الخشب.. تمدد نخرها ببطء، حتى تفتت أسفلها، وفجأة تردد في الصرح دوي ارتطام بالأرض.

حدق الجن بمصدر الصوت، فإذ بسليمان ممدد على الأرض.. نهاية قال الله عنها: ﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ﴾، فتحت أبواب القصر، ودخل أبناؤه وزوجاته، وتفرق المردة والجن.. هنا بدأ تآكل الدولة العظمى، دون أن يسل عليها سيف أو ترمى بسهم.



انهيار مملكة سليمان

فتحت بوابات القصر المهيب، فدخل أبناء سليمان عليه السلام وزوجاته الصرح يبكون.. لم يعد الصرح مبهرًا كما كان.. أصبح خواءً بلا روح، فسليمان لن

يعـود إليـه.. لن يتهـادى بعد اليـوم في ممراتـه الفاخرة، خلا عرشـه من التسـبيح والتهليـل والامتنـان لله الواحد القهـار.. خلا من إلقاء الأوامر علـى الجن والطير والريح.

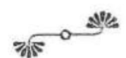
مـات سـليمان، فارتخـت قبضتـه، وانفلتـت خيـوط الدولـة الهائلـة.. بـدأت تتـآكل.. تنهـار بسـرعة، كمـا ظهرت بسـرعة.. ها هي أطـراف مملكتـه تتفكك.. تنفصـل عـن العاصمـة، فـور معرفتهـا بموتـه، وليـس لـدى بنـي إسـرائيل جيش قـادر علـى حمايتهـا، أو قوة تسـتطيع بسـط نفـوذ خليفتـه.. رحل سـليمان فبكاه بنـو إسـرائيل.. بـكاه المؤمنـون مـن الإنـس والجـن، وافتقدتـه الطيـر، وبعـد أن انتهـوا مـن دفنـه، تفرق كل شـيء.. تفـرق المردة وكبـار الجن، واحتفـظ الهدهد ببقايـا رسـائله، وشـعر الشـعب بفـراغ هائـل.. فـراغ لم يسـتطيعوا ملـؤه، لأنهم لم يشـاركوا يومًـا في تشـييده.

انهـارت تلـك المملكـة العظيمـة فجأة، لأنهـا لسـليمان فقط.. هـو من طلب ذلـك، حيـن قـال: ﴿رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ﴾، انهـارت، لأن جندها ليسـوا من البشـر، وإنجازاتها ليسـت من البشـر، ولا يمكـن أن تكون لغيـر سـليمان، حتى النبـي محمد ﷺ الـذي مكنه الله يومًا مـن عفريت من متمـردي الجـن، سـرعان ما أفلته، حين تذكـر دعوة سـليمان، وقـال: «إن عفريتا مـن الجن تفلـت البارحة ليقطـع علي صلاتـي، فأمكنني الله منـه فأخذته، فأردت أن أربطـه علـى سـارية من سـواري المسـجد حتـى تنظـروا إليه كلكـم، فذكرت دعـوة أخـي سـليمان: ﴿رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ﴾ فرددتـه خاسئًا»[١].

انكمشـت مملكـة سـليمان داخـل الأرض المقدسـة، فخلفـه ابنـه رحبعـام، وسـرعان مـا دب الخـلاف بينـه وبيـن أجنحـة بنـي إسـرائيل، فانقسـمت الدولة

(١) صحيح البخاري (٣٤٢٣).

الصغيرة إلى دولتين شمالية وجنوبية، حيث أصبح شمال فلسطين للأغلبية من بني إسرائيل، الذين حولوها إلى دولة وثنية، تتناوب الدول على غزوها، حتى محاها الآشوريون، بينما حكم رحبعام القدس، وجعلها عاصمة لدولة جنوب فلسطين. وقد تعرضت هي أيضا لعدة غزوات حتى محاها نبوخذ نصر فدمر الصرح، وبيت المقدس، وأحرقها، وأحرق التوراة معها، وأخذ بني إسرائيل عبيدًا، وكان من أسباب تلاشي الدولتين: فشو الشرك والظلم.. أي التخلي عن رسالة داود وسليمان: التوحيد والعدل.



أيوب والابتلاء

سُلب أحفاد داود مملكتهم، لأنهم تخلوا عن التوحيد والعدل، لكن نبيًّا من بني إسرائيل اسمه (أيوب)، لم يسلب الملك فقط.. سلب كل شيء.. خسر ماله، وجاهه، وكل ما يملك، ثم سلبه الله نعمة الصحة، فبدأت الأمراض تدب إلى جسده، حتى ضعف، وأصيب بالهزال، وغدا ناحلًا جدًّا، وكأنه هيكل عظمي مغلف بجلد.. نفر منه أهله وأصحابه، ولم يعد أحد يطيق الاقتراب منه أو خدمته.

وحدها زوجته الوفية ظلت تحن عليه.. تطعمه وتنظفه وتعتني به، ظلت على ذلك أسابيع وأشهر وسنوات، حتى جاء ذلك اليوم، الذي كانت فيه شاردة الفكر.. مهمومة تفكر بحاله وبحالها، إذ بدا لها شيطان من شياطين الإنس أو الجن.. اقترب منها كالمشفق الحاني، ثم أخبرها أن بإمكانه شفاؤه مقابل أمر ينفذه زوجها.. عرض عليها أن يشفي حبيبها، مقابل أن يذبح قربانًا له.

كانت الزوجة في حالة اكتئاب شديد، وكأن أبواب السماء والأرض سدت في وجهها، وفي لحظات القنوط تلك تقبلت الفكرة الكارثية.. نهضت من

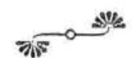
مكانهـا تقتلـع خطواتها، حتى أشـرفت على مـكان حبيبها.. أقبلـت عليه، فإذا هو يفطـر القلب.. منطو على آلامه وأوجاعه.. لا شـيء فيه يوحي بالحياة.. لا شـيء يغـري بالبقـاء معه ورفقته، سـوى ماض جميل، ولسـان يذكـر الله ويناجيه، وكأنه لم يفقد شـيئًا مـن جاهه، فالله جاهـه ووجاهه.

اقتربـت مـن إلفها المبتلى، وحيته وجلسـت بجانبـه.. واسـته، واعتنت به، ثم نظـرت إليـه بعين باكية، راجية ومحبة، وذكرته بشـبابه، ونضارته السـابقة، وسـط اسـتغرابه مـن هذه اللغـة الجديدة، وإذ بهـا توقف اسـتغرابه، باقتـراح الذبح لغير الله.

صـدم أيوب من هـذه الدعوة الصريحة للشـرك، وغضب رغـم ما به من آلام، وكأن حبيبتـه تعلـن انفصالها عنـه.. عاتبها عتابًا شـديدًا، فهي وإن كانـت حبيبته، إلا أن الله أحـب إليـه منهـا.. فحلـف رغم تلاشـي قـواه: أن يعاقبها علـى دعوتها للشـرك. أدركـت الزوجـة الطيبـة فداحـة الأمـر، فسـكتت، ثـم نهضـت حزينـة وغـادرت، وكأن كل شـيء بينهمـا قـد هده ذلك الشـيطان.



عـادت تجـر خطاهـا، ويقتلهـا النـدم،. نظر أيـوب إلـى حبيبته، وهـي مقفية، وتأمـل حاله، وقد أمسـى وحيـدًا، ليس له سـوى الله، فتوجه إليه بقلـب باك، وهو يقـول: ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾، و﴿نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلشَّيۡطَٰنُ بِنُصۡبٖ وَعَذَابٍ﴾، وإذ بالرحمـة تنـزل، والوحـي ينزل، ويقول لـه: ﴿ٱرۡكُضۡ بِرِجۡلِكَۖ هَٰذَا مُغۡتَسَلُۢ بَارِدٞ وَشَرَابٞ﴾.



جزاء أيوب

نـزل الوحـي علـى أيـوب الناحـل مـن شـدة المـرض، المنطـوي ككومـة مـن العظـام، تلتحـف الحـزن والألـم.. نـزل الوحـي يأمـره أن يضـرب برجلـه

﴿ ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ هَٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴾، ضرب أيوب ببقايا قوة رجله الناحلة الهزيلة على الأرض، فإذ بالمعجزة تتفجر تحتها ماء.

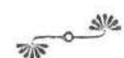
ابتسم أيوب، وامتلأ قلبه بالسعادة، وهو يرى الماء يترقرق تحت قدميه.. قاوم ضعفه، وحاول الجلوس حتى اعتدل، ثم مد يديه المرتجفتين نحو الماء، وغرف غرفة، وغسل وجهه، فإذ بالمعجزة تسري مع كل قطرة تنساب على جلده الرقيق، والانتعاش يسري في كل عضو يغسله.. غرف بيديه وشرب. ويومًا فيوم شعر بقوة تنعشه.. تغسل آلامه وأوجاعه، وتذهب أنينه وصداعه.. بدأ جسده يعود للحياة شيئًا فشيئًا.. مرت أيام حتى شفاه الله وصح بدنه، وعادت له نضارته، لكنه لم يعد لبيته.. ظل في مكانه، وكأنه لا يريد ترك نبع الحياة هذا.

في أثناء ذلك كانت الزوجة الحانية تتململ.. تقتلها خناجر الندم على تركه وحيدًا.. قررت العودة لخدمته، حتى وإن رفضها، فحبه يملأ قلبها، رغم ما به من بلاء. نهضت وأخذت طعامًا وشرابًا، وأدوات للعناية به، كانت تأخذها عادة.. تهادت خلال الطرقات، تفكر بردات فعله، ومفاجآت استقباله.. متوجسة من صد الحبيب.. شرقت بها الهواجس وغربت، حتى أقبلت على المكان، فإذا هو غير المكان.. لا رائحة، ولا عفن، ولا أنين.. تغير المكان، فأين الحبيب؟

تلفتت فلم تجده، لكنها وجدت شخصًا غريبًا هناك.. اقتربت من الغريب، وسألته عن مالك قلبها، وهو ينظر إليها بعينين تفيضان بالعتاب. تساءلت عيناها عن سر نظراته، فعرفها بنفسه، فأجهشت بالبكاء، شكرًا لله وفرحًا وندمًا، لكن هل هي نظرات الوداع يا أيوب؟

كان عتابه بحجم حبه لها وحبها له، وإذ بالوحي ينزل عليه، ليعيدها إليه.. الرحمن الرحيم، يقول له: ﴿ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَٱضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ ﴾.

انطلـق أيوب يبحث عن شـمراخ.. عن مجموعة أعواد، يجمعهـا ضغثًا، ولما وجـد مبتغـاه، قبـض عليهـا جميعًا بكفـه.. كان أحـد منها، ثـم ضربها بهـا ضربة عتـاب وكفارة وشـوق، حتى لا يحنث بيمينـه، ثم أخذ بيدها، وعـادا لبيتهما، بعد أن تجـاوز النبـي المبتلـى الامتحان، ونال شـهادته من الرحمن، الـذي أثنى عليه، فقـال: ﴿إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًاۚ نِّعْمَ ٱلْعَبْدُۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾، وبالقـدر الذي كان فيـه أيوب صبورًا، كان أحـد الأنبيـاء في مكان آخـر عاجزًا عن التحمـل، فحلت بـه كارثة لا تطاق.



يونس غاضب

انتشـر الشـرك والظلـم فـي مدينة نينـوى، الواقعـة في شـمال العـراق، فبعث الله فيهـم نبيًّـا منهـم اسـمه يونس بـن متـى.. يدعوهـم للتوحيـد والعـدل، وترك الوثنيـة والخرافـة، فـالله خالـق السـماوات والأرض ومالك الملـك، ولا يرضى معـه شـريكًا، لكن قوم يونـس كبقية الأمم، ظلـوا على تراث آبائهـم وأجدادهم.. لا يريـدون فتـح عقولهم، والتأمـل في تفاهـة آلهتهم، التـي يصنعونهـا بأيديهم.. أصنـام لا تتكلـم، ولا ترى، ولا تسـمع.

طـال الأمـر بيونـس، فيئس مـن قومه، وقـرر الهجـرة مـن قريتـه ومغادرتها.. فعـل ذلك قبـل أن يأذن الله له.. شـاهده أهل القريـة، وهو مقف قد بلـغ به الحزن والغضـب منتهـاه، فانكسـرت قلوبهم، وهـم يرونه يختفي خلف السـراب.

غـاب يونس، ومرت أيام ولـم يعد، فشـعر أهل بلدته بحزن شـديد، واجتاحهم خوف أشـد، فهم يعرفونه جيدًا.. لم يكذب عليهم أو يغشهم يومًا.. تذكروا مصير الأمـم التي حدثهم عنها: أقوام نوح وهود وصالح، فتعقلوا، ثم عقدوا اجتماعات دار فيهـا نقـاش جـاد وهـادف.. توصلوا بعدها إلـى أخذ الدرس مـن تلك الأمم، فيونـس لـم يتركهم إلا لأنه يدرك أن كارثة سـتحل بهـم، كما حلت بمن قبلهم.

قرروا العودة للتوحيد، ونبذ الوثنية والخرافة، وترك الظلم والجور، فإذ بالمدينة مع مرور الأيام تتغير.. أصبحت أكثر سعادة وأمنًا وألفة.. غدت مدينة للتوحيد والسلام والعدل.. لا ينقصها سوى شيء واحد.. هو درة تاجها ورأس مالها.. لا ينقصها سوى ابنها البار (يونس بن متى).

لكن أين هو يا ترى؟ لقد هام على وجهه أيامًا وليالي وحيدًا حزينًا، لا يؤنسه سوى ذكر الله، حتى حطت به قدماه ببلدة ساحلية.. لم يتوقف للتمتع بزرقة بحرها وأجوائها، التي قد تنسيه أحزانه.. قرر أن يقطع البحر بعيدًا.. رأى إحدى السفن الصغيرة مزدحمة تستعد للإبحار.. دنا منهم وسألهم أن يحملوه.. لا يهمه أين وجهتهم، ولا ما ميناؤهم اللاحق.. المهم أن يبعدوه عن ذكرياته المرة مع قومه. وافق ربان السفينة، فركب وانحشر في فراغ داخل المركب.

أبحر كما تبحر مراكب اللاجئين والمشردين.. لا مكان فيه للابتسام أو الاسترخاء أو حتى النعاس.. الكل خائف.. الكل متشبث.. تعلو الشهقات مع الأمواج وتنخفض.. الكل خائف متوجس في عالم أزرق، اتصلت فيه السماء بالماء.

قطع المركب الثقيل أميالًا في عمق البحر، وإذ بالريح تهب، والبحر يضطرب، فأدرك الربان أن مركبه غارق لا محالة، إلا إن تخلص من بعض الركاب.



يونس خارج المركب

ركب يونس صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ السفينة ﴿أَبَقَ إِلَى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ﴾، الذي يوشك على الغرق لثقل حمولته، فكلما مالت به الأمواج أو انخفضت، غمرته المياه.. تأمل الربان مركبه، وأدرك أنه غارق لا محالة، إلا إن تخلص من بعض الركاب..

هتـف بهـم، وواجههـم بالحقيقـة، فـإذ بالوجـوه المبللـة تتجهـم؟ وإذ بالأيـدي تـزداد تشـبثًا بالمركـب والحيـاة، فلا متبرعون على ظهـر المركـب، ولا فدائيون ولا حتـى منتحرون.

هنـا تقـرر إجـراء قرعـة، ومـن تصيبه سـيقفز فـي المـاء، أو يرمى فـي البحر. لم يكـن هنـاك وقـت، فالموت يطـل عليهم مـع كل موجـة.. يبلـل وجوههم مع كل طشـة مـاء.. أجريـت القرعـة بطريقـة مـا، وقلـب يونس معلـق بالله، ولسـانه يلهـج وهـو يـرى القافزيـن، وفجأة حدق الـركاب بـه.. حاصرته عيونهـم.. تأمل وجوهـهـم، فأدرك أن القرعة وقعـت عليه، فأصابه الفزع ونهض مـن مكانه ثقيلًا، والتـف نحـو حافـة المركب، وسـلم أمره لمـن أنجا نوحًـا وفلق البحر لموسـى. قـام علـى حافة المركـب ثم قفز.. انغمـس في الماء، ثـم طفى، وحاول السـباحة قـرب المركـب، لكـن المـوج فـرق بينهمـا.. غـاب المركـب عـن ناظريـه، وهو يصارع الأمـواج ويعانـق الموت.

لم يعـد يـرى سـوى الماء والسـماء.. لا هـو الذي يطـال تلك، ولا هـو الذي يسـتقر علـى هذا.. ظل يصارع، وفجـأة انتزعته موجة.. رفعته، ثـم هوت به داخل فوهـة عملاقـة وسـط البحـر.. انزلق نحـو أعماقهـا، حتى ابتلعـه الظـلام، وكأنه داخـل كهـف وسـط البحر.. لا يـدري ما الذي حـدث لـه، ولا أين هو.

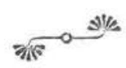


الشـيء الـذي يعلمـه هـو: أنه حـي غـارق في ظـلام دامـس.. يتحسـس بيده أرضيـة وجدرانًـا لينـة.. مـر اليـوم الأول وهـو ينتظـر المـوت. مـر اليـوم الثانـي كالأمـس مظلمًـا، لا شـمس، لا أرض، ولا حتـى بحـر.. يتقلـب بين خريـر ماء، وأصـوات نوافيـر مـاء وهـواء مخيفة.

ظـل يونـس جنيـن الظلمة، ثم أدرك أنـه داخل جوف حوت مهول، أرسـله الله ليريـه قدرته عليـه، حين تـرك قومه، فعج لربـه بالتسـبيح والتقديس، ﴿فَنَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ أَن لَّا إِلَٰهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾.

ظـل يناجـي خالقه، ويبكـي ويعتـذر، ويـردد: ﴿لَآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَـٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾، حتـى أنهكـه الجوع والعطـش، وفجأة انفتحـت البوابة العملاقـة، وإذ بموجـة مـن أعمـاق الحوت تقذف بـه على رمال الشـاطىء.

رفـع يونـس رأسـه منهـكًا مـن الجـوع والخـوف والإعياء، فـرأى الحيـاة من جديـد.. رأى الشـمس والنـور، ولامـس وجـه الأرض.. وتأمـل هـذا المخلـوق العمـلاق، وهـو بعـد أن أدى مهمتـه.. يلتـف نحـو البحـر لينغمـس فيـه محدثًـا تلاطمًـا هائلًا.



وعاد يونس

كان يونـس صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مقذوفًـا علـى الشـاطىء، بعـد أن تلقـى ذلـك الـدرس القاسـي مـن الله.. كان فـي حالـة إعياء من شـدة الجـوع وقلة النـوم، وإذ بمعجزة إلهيـة، يراهـا قربـه.. شـجرة مـن يقطيـن، يقـول الله عنهـا: ﴿فَنَبَذْنَـٰهُ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ سَقِيمٌ ﴿١٤٥﴾ وَأَنۢبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ﴾.

اسـتعاد يونـس شـيئًا مـن قوتـه ومعنوياته، فزحـف نحو تلـك اليقطينـة، ومد يـده، وبـدأ يـأكل.. نام ثـم صحا، وتنـاول مجددًا منهـا حتى تعافـى، ونهض على قدميـه.. كان فـي خلـوة مع ربه، علـى ذلك السـاحل.. يناجيه يتوب إليـه.. يعتذر عمـا بدر منـه، وإذ بملاك الوحي يهبـط عليه.. يأمـره بالعودة لديـاره وقومه، فهم قـد تابـوا من بعـده، لكـن توبتهـم لا تكفـي، فهم بحاجـة إليـه، كي ينشـر الوعي والعـدل بينهم.

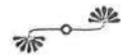
نهض يونس ومشـى على السـاحل، وواصل السفر حتى أشـرف على الديار.. أقبـل عليهم، فإذ بالوجوه غير الوجوه، تلاشـى التجهم والإكفهرار عن ملامحها، وإذ القلوب غير القلوب.

ابتهجت المدينة بعودة ابنها الحبيب، ونبيها الكريم.. التفوا حوله يعانقونه.. يحيونه، ويعتذرون إليه، ويعتذر منهم، ويقص عليهم قصته مع الحوت.. كان قومه حالة فريدة، قال الله عنها: ﴿وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔامَنُوا۟ فَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾، انتشر التوحيد على أرضهم، وظلوا ينشرونه، وينعمون بالعدل سنوات وسنوات، في الوقت الذي تناسلت فيه ذرية سليمان، وبنو إسرائيل في الأرض المقدسة، تتناوب الأمم في غزوهم وتشريدهم، كلما أخلوا بالتوحيد، وتركوا العدل، وتطبيق شريعة ربهم.

غزاهم الأقباط الوثنيون والفرس والفرس، وكاد البابليون أن يبيدوهم، وأخيرًا اجتاحهم الروم الوثنيون، واحتلوا بيت المقدس وما حوله، فأرسل الله نبيًّا اسمه زكريا، يدعو للتوحيد والعدل، ويعاني صلف الوثنيين، لكنه لم يكن يعاني من الوثنيين فقط، فمعاناته الأشد كانت مع قومه، وبالتحديد من منافقي بني إسرائيل، كانوا عملاء للسلطة الرومانية الوثنية، لا هم لهم سوى المال وجمعه، بل إن بعضهم تحول لنصرة الوثنية على التوحيد.

كان المؤمنون قلة حول زكريا، وكان من تلك القلة صديق له اسمه عمران، وقد توجه عمران وزكريا إلى إحدى الأسر الإسرائيلية المؤمنة، ليخطبا فتاتين شقيقتين صالحتين.. اسم أحدهما حنة، والأخرى إليزابيث. تزوج زكريا من اليزابيث، وعمران من حنة. مرت السنوات فلم يرزق زكريا بذرية، بينما رزق عمران بولد سماه هارون.. ثم حملت زوجته وفي أثناء حملها توفي عمران.

شعرت حنة بالحزن على حبيبها وحملها، فتوجهت لربها تستودعه جنينها.



اليتيمة والصالحون

بعد وفاة سليمان ﷺ وتفتت دولته بمئات السنوات، وبعد غزوات وثنية متكررة على فلسطين من الجنوب والشرق والغرب.. جاء الروم

الوثنيون من الشمال، فاجتاحوا كل فلسطين، واحتلوا بيت المقدس، فرضخ لهم بنو إسرائيل.

وفي إحدى تلك السنوات المريرة تزوج النبي زكريا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وصديق له اسمه عمران من فتاتين إسرائيليتين مؤمنتين، يقال لإحداهما إليزابيث، ويقال للأخرى حنة.. مرت السنوات والشباب الأربعة يعيشون حياة سعيدة مع الله، ومعاناة من الوثنيين، لم يرزق زكريا وزوجته خلالها بأي مولود.

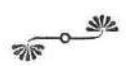
أما عمران وحنة فرزقهما الله ابنا سمياه على اسم نبيهما هارون عَلَيْهِ السَّلَامُ، وبعد سنوات من ولادته حملت زوجته مرة أخرى.. كانت سعيدة بحملها، لكن الأقدار فجعتها بوفاة حبيبها وزوجها عمران، أشعرتها بآلام لا تقل عن آلام الحمل.. شعرت بغيمة اليتم، تخيم على حملها، فعاشت حزنًا ثقيلًا، لم يخففه سوى مناجاة الله، واللجوء إليه.

لم تجد أرحم منه سبحانه، لذا نذرت جنينها لله وحده، والقيام على خدمة دار العبادة.. ﴿قَالَتِ ٱمۡرَأَتُ عِمۡرَٰنَ رَبِّ إِنِّي نَذَرۡتُ لَكَ مَا فِي بَطۡنِي مُحَرَّرٗا فَتَقَبَّلۡ مِنِّيٓۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾، وبعد تسعة أشهر من المعاناة، دوت صرخة بريئة في بيت عمران.. تأملت حنة مولودها، فإذا هي فتاة عذبة كالمطر.. تنازعتها المشاعر، فقد كانت تحلم بصبي، يخدم بيت الله، ويتفرغ لعبادته، وهي مهمة ليست للإناث.

ثم ما الذي ستفعله فتاة للدين، وقد أدخل الحاخامات في الكتاب المقدس، نصوصًا كثيرة تضطهد المرأة.. ما الذي ستضيفه مريم، والكتاب المقدس يحرم على الأنثى حتى الكلام في دار العبادة.. يحرم عليها حتى طرح السؤال.

تلاطمت أمواج الحيرة بحنة، فنادت ربها وهو أعلم بها، وقالت: ﴿رَبِّ إِنِّي وَضَعۡتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا وَضَعَتۡ وَلَيۡسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلۡأُنثَىٰۖ وَإِنِّي سَمَّيۡتُهَا مَرۡيَمَ وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا

بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾، بعد تلك الدعوات الباكية، أشرقت مريم اليتيمة على دنيا حنة، فأمطرتها بالسعادة.. عوضتها فقد والدها عمران، كما أن توكل أمها على ربها سبحانه، انتشلها من حيرتها، وذلك حين ابتهجت ذات يوم، حين رأت زوج أختها النبي زكريا صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ومعه بعض أقاربها المؤمنين، يفدون على بيتها، يريدون كفالة يتيمتها، التي قال الله عنها: ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا﴾، كلهم يريد مريم ابنة له.. تنافس لم تحله سوى القرعة.



أفضل يتيمة على الأرض

كانت مريم عَلَيْهَا ٱلسَّلَامُ طفلة كالقمر.. تملأ بيت أمها بالبراءة والجمال، اجتهدت في تربيتها، فألقى الله في قلوب الخلق محبتها، حتى تطلع الصالحون من أقاربها، وفي مقدمتهم النبي زكريا صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. إلى كفالتها. تحيرت أيهم أولى: كلهم أولى، وأمام هذا النقاء من الرجال الأتقياء، لم تجد أمها أعدل من القرعة.

اجتمع الكرماء في مكان واحد، وكتب كل واحد اسمه، ثم ألقوا أقلام قرعتهم في وعاء، أو مكان محدد، ثم أتى شخص، ومد يده دون تحديد إلى تلك الأقلام، فأخذ بطريقة عشوائية واحدًا منها. رفعه وقرأه، فإذا بعيني زكريا تلمعان فرحًا، وهو يفوز بكفالة أفضل يتيمة على وجه الأرض.

بدأ كفالتها، فواصل تعليمها، وخصص لها غرفة للتعبد، تسمى المحراب، فنشأت بين أم وخالة مؤمنتين، وزوج خالة نبي تقي. كبرت مريم، وشاخ زكريا، واشتعل رأسه شيبًا، وأصبحت مريم في ريعان شبابها، وبلغت سن الزواج، لكنها ظلت بتولًا، كثيرة المناجاة لله والأنس بذكره، وإذ بالكرامات تنهال

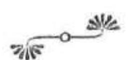
عليهـا.. كرامات أدهشـت زكريا وزوجتـه، وحيرتهم. رغـم أن الله وصف زكريا، فقـال: ﴿وَأَصۡلَحۡنَا لَهُۥ زَوۡجَهُۥٓۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَيَدۡعُونَنَا رَغَبٗا وَرَهَبٗاۖ وَكَانُواْ لَنَا خَٰشِعِينَ﴾.

اكتشـف زكريـا كرامـات مريـم ذات يـوم.. حيـن مـر بهـا، وهي فـي محرابها فـي حالـة مناجاة لله، فـإذ به يـرى طعامًا عندهـا، لـم يشـتره، ولـم تحضـره زوجته أو أمهـا.. تكـرر مشـهد الطعام عـدة مرات، ومريم لا تفشـي أسـرارها مـع ربها، ولا تفخـر علـى غيرهـا بكراماتها.. كانت مشـغولة بمـا هي فيه مـن نعيم روحي، زادهـا تواضعًـا. زادتها الكرامات شـكرًا، فلم تنسـب شـيئًا لنفسـها.

ازداد فضـول زكريـا، فتوجه نحـو محرابها وحياهـا، فردت التحيـة.. نظر إلى الطعـام، ونظـر إليها وقلبـه يرتجف، وقـال: ﴿يَٰمَرۡيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَاۖ﴾؟ هنـا أجابته إجابـة الأولياء العارفين الشـاكرين، فقالـت: ﴿هُوَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٍ﴾.

أخذتـه الكلمـات بعيـدًا.. تعلم وهو المعلـم من فتـاة يتيمة يكفلهـا ويعلمها. أن السـر فـي الله، وليـس في العبد. السـر في عطـاء الله، الذي لا حـدود له، لا في عبـادات الإنسـان المحـدودة. أدرك أن سـر الأوليـاء هـو الثقـة بـالله، والاعتماد عليـه، وعـدم التطلع إلـى ما في أيـدي خلقه.

خـرج من محراب مريم البتـول، وقلبه يبكي، ويتمنى مثلهـا، ويقول: ﴿رَبِّ لَا تَذَرۡنِي فَرۡدٗا وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡوَٰرِثِينَ﴾، وإذ بصوت يناديه، يقشـعر له بدنه.



زكريا يشكو لربه

خـرج زكريـا ﷺ مـن محـراب مريـم البتـول الطاهـرة، بعـد أن أيقظته إجابتهـا. توجـه نحـو محرابه. دخلـه وبقي وحيـدًا، منزويًـا عن العيون، منكسـرًا

بين يدي خالقه، ﴿نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا ۝٣ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلۡعَظۡمُ مِنِّي وَٱشۡتَعَلَ ٱلرَّأۡسُ شَيۡبٗا وَلَمۡ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيّٗا﴾، أفصح عن أمنيته، وقال: ﴿رَبِّ لَا تَذَرۡنِي فَرۡدٗا وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡوَٰرِثِينَ﴾، ثم قال: ﴿وَكَانَتِ ٱمۡرَأَتِي عَاقِرٗا فَهَبۡ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيّٗا ۝٥ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنۡ ءَالِ يَعۡقُوبَۖ وَٱجۡعَلۡهُ رَبِّ رَضِيّٗا﴾، وإذ بصوت مهيب بين جدران المحراب، تقشعر له الأبدان، حوَّله إلى شخص آخر تمامًا.

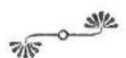
نادته ﴿ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٞ يُصَلِّي فِي ٱلۡمِحۡرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحۡيَىٰ مُصَدِّقَۢا بِكَلِمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدٗا وَحَصُورٗا وَنَبِيّٗا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾.

ذهل زكريا وارتبك، ومن شدة ارتباكه سأل سؤالًا هو من طرحه قبل قليل، فقال: ﴿رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٞ وَقَدۡ بَلَغَنِيَ ٱلۡكِبَرُ وَٱمۡرَأَتِي عَاقِرٞۖ قَالَ كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفۡعَلُ مَا يَشَآءُ﴾، ما زال زكريا منذهلًا.. لم يكتف بنداء الملائكة وبشرياتهم.. أراد علامة زكريا بنداء الملائكة. أراد علامة أخرى، وإذ بالإجابة تصدمه. آية كالعتاب حين قال: ﴿رَبِّ ٱجۡعَل لِّيٓ ءَايَةٗۖ قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمۡزٗاۗ وَٱذۡكُر رَّبَّكَ كَثِيرٗا وَسَبِّحۡ بِٱلۡعَشِيِّ وَٱلۡإِبۡكَٰرِ﴾.

خرس لسان زكريا، ولم يعد قادرًا على الكلام. وبعد مدة خرج من المحراب.. مشى في الأسواق يحييه الناس، فيرد بالإشارة.. يكلمونه، فيهز رأسه، ويحرك يديه، وسط استغرابهم. كانت علامة وآية ومعجزة خاصة به، لذا ظل الغموض يلتف حوله، حتى مرت الأيام الثلاثة، فانطلق لسانه، وواصل تعليم بني إسرائيل، ونشر التوحيد بينهم، وسط أجواء الاحتلال الوثني، وبعد أشهر شعرت زوجته بأعراض الحمل، فاجتاحته السعادة، وبعد تسعة أشهر داهمتها آلام المخاض، فزادت من ضعفها، ثم ولدت غلامًا جميلًا، سماه الله قبل أن يخلق.

كانت سعادة زكريا وزوجته لا توصف.. ملأ يحيى بيتهما بالحياة والأنس. احتفت به خالته، وحملته ابنة خالته مريم ودللته.. أصبح الرضيع يتقلب بين دلال ثلاث من أطيب نساء الدنيا.

مـرت الأيام ومريم لـم تتزوج، أشـغلتها العبـادة عن التفكير فـي الزواج، حتى جـاءت اللحظـة التـي غيرتهـا، حين نهضت إلـى غرفـة مفتوحة باتجاه الشـمس، دخلتها، ثم أسـدلت سـتر البـاب. وما إن أصبحـت لوحدها، حتـى ارتجف قلبها خوفًـا.. طيـف غريب يدخل عليها دون اسـتئذان. رجل لا تعرفـه، يقتحم خلوتها بربهـا.. أصابهـا الرعـب والهلـع، فـلاذت منه بربهـا، وخوفتـه بالجبار سـبحانه، وقالـت: ﴿إِنِّيٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحۡمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيّٗا﴾.



مريم أفضل امرأة

اقشـعر بـدن مريـم عَلَيْهَاالسَّلَامُ حيـن رأت رجلًا غريبًـا، لا تدري من هـو، ولا من أيـن أتى؟ يقتحـم غرفتها. شـعرت بالذهـول، فلم تجـد مهربًا وملاذًا سـوى الله، وقالـت: ﴿إِنِّيٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحۡمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيّٗا﴾، وإذ بصوتـه المهيـب، يزيدهـا قلقًـا، ويقـول: ﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمٗا زَكِيّٗا﴾، تحيرت: هل سـيعتدي عليها، أم ماذا سـيفعل؟

لم يعطهـا الغريـب مهلـة للتفكيـر، سـرعان ما فاجأهـا بشـيء آخـر.. فاجأها ببشـارة لـم تتصورها يومًا.. بشـرها بمولود وهي التي لـم تعاشـر رجلًا في حياتها، بـل زاد على ذلك حين حدد جنس مولودها، ونسـبه أيضًـا، قائلًا: ﴿يَٰمَرۡيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٖ مِّنۡهُ ٱسۡمُهُ ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ وَجِيهٗا فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ وَمِنَ ٱلۡمُقَرَّبِينَ﴾، ثـم أذهلهـا حيـن أخبرهـا أن طفلهـا هـذا سـيحمل معجزاته معـه لحظـة ولادته، قائـلًا: ﴿وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِي ٱلۡمَهۡدِ وَكَهۡلٗا وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾.

مريـم الآن في أشـد حالات الذهول.. كيف سـيحدث هذا، وهـي التي نذرت نفسـها، ونذرتهـا أمها لله؟ كيف سـتصبح أمًّا، وهي لـم تتزوج، ومن سـيصدقها؟

نظـرت إلـى جبريل بعينيـن باكيتيـن، خشـية الفضيحة، وقالـت: ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لِي

غُلَٰمٞ وَلَمۡ يَمۡسَسۡنِي بَشَرٞ وَلَمۡ أَكُ بَغِيّٗا﴾، لكـن الـروح القـدس أزال خوفهـا، وطمأنهـا وزادها إيمانًـا، و﴿قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٞۖ وَلِنَجۡعَلَهُۥٓ ءَايَةٗ لِّلنَّاسِ وَرَحۡمَةٗ مِّنَّاۚ وَكَانَ أَمۡرٗا مَّقۡضِيّٗا﴾.

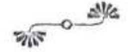
إذا فطفلهـا معجـزة تحـدث كمـا تحـدث أي معجـزة ربانيـة.. بكلمـة (كن)، فيكـون.. المسـيح مخلـوق بكن..

امتزجـت المشـاعر داخـل قلـب العـذراء البتـول عليها السـلام، ثـم ما لبثت أن رفرفـت روحهـا فـي السـماء مسـرة، وشـكرًا لله حيـن بشـرها بأعظم بشـارة، مـرت بهـا امـرأة فـي الدنيـا قائـلًا: ﴿يَٰمَرۡيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصۡطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾.

هـذا الاصطفـاء لا تعني رفع التكاليـف عنها.. إنهـا نعمة وابتلاء مـن الله لهذا النقـاء، لـذا طالبهـا الملاك بمواصلـة التقرب مـن الله، فقـال: ﴿يَٰمَرۡيَمُ ٱقۡنُتِي لِرَبِّكِ وَٱسۡجُدِي وَٱرۡكَعِي مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾، بعدهـا نفـخ الـروح في رحمهـا عَلَيْهَا السَّلَامُ، ثـم صعد للسـماء، أمـا هي فظلـت علـى الأرض مذهولة.. تتلون جـدران غرفتهـا بالفرح، بالهواجـس، بقائمـة التهـم التي تنتظرها مسـتقبلًا حين يظهـر حملها.

أمضـت العـذراء ليلتهـا في مناجاة، وشـعرت بعد شـهر بانقطـاع الحيض، ثـم مرت الأسـابيع، وإذ بها تخفض رأسـها، وتمد يديها نحو بطنها، وتتحسسـه، فإذا هـو قـد كبر.. لـم يعـد خصرها نحيلًا، فشـعرت بالخـوف من نظـرات كالخناجر، تنتظرها فـي الطرقات.

ضاقـت القـدس بمريم، وهـي لا تضيق، وكأنهـا بلا شـوارع.. فتوجهت نحو غرفتهـا ودخلتهـا، ومدت يديها نحو الأوتـاد وخزانتها، فأخذت ثيابها ومشـطها، ومـا تحتاجه، ثـم وضعتها في مزودتها، وحملتها وخرجـت، وهربت من المدينة.



البتول تهرب من بيت أهلها

مريم الطاهرة تهرب حياء من الناس، وخوفًا من سكاكين ألسنتهم، حين يعلمون بحملها.. غادرت تحملها الثقة بمعية الجبار سبحانه.. مشت بين جدران القدس الحبيبة، وطرقاتها المزروعة بجنود الاحتلال الروماني الوثني، حتى توارت عن الأنظار ﴿فَٱنتَبَذَتۡ بِهِۦ مَكَانٗا قَصِيّٗا﴾، بحثت في ذلك المكان العامر بالبساتين والنخيل عن ملجأ، حتى وجدت.

ظلت هناك أشهرًا تعاني الغربة.. يقتلها الشوق لأمها.. لمربيها زكريا.. للأهل والديار، ولمحرابها وغرفتها الشرقية. وتحن إليها صديقاتها وقريباتها.. يستفسر الحاخامات عن سر اختفاء البتول سليلة الأنبياء.

أصبحت في الشهر التاسع، وأصبحت ثقيلة الحركة والخطوات، وذات يوم كانت تتهادى ببطء بين النخيل، وإذ بها تئن فجأة، وتضع يدها أسفل بطنها، وتتوقف من شدة الألم: ﴿فَأَجَآءَهَا ٱلۡمَخَاضُ إِلَىٰ جِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ﴾.

مدت يدها نحو الجذع، واتكأت عليه، ثم ثنت ركبتيها بصعوبة، حتى لامست الأرض، واستقرت عليها وجلست، وما إن جلست حتى تفاقم وجعها، وارتفع أنينها.. تصبب عرقها، وفاضت عيناها من شدة الطلق. تلفتت، فلم تر أحدًا حولها. لا أم. لا أخت. لا صديقة، بل لا أحد من البشر يسعفها، فتمنت الموت من شدة الألم، وهي تبكي. تصرخ، وتقول: ﴿يَٰلَيۡتَنِي مِتُّ قَبۡلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسۡيٗا مَّنسِيّٗا﴾، وفي غمرات الموت أشرقت الحياة.. أشرق حبيبها على الدنيا بلا صراخ.

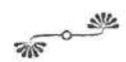
أشرق الوليد المعجزة، فالتقطت أمه العذراء أنفاسها، والتقطته، وضمته، وأمطرته بدموعها وعرقها، وإذ بالصوت الذي بشرها بعيسى، يزيح حزنها، ويناديها: ﴿أَلَّا تَحۡزَنِي قَدۡ جَعَلَ رَبُّكِ تَحۡتَكِ سَرِيّٗا﴾.

تلفتت الأم العذراء -صلى الله عليها وسلم- تبحث عن السري، فإذا المعجزة.. جدول ماء، يجري بجانبها. مدت يديها، وبدأت تغرف منه،

وترتشف، وتغسل طفلها ووجهها، وإذ بالملاك الذي لا تنتهي بشائره، يسعدها بخارقة أخرى، فيقول: ﴿وَهُزِّيٓ إِلَيۡكِ بِجِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ تُسَٰقِطۡ عَلَيۡكِ رُطَبٗا جَنِيّٗا ٢٥ فَكُلِي وَٱشۡرَبِي وَقَرِّي عَيۡنٗا﴾، مدت يدها الناعمة المتعبة للجذع ودفعته، وإذ بالمعجزة:

الجذع الثابت يهتز بكف العذراء الضعيفة، والشماريخ فوقها تتأرجح، فتساقط حبات الرطب الحلوة الملونة بين يديها. تبهرها الرحمة، فتلتقط الحلوى وتغسلها بماء السري وتأكل دون أن تنهض من مكانها، ثم تحني رأسها، فيتناثر شعرها المبلل على القمر، الذي يزين حجرها، فتزيح بعضه عن وجهه، وترضعه، فيقبل على نهر الحياة حتى يرتوي، ويغفو.

فتمهده بثوب من ثيابها، وتتأمله، فينسيها جماله كل ما مر بها من آلام، وبعد أيام تتذكر قول الملاك: ﴿وَيُعَلِّمُهُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ ٤٨ وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾، فتنهض وهي تحمله لتهديه إلى القدس الحبيبة.



طريق الصمت

استردت مريم عليها السلام بعض عافيتها ونشاطها، فخفق قلبها للقدس الحبيبة.. نهضت فجمعت متاعها، ووضعت خمارها على رأسها، وودعت جدول الماء ونخلتها، والمكان القصي الذي احتضن غربتها، ومهدت قرة العين، وحملته لتهديه للقدس.

ارتفعت مع الدروب، وانخفضت، وهي تتذكر قول الملاك لها: ﴿فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلۡبَشَرِ أَحَدٗا فَقُولِيٓ إِنِّي نَذَرۡتُ لِلرَّحۡمَٰنِ صَوۡمٗا فَلَنۡ أُكَلِّمَ ٱلۡيَوۡمَ إِنسِيّٗا﴾، تهادت حتى أقبلت على مدينتها الحبيبة، فإذ بأمواج المشاعر تصطفق في قلبها.. الشوق والخوف.. الاتهام والبراءة.. مشت صامتة تتحاشى العيون والتجمعات، حتى صادفت أشخاصًا أو شخصًا لم تستطع تحاشيه.. تعرف عليها.. أأنت



مريـم؟ ومريـم لا تـرد. ما هذا الطفـل؟ ومن هو؟ ومـن هو أبـوه؟ لم لا تجيبين؟ لم تسـتطع البتـول التخلـص مـن حصـار الشـك والقـذف والاتهـام ولا التفلت مـن حصـار الأسـئلة والعيـون، فتوقفـت: لم لا تجيبيـن؟ تداعـى الإسـرائيليون الفضوليـون حولهـا، يتهمونهـا بالرذيلـة، والوثنيـون يتفرجـون دون اكتراث.

أتـى الحاخامـات، فأخضعوهـا لمحاكمـة علنيـة فـي طرقـات القـدس. هـذا ما كانـت تخشـاه أفضـل فتـاة علـى الأرض:

بـدأت المحاكمة: مـا هذا الرضيـع الملفـوف يا مريم؟! نحـن لا نعلم أن لك زوجًـا.. أمك لا تعرف لـك زوجًا.

فاضـت عيناها، وهي تتلقى الطعنـات حين ﴿فَأَتَتْ بِهِۦ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُۥ قَالُواْ يَٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا ﴿٢٧﴾ يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا﴾، كيـف تشوهين سـمعة آل عمران؟

رفعت مريم رأسـها، واحتضنـت رضيعها بيد واحدة، ورفعت الأخرى لتشير بإصبعهـا نحـوه.. كلمـا طرحـوا عليها سـؤالًا أشـارت إليـه.. تعجبـوا منها؟ هل جنـت الفتاة؟

أجل.. نحن نسألك عن هذا الملفوف في المهد؟

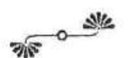
وفجأة توقفت إشاراتها، وأصيب القاذفون بالخرس.

سكت الجميع. سكت كل شيء، ونطق الرضيع.. تكلم وهو بين لفائف المهد، وقال: ﴿إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا﴾.

اتسعت الأعين، وفُغرت الأفواه.. أسقط في أيدي المحاصرين.

وذهل القضاة.. زادت مريم طهرًا في عيونهم، ومكانة في قلوبهم، فأفسحوا الطريق لهذا الأمير كي يمر.. ساروا خلفه، وخلف أمه، كالحاشية، بعد أن أوقفوهما كالعسكر. ألجمتهم المعجزة المبهرة، وكأنها ذكرتهم بمعجزة أكبر منها.

فلئن خلق الله عيسى بلا أب، فإن أباه آدم خلق بلا أب وبلا أم.



الله يحدد هوية عبده عيسى

اتسعت أعين اليهود حول مريم.. خرس الذين قذفوها واتهموها بالخنا.. ابتلعوا ألسنتهم حين تكلم الطفل في مهده، وأفصح لهم عن هويته، وأنه عبد لله الذي خلقه ويميته ويبعثه،، فارتفعت مكانة مريم بين الناس، فأفسحوا لها الطريق، كي تمر مبجلة.

سار الحشد خلفها، وخلف رضيعها، وأدرك المؤمنون بأن خلق عيسى معجزة كمعجزة أبيهم آدم، الذي خلقه الله بلا أب وبلا أم، فقال: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾، وحدد الله هويته، فقال: ﴿ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ ٱلْحَقِّ ٱلَّذِى فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٣٤﴾ مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ سُبْحَٰنَهُۥٓ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾.

أصبحت مريم ملء السمع والبصر، واستأنفت تبتلها ورهبانيتها ومناجاتها، وعيسى يزين محرابها وحياتها بجماله وبراءته.. يكبر فيكبر حبه في قلبها، ويبدأ بالوقوف وهو ينتفض ويسقط، ثم ينهض ويدرج وهو يتأرجح ويتعثر.

تلاعبه ويلاعبها، يكبر عيسى فتأخذه إلى خالته، أو تزورهم خالته، فيلعب مع ابنها يحيى، وتزداد صداقتهما، وهما يمضيان سنين المراهقة، وسط إعجاب

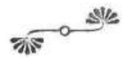
الناس بأخلاقهما، وبرهما لوالديهم خاصة يحيى الذي آتاه الله الحكم صبيًّا، ويبلغان سن الرجولة، فينشغلان مع نبي الله زكريا بنشر الوعي والتوحيد بين الإسرائيليين والوثنيين، فيضيق الروم المحتلون بالثلاثة، وتبدأ المضايقات، ويتم القبض على يحيى، ويودع السجن، ويتلقى ألوانًا من التعذيب.

وفي أحد أيام المعاناة تلك، يسمع يحيى وهو في زنزانته قرع أحذية من بعيد.. يرتفع الصوت شيئًا فشيئًا في الممرات الصخرية، حتى توقف أمام زنزانته، أدخلوا المفتاح في القفل وأداروه، وفتحوا الباب، ثم أقبل الجلادون عليه، وسحبوه عبر الممرات بعنف، ثم أدخلوه في مكان ملطخ بالدماء.

وضعوا رأسه على شيء صلب، ثم رفع أحدهم منشارًا، فوضعه على رقبته، وبدأ ينشرها حتى هوى رأسه على الأرض. مد أحدهم يده إلى رأس النبي الشاب، ثم التقطه يقطر دمًا، وأخذه نحو حاكم فلسطين الوثني. ابتسم الطاغية الوثني، وأمر بوضعه على طبق من فضة، ليقدمه هدية لعاهرة.

خيم الحزن على القدس.. رحل النبي الشاب يحيى بن زكريا شهيدًا، فبكاه الإسرائيليون الموحدون، وانفطر قلب أمه، وبكته مريم، وبكاه صديقه ورفيق دربه، وابن خالته عيسى عَلَيْهِمَا السَّلَامُ، وعاد زكريا كما كان فردًا، أُنتزع ابنه البار منه.

لكن مهلًا؟ كيف يموت يحيى قبله، وقد استجاب الله دعاءه بأن يرثه يحيى؟



الحزن يخيم على القدس

أُنتزع يحيى الابن البار من أبيه زكريا، وهو في عنفوان شبابه.. حرمه الوثنيون رؤية أحفاده، فانفطر قلبه، وبكى حبيبه، وسلم أمره لربه، لكن مهلًا؟ كيف يموت يحيى قبله، وقد استجاب الله دعاءه، حين قال: ﴿فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ۝٥ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ ۖ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا﴾.

أجل قد استجاب الله له، فورث يحيى والده وهو حي.. ورثه النبوة، فالأنبياء لا يورثون مالًا، حيث يقول النبي عَلَيْهِالسَّلَامُ: «إنا معشر الأنبياء لا نورث، ما تركنا فهو صدقة»[1].

لم يسكت زكريا.. احتج لدى السلطة الوثنية على تلك الجريمة بحق ابنه وفلذة كبده، فعلم الحاكم الوثني، فأصدر أمرًا بالقبض على الشيخ النبي الحزين.. خيم الحزن على تلك العائلة المؤمنة، وضاقت بها الأرض، حين سمعوا لغط الشرطة الوثنية، وهي تطرق الباب للقبض على الشيخ الحزين، لكنها لم تجده.. بدأ الجلادون بتمشيط شوارع القدس وأزقتها، وتفتيش بيوت اليهود الموحدين وبساتينهم، وكأن زكريا مجرم، أو قاطع طريق.

قلبت الشرطة القدس حجرًا حجرًا، وأخيرًا تمكنت من القبض على النبي الطاعن في السن، الذي وهن عظمه، واشتعل رأسه شيبًا، واحترق جوفه حزنًا على فلذة كبده وأمنيته. اقتادوا نبي الله للسجن، مصفدًا بالحديد.. يترنح وهو يقاد بعنف، وتردد ممرات السجن الحجرية صلصلة السلاسل، التي تثقل يديه وقدميه وشيخوخته.

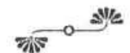


أوقفوه أمام الزنزانة، وفتحوا بابها ثم رموه فيها، وبعد مدة نفذوا حكم الإعدام فيه.. استشهد الشيخ بعد استشهاد ابنه في ظل حكم روماني وثني، لا يطيق التوحيد ولا العدل، أعدم زكريا، وهل هناك أشد من قتل نبي، أو قتل آمر بالعدل: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ ٱلَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِٱلْقِسْطِ مِنَ ٱلنَّاسِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾.

سال دم نبيين يهوديين كريمين، والأشنع أنه قد شارك في سفك دمائهما حاخامات خدمة وتزلفًا لسلطة رومانية وثنية.. تغير بنو إسرائيل كثيرًا، فبعد أن مارسوا المناكفة والتحايل مع موسى وهارون وغيرهما.. سلط الله عليهم

(١) سنده صحيح رواه أحمد (٩٩٧٢) وقد مرمعنا وهو عند البخاري لفظ آخر.

(البابليون والفرس وأخيرًا الروم)، وها هم يتورطون أكثر، فيسهمون مع الوثنيين في محاولة للقضاء على آخر نبي يهودي.



مطاردة آخر نبي يهودي

تغير بنو إسرائيل كثيرًا، فبعد أن مارسوا المناكفة والتحايل مع موسى وهارون وغيرهما.. ها هم يتورطون أكثر، فيسهمون مع الوثنيين في قتل نبيين إسرائيليين منهم.

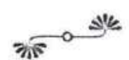
جرائم كبرى أغضبت الجبار سبحانه، فحكم عليهم بالذلة والمسكنة، بحيث لا يستطيعون الدفاع عن أنفسهم، ولا التصدي لأعدائهم إلا بحبل من الله، أو عن طريق أمم أخرى، تحميهم أو تدافع عنهم، فقال سبحانه ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوٓا۟ إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ ٱلنَّاسِ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْمَسْكَنَةُ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ﴾.

وها هم يشعرون بنجم عيسى يرتفع بالنضال، ونشر التوحيد، ورفض الظلم، ليبدؤوا التخطيط لنحر آخر أنبياء اليهود عيسى ابن مريم صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.. كان عيسى قد تجاوز الثلاثين، لكنه كبقية الأنبياء من قبله.. بدأ بأهله وأسرته، ثم بشعبه الإسرائيلي، الذي انحرف الكثير منهم، وأصبحوا في صف الوثنيين.. توجه إليهم في شوارعهم وأسواقهم ودكاكينهم، وداخل المسجد الأقصى.

هتف بهم، مبشرًا المؤمنين منهم بالجنة، ومبشرًا أيضًا ببعثة رسول، يأتي من بعده هو نبينا محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ومؤكدًا على أنه يؤمن بكل ما جاء به موسى من التوحيد في التوراة، فقال: ﴿يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ﴾.

نظـر بعـض اليهود إلـى بعض بتعجب، فهذا الشـاب في نظرهم لا يسـتحق أن يكـون معلمًا لحاخاماتهـم الكبار، الذين يتاجـرون بالدين، حتـى اتخذهم الناس أربابًـا من دون الله: يحرمـون عليهم الحلال، ويحلون لهم الحـرام، فيطيعونهم.. لم تعجبهم دعوة المسـيح، لذا هـددوه، وذكروه بمصير زكريـا ويحيى ودمائهما، التـي لم تجـف بعـد إن لم يتراجع، لكنه لم يتراجـع.. مضى يقـدم الدليل لهم تلو الدليل..

ذات يـوم وقـف أمامهم يناديهـم، فلما تحلقوا حولـه.. انحنى ومـد يديه نحو التربـة، فأخـذ قليـلًا منهـا، ثم سـكب عليـه بعض المـاء، ثم بـدأ يعالجـه بأنامله، حتـى تحول إلـى طين، ولما أصبح الطين متماسـكًا، قام بتشـكيله على هيئة طير، ثـم رفعـه لهم، ولما ركـزوا أبصارهم فيه، إذ بلـون الطين يتغير، وإذ بالطين نفسـه يتحـول،. قربـه مـن فمه، ثـم نفخ فيـه.. خيـم الصمت علـى الحضـور، ينتظرون نهاية المشـهد.



المسيح والمعاناة

رفـع المسـيح ابـن مريـم ﷺ تمثالـه الطينـي؛ ليـراه الإسـرائيليون والوثنيـون، ولمـا غرزوا فيـه أبصارهـم.. قربه من فمه، ثـم نفخ فيـه، وفجأة تغير لـون الطيـن.. تغيـر شـكله.. كسـاه الريش، ثم دبـت فيه الحيـاة، فانتفض ريشـه، وتحـرك رأسـه، وفتح عينيـه الصغيرتيـن، وبدأ يتلفـت، وكأنه يقـول للمتفرجين: آمنوا.

رفـع المعجـزة عيسـى معجـزة ربـه بيديـه أكثر، فـإذ بالطيـر يرفـرف بجناحيه ويطيـر.. يحلـق بعيـدًا، لتحلـق خلفـه عقـول وأرواح، إلا عقـولًا صدئـة.. عقول حاخامـات الظـلام وسـدنتها.. شـعروا بزلـزال يصـدع دجلهـم.. شـاب صـادق

ونزيـه، يفضـح اسـتغلالهم للديـن وللنـاس، لـذا رمـوه مباشـرة بتهمـة تتناسـب والمشـهد.. التفتـوا لجمهورهم وصاحـوا كما صاح فرعون مـن قبل: هذه خدعة قديمـة.. هذا سـحر مبيـن وواضح.

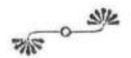
سـكت المسـيح.. أسـكته الحزن، ثم غادر المكان ثقيلًا، فالقدس وسـاكنوها يشـهدون أنـه ما كذب يومًا.. طفولته تشـهد وشـبابه.. غادر عيسـى المكان، لكن لم يكـن لوحـده.. أخذ معه بعض القلـوب، التي هزتها المعجـزة فآمنت.. أصبح لـه صحابة، وأصبـح له أعداء، من تجـار الدين.

بدأ المسـيح ﷺ يجـدد التوحيد في نفـوس أتباعه، ويأمرهـم بعبادة الله وحـده فقـط، ويأمرهم بالقسـط والعـدل، فلم يتعرض لـه الوثنيون بدايـة.. الذين واجهـوه هم من قبيلتـه بني إسـرائيل، وبالتحديد هم حاخامات تربطهم بالسـلطة البيزنطيـة الوثنية والنائب البيزنطي مصالح مادية، لذا شـرعوا بالتخطيط، لتحطيم المسـيح حيـن رأوا أتباعـه يكثرون شـيئًا فشـيئًا، لأنه كلمـا آمن به رجـل أو امرأة خسـر هـؤلاء الحاخامـات أتباعًا ودراهـم يأخذونها منهم بغير وجـه حق.. بدؤوا تكـرار المماحـكات التي مارسـها أسـلافهم مع موسـى والأنبياء قبلـه، بينما كان المسـيح يفحمهم بالمعجزات.

ذات يـوم مـر علـى ميت ينـوح أهلـه عليـه، فمسـحه ودعا ربـه سـبحانه، فإذ بالميـت ينهض مجـددًا.. مر بأبرص فشـفاه الله علـى يديه، ناداه أعمى وسـأله أن يدعـو له بالشـفاء فدعـا الله، فإذ بالنور يمزق سـتار الظـلام عن عينيـه، لينتقل إلى عالـم تزينه الأشـكال والألوان.

لم ينسـب عيسـى شـيئًا من تلك الخوارق المعجزة لقدراته الذاتيـة.. بين لهم أن كل الـذي يجري على يديه كان بأمـر الله قائلًا: ﴿أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ﴾، أدهشـت المعجـزات طلبـة المسـيح

الحواريين، بل أغرتهم بالمزيد، فتوجهوا يومًا إليه، طالبين منه معجزة تخرس الجميع، وتشمل الجميع، ويلمسها بنو إسرائيل بأيديهم.



مائدة من السماء

توجه الحواريون نحو عبدالله ورسوله عيسى ابن مريم صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فطلبوا منه طلبًا غريبًا، وكأنهم يريدون أن يغروا أهلهم اليهود بالتوحيد والإسلام لله، ولما وقفوا أمامه قدموا مطلبهم بصيغة مؤدبة. قدموه على صيغة استفهام: ﴿يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾؟.

لم يقولوا: أنزل علينا، ولم يقولوا: اطلب من الله، ومع ذلك أغضب طلبهم عبدالله عيسى صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فنهرهم، وقال: ﴿ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾، وكأنه يقول لهم: أما يكفيكم ما رأيتم من الآيات والمعجزات، ما يثبت لكم أني عبدالله ورسوله، وأن التوحيد هو الحق. ألم تؤمنوا بعد، أم أنكم تنهجون منهج الحاخامات والكهنة المرتزقة، الذين يخشون الحق، لأنه سيوقف تدفق أموال المساكين والمغفلين باسم الدين إلى جيوبهم؟

غضب المسيح ابن مريم صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من هذا الطلب، فخاف الطلبة من غضب الجبار سبحانه، وقدموا اعتذارهم لله سبحانه، ثم لعبده عيسى ابن مريم، وبينوا أنهم لم يطلبوا ذلك شكًّا في أنه عبدالله ورسوله، ولكن لتقوية إيمانهم، ورفع معنوياتهم، وسط أجواء الإحباط، التي زرعها الروم الوثنيون، وتجار الدين من الحاخامات. قال الحواريون: ﴿نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾.

سكت المسيح عبدالله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. لم يجبهم، فالأمر ليس بيده، بل بيد خالقه ومرسله، لذا توجه إليه وحده، ودعاه وحده سبحانه، وناشده أن ينزل

عليهم مائدة من السماء تسعدهم. ويجعلونها هم وذريتهم عيدًا يحتفلون بذكراها كل عام. ﴿قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا وَءَايَةً مِّنكَ وَٱرْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾.

لم تنزل المائدة مباشرة. نزل وعيد شديد من الجبار سبحانه، لكل من يكفر من اليهود والنصارى، بعد أن يأكل من تلك المائدة ثم يرتد. وعيد شديد يخلع القلوب، حيث قال سبحانه لعبده ابن مريم صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ محذرًا: ﴿قَالَ ٱللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّيٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

وفي اليوم الموعود كان المسيح صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في المكان الذي حدده له خالقه، وحوله الحواريون وكلهم شوق لمعجزة ربهم، وحول هؤلاء تكدس النصارى المؤمنون واليهود الفضوليون، وفجأة ارتفعت الرؤوس نحو السماء. وارتفعت التأوهات والأيدي، وأشارت الأصابع نحو شيء مذهل يهبط عليهم.

ارتجفت القلوب وفاضت العيون، وهي تتملى مائدة ملونة فاخرة، بما لذ وطاب. مائدة لم تمسها نار، ولم تخرج ثمارها من بين التربة والسماد، ولم يقدد لحمها من ظهور البهائم. مائدة هضيم. ليس فيها عظام، ولا نوى، ولا قشور، ولا جلود، ولا شيء، لا يمكن أكله والتلذذ بطعمه.

مائدة من السماء. أبدعها الله وخلقها كما خلق عيسى ابن مريم. بكلمة واحدة: (كن فيكون).

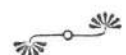
استقرت المائدة على الأرض. لم يكن هناك تزاحم لاهتبالها. إنها فاخرة جدًّا، وكافية لأولهم وآخرهم، لذا لا داعي للهلع وخشية النفاد.

جلس الجميع حولها. يأكلون والطعم يسافر بهم مع كل لقمة. واللذة تحلق بهم مع كل مضغة، والهمهمات ترتفع، والالتفاتات تعبر عن الدهشة لا تتوقف. سكتت الأفواه المشغولة عن الكلام. تركت التعبير للحواجب

التـي ترتفع إعجابًـا، وللعيون التي يبتسـم بعضها، ويفيض بعضهـا. مائدة جعلت قلـوب المؤمنين ترتجـف. تثني على الكريم سـبحانه على هـذه اللوحة الأخاذة، وكان أكثرهـم شـكرًا هـو عبـدالله ورسـوله عيسـى ﷺ، وكيـف لا يكـون كذلـك، وربـه يمطـره بمعجـزات لم تكن لمـن قبله.

شـبع الجميـع وهم يودون لو لم يشـبعوا، أمـا المائدة فلم ترفـع، ولـم يكن لها فضـلات أو بقايـا أو نفايات. تلاشـت بعد أن شـبع الجميـع، وامتـلأ الجميع، ثم نهض المسـيح، وهو يشـكر خالقه وخالـق المائدة، وتوجه لقومـه راجيًا إياهم أن يؤمنـوا، ويلتزمـوا بتوحيـد ربهم، ثـم أخبرهم بمصير مـن يكفر بالله، بعـد أن رأوا ولمسـوا وأكلوا معجـزة لـم تكن لغيرهم، وكأنـه يقول لهم: إن موائـد الجنة أفخر وألـذ. فأطاعه المسـلمون النصارى، وانسـحب الكثير من الإسـرائيليين، وكأنهم يقولـون: يا له من سـاحر.

حـزن المسـيح لكفرهم، لكنـه لم ييأس ظـل يدعوهـم للتوحيـد، يفقههم في دينهـم. لكن عيونًـا كعيون الشـياطين كانـت تلاحقه وترصـد حركاته.



المسيح وأمشاط الحديد

ظـل عيسـى ابن مريـم ﷺ يفقه شـعبه الإسـرائيلي في دينهـم.. يأمرهم بتطبيـق التوراة.. ينهاهم عن الشـرك بـالله وعبادة غيره.. ينهاهم عـن صنع تماثيل للمخلوقـات، التي تـدب علـى البر، أو تسـبح فـي البحـر، أو تطير في السـماء. حذرهـم من عقـوق الوالدين والربـا والزنـا وأكل الخنزير.

كان المسـيح باختصـار مصدقًا للتـوراة، متبعًا لأحكامها، فبـدأ التضييق عليه، حيـث لاحـظ الحاخامـات تزايـد صحابتـه، وانتشـار دعوتـه.. لم يكونـوا ضـد انتشـار التوحيـد.. كانـوا ضـد تفعيل أحـكام التـوراة، التي تنهـى عن الزنـا والربا

والمكـوس وأكل أمـوال الناس بالباطل، لأنهم يتعايشـون على جيـوب المغفلين والأتبـاع السـذج، لذا قـرروا إزاحة المسـيح عـن طريقهم.

اتهمـوا أمـه، وقذفوهـا فلـم يفلحوا.. شـوهوا سـمعته فلـم يفلحـوا.. لم يبق لديهـم سـوى حـل واحد، هو اسـتعداء الحاكـم البيزنطـي الوثني السـفاح، الذي قتـل زكريـا ويحيى، ولما بـدأت المضايقات قرر المسـيح أن يشـكل من أصحابه فريقًـا، يعتمـد عليـه بعد الله في نشـر الدعـوة، فقـال: ﴿مَنْ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾؟

سـكتت الأغلبيـة خوفًـا، ونطـق اثنـا عشـر رجـلًا، وقالـوا: ﴿نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾، لم يكتـف هـؤلاء الحواريـون بذلـك.. توجهـوا نحـو الله، يشـهدونه علـى بيعتهـم، ويقولـون: ﴿رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾، لكـن عيونًا كعيون الشـياطين كانت تلاحقهـم، وترصد حركاتهم وتدرسـها، ثم تتوجـه لنائب الإمبراطـور البيزنطي، لتقـدم تقاريرهـا الشـيطانية له.. قدمـوا تقارير تديـن المسـيح ﷺ، وتتهمه بالسـعي للسـلطة، وإذ بالحاكـم الوثنـي يصـدر أمـرًا بالقبـض عليـه لإعدامـه.. انتشـر العسـكر يسـتجوبون أنصـار المسـيح الموحديـن، فخلت شـوارع القدس مـن عيسـى.. اختفى المسـيح ﷺ وتوارى عـن أعين الحاخامات وسـياط العسـكر.. لم يعـد يـراه أحـد.. فقد جمـع تلاميـذه الحوارييـن وأخبرهـم بعزمه علـى الانسـحاب مـن المشـهد، ريثما يخـف الضغـط، أو يجد بلـدًا بديـلًا، فهو بشـر، ولا طاقـة له بهـذا البطـش الوثنـي، لذا أخـذ تلاميـذه، وصعد بهـم مرتفعًا يتناوبـون في النـزول والتـزود بالطعام.

بكـت القـدس أطهـر شـبابها، وبكت مريـم حبيبهـا وابنهـا، فلم يـرف للجند جفـن، ولم تلن قلـوب الحاخامات، التـي وصف الله أسـلافها، فقال: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾، ظـل الأشـرار يراقبـون ويبحثـون، حتـى عثـروا علـى خاصـرة رقيقة، يمكن تسـديد طعنة للمسـيح مـن خلالها.

التلميذ الخائن

مر عبدالله ورسوله المسيح صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ باضطهاد، مر به الموحدون قبله، اضطهاد بلغ درجة مفزعة لا تطاق، وهي كشط الجلد واللحم بأمواس على شكل أمشاط، حتى قال النبي محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إن المؤمن منهم «**ليمشط بأمشاط الحديد، ما دون عظامه من لحم أو عصب، ما يصرفه ذلك عن دينه، ويوضع المنشار على مفرق رأسه، فيشق باثنين ما يصرفه ذلك عن دينه**»[١].

اختفى المسيح لكن الوثنيين لم يقبضوا على تلاميذه، فهم الوسيلة الوحيدة للوصول إليه.. ظل الأشرار يرقبون بعض تلاميذ المسيح، يتسوقون هنا أو هناك.. حاولت إغراءهم وتهديدهم، فلم تجد آذانا صاغية، وفي أحد الأيام صادفوا تلميذًا من تلاميذ المسيح، اسمه يهوذا الإسخريوطي.. اقتربوا منه.. هددوه فلم يلن للضراء، وأغروه فانهار للإغراء.. سال لعابه للمبلغ الذي قدموه له، فوافق بعد إلحاح على أن يدلهم على مكان المسيح.

لم ترق فكرة الوصف والإحداثيات للحاخامات والروم الوثنيين.. أرادوا خطة لا تثير التلاميذ، ولا تلفت انتباههم. فطلبوا أن يقودهم (يهوذا) بنفسه نحو المسيح، بحيث يدخل الغرفة التي يختبئ بها، فيداهمونها بعده، فوافق تحت إغراء بريق الذهب أو الفضة، وفي اليوم المحدد تجهزت فرقة المطاردة العسكرية، فجاء يهوذا، وطلب منهم أن يسيروا خلفه، بمسافة حتى لا يراهم التلاميذ، ثم بدأ بالمشي في ساعة من الليل متأخرة.



سار وسار والجنود يرصدونه.. تسللوا كالحيات بين الصخور والأغصان.. يكمنون هنا، ويتهامسون هناك.. ظلوا يصعدون، ولما أشرفوا على المكان كان المسيح ابن مريم وأصحابه عَلَيْهِمُ السَّلَامُ قد ناموا.. لم يدر بخلدهم أن صاحبهم

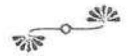
(١) صحيح البخاري (٣٦١٢).

قـد وقـع ضحية إغـراء المال.. لـم يـدروا أنه الآن فـي الطريق يقود فرقـة مطاردة، للقبض على نبيهم المسـيح، وتسـليمه للسـلطة الوثنية.

دبـت الوحـوش الشـريرة نحـو الغرفـة كالعناكـب السـامة. هنـا تقـدم يهـوذا وحـده كـي لا يثير ذعرهـم.. تقـدم ليعانق نبيـه، فيدخـل الجند، فيقبضـون عليه، أما المسـيح سـاعتها فـكان على الأرض، لكنـه كان في عالم آخـر. لم يكن نائمًا. كان عالمًـا من المشـاعر.

اختلطـت لديه مشـاعر الحزن على فراق أمـه الحبيبة، وصحابتـه المخلصين، وأتباعه المضطهدين.. بمشاعر مختلفة تمامًا.. مشاعر السعادة والاستعداد لرحلة المعـراج النورانيـة المذهلة، فقد هبط الملاك، الذي بشـر أمه والعالم به.

هبـط جبريـل دون أن يشـعر بـه التلاميذ.. نظـر إلى المسـيح نظرة مـن يقول: حـان موعـد الرحلة يا ابـن مريم، ونظر المسـيح نظرة المـودع لأحبابـه النيام، ثم اقتـرب منـه جبريل، وأخذه، وعرج به عاليًا نحو السـماء، وفجأة اسـتيقظ التلاميذ وهـم في حالة خـوف وفزع.



وداعا أيتها الأرض

اسـتيقظ التلاميـذ واحـدًا واحـدًا علـى وقـع أقـدام شـخص، يمـد يـده نحـو وجوههـم، يتصفحهـا واحـدًا واحـدًا، على وميض السـراج. لكن الـذي أصابهم بالذهـول هـو أن المسـيح كان ينـادي نفسـه بصـوت منخفض.

لم يكـن المسـيح.. إنه يهـوذا، والتلاميـذ ينظرون إليـه باسـتغراب. لا يدرون ما سـر تأملـه لوجوههم وهمسـه لنفسـه. تصفـح كل الوجوه، إلا وجه المسـيح، لم يعثـر عليـه.. لم يـدر أنه في الملأ الأعلى في السـماء، وبيـن الملائكة، وأن الله أنقـذه من كيـد الحاخامات وسـيوف الوثنيين.

انتهى يهوذا من تصفح الوجوه، بعد أن استيقظ الجميع.. لكن التلاميذ حدقوا به باستغراب.. لا يدرون سر تأمله لوجوههم، وهو قد رقد معهم قبل قليل.. كان الوضع مرتبكا.. ساد الصمت، وتكلمت العيون.. هم يحدقون به، دون أن يتكلموا إجلالًا له وهيبة، وهو يتساءل عن سر صمتهم.

وفجأة علا الضجيج.. داهم الجلاوزة الوثنيون المكان.. تصحبهم صلصلة السلاسل والسلاح والصراخ، يبحثون عن يهوذا الذي سيعانق المسيح المطلوب الأول للإمبراطورية البيزنطية.. علا صراخ قائد الجند، وهو ينادي يهوذا، ويبحث عنه فلا يجده، ويهوذا ينظر إليه وهو يكاد يجن، والتلاميذ ينظرون إلى يهوذا، فيزداد جنونه، وهو ينصت لصراخ التلاميذ، يقولون له: اهرب يا رسول الله، اهرب. اهرب يا عيسى، ويهوذا يقول: لست المسيح.. أين ذهب المسيح أنا يهوذا؟

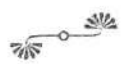
تعقد المشهد، فهناك أحد عشر شاهدًا يشيرون إليه على أنه المسيح، فأين اختفى يهوذا الخائن؟

قبض الجند على المسيح الذي أمامهم، وهم لا يدرون أنهم يقبضون على دليلهم الخائن (يهوذا الإسخريوطي)، الذي عاقبه الله، فألقى عليه آخر معجزات نبيه عيسى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.. ألقى عليه صورة المسيح، فتم اعتقاله، على أنه المسيح، أما المسيح الحقيقي، فعرج به جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ، ورفعه نحو السماء، ليبقى هناك حتى الموعد المحتوم.

حزنت أمه مريم البتول، لكن الله سبحانه ربط على قلبها، ولا بد أنها قد علمت بحقيقة ما جرى فأخفته، لكن شوق الأم لحبيبها ظل حتى ماتت.. تتذكره كلما رأت محرابه وغرفة نومه.. كلما رأت ثيابه وبقايا طفولته.. كلما مرت بغرفتها الشرقية، أو بتلك النخلة التي تساقطت عليها رطبًا جنيا في ذلك المكان القصي، حيث ولدته.

عبر هذا الطريق حملته، وفي هذا الطريق المقدسي حاصرتها الألسن والاتهامات، وهنا نطق رضيعها، فانقشعت عنها غمامة الظلم والاتهامات.. هنا كان يلعب المسيح مع يحيى، وهنا كان يدرسهم زكريا.. من هنا كان يصحبها إلى بيت المقدس، وهنا فاضت عيناها، وهي تراه نبيًّا ينشر التوحيد ويدعو للعدل.

رحل عبدالله ورسوله عيسى.. توفاه الله، لكنه لم يمت، فما الفرق بين الوفاة والموت؟



المسيح بين الوفاة والموت

رحل عيسى ابن مريم صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.. رفعه الله إلى السماء.. توفاه الله، لكنه لم يمت، فما الفرق بين الوفاة والموت؟

الوفاة حالة من الغياب تشبه النوم أو الإغماء، أما الموت فحالة مفارقة تامة للروح للجسد الذي يتحلل بعدها، فخالق الأنفس والأرواح سبحانه، يقول: ﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا ﴾، ثم يبين الفرق بين الحالتين، فيقول جَلَّ وَعَلَا: ﴿ فَيُمْسِكُ ٱلَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّىۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾.

اختفى عبد الله ورسوله عيسى ابن مريم عن وجه الأرض، وبكاه تلاميذه المخلصون، وبكاه أتباعه، وأُسدل الستار على آخر أنبياء اليهود بني إسرائيل، بينما كان الجنود يسحبون يهوذا الخائن، نحو السجن على أنه المسيح.. أدخلوه في زنزانة بانتظار الحكم عليه، وبعد أيام صدر الحكم بإعدامه صلبًا.

وفي اليوم المحدد أخذ نحو الموقع، ثم شد على الصليب، ودقت المسامير في يديه وقدميه، ثم أنزل في اليوم اللاحق، ثم وضع في غرفة تحت الأرض على أنها قبر، ليكتشف الناس أن جثته اختفت.. هنا تحيروا.. أين ذهبت جثته؟

هل اكتشف الرومان أنه الرجل غير المطلوب، فأخرجوه خشية الفضيحة.. لا أحد حتى اليوم يستطيع إثبات شيء من ذلك.

اختفى عيسى عن الأرض، واختفى معه الإنجيل، فهو لم يحدد تلاميذًا يكتبون الإنجيل والوحي، كما فعل النبي محمد ﷺ مع القرآن، والمسيح أيضا لم يأمر بحفظ الإنجيل في الصدور والسطور، كما فعل النبي محمد ﷺ مع القرآن، كما أن المسيح لم يجعل للحافظ الأولوية في إمامة الصلاة، كما فعل النبي محمد ﷺ.

اختفى عيسى ﷺ وهو يعبد الله وحده، ويصلي ويصوم لله وحده لا شريك له.. ويعترف أن معجزاته منه سبحانه.

كان مختونًا، ولم يأكل الخنزير، كما نهى أتباعه عن صنع التماثيل والأصنام، فما الذي حدث بعد رحيل المسيح وجعل النصارى يكدسون التماثيل في الكنائس ويأكلون الخنزير؟ من الذي أمرهم بترك الختان؟ وقبل ذلك كله، والأخطر على الإطلاق: من الذي أمرهم بعبادة المسيح نفسه وعبادة جبريل معه؟

أسئلة يجيب عليها ذلك المخبر والسفاح اليهودي الذي تقطر يداه دما، وهو يسوق مجموعة من الأبرياء النصارى، ليعدمهم بأمر من الدولة الرومانية الوثنية.. مجرم أزعجه انتشار التوحيد النقي.. لم يشف غليله اختفاء عيسى، والهدف من اختفائه قد فشل، فها هو التوحيد ينتشر، والمتآمرون يشعرون بالإحباط.. هنا لا بد من الانتقال للخطة البديلة.

الخطة البديلة وشيطانها

اختفى المسيح، ومع ذلك ظل التوحيد ينتشر، والمتآمرون يشعرون بالإحباط بعد فشل مخططهم.. هنا كان لا بد من الانتقال للخطة البديلة، وهي خطة، لا تستهدف الأشخاص، فقد ثبت أن استهداف الأشخاص واضطهادهم، يكسبهم شعبية وأتباعًا جدًا، ويحرض الناس على السؤال والاستقصاء عنهم، ثم اعتناق أفكارهم.

الخطة البديلة كانت من إبداع مجرم من شعب المسيح.. من بني إسرائيل أنفسهم اسمه (شاءول)، وهو عميل للروم، وكانت مهمته هي التجسس وملاحقة الحواريين وبقية المسلمين من أصحاب عيسى صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.. يتتبعهم في فلسطين.. يلاحقهم في القدس.. في أي مكان يسمع بهم، ثم يقبض عليهم، ويشحنهم ليتم إعدامهم في دمشق، ثم ماذا؟

تعب شاءول، فكلما أعدم نصرانيًّا موحدًا على دين المسيح أسلم عشرة.. ضاعت جهود شاءول، فاجتمع مع أسياده، وقرر تنفيذ خطته البديلة، وهي نسف دين عيسى ابن مريم صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من الداخل، ولن يكون ذلك إلا بنسف التوحيد، وسينفذها على خطوات:

الخطوة الأولى مرحلة يمارس فيها النفاق والتظاهر بالتقوى والورع لمدة أشهر، حتى صدقه بعض النصارى، فأقبلوا عليه يسألونه: ما الذي غيرك يا شاءول؟ ما الذي حولك من مجرم سفاح إلى ملازم للمحراب؟

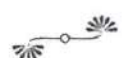
هنا بدأ شاءول بالخطوة الثانية، وأزاح الستار عن مسرحيته، التي غيرت العالم.. وأطلق كذبته التي دمرت التوحيد في نفوس الملايين من المسيحيين.. قال لهم: إنني كنت ذات ليلة في الطريق إلى دمشق، أسوق مجموعة من أتباع عيسى الموحدين الأبرياء لإعدامهم، وفجأة دوى هزيم رعد، وبرق أصابني بالعمى، وزلزلني، وشلني عن الحركة، فسقطت على الأرض، وإذ بصوت يصيح بي: يا شاءول.. يا شاءول لماذا تضطهدني وأنت نبي؟

رفعـت رأسـي نحـو مصـدر الصوت، فـإذ بـه يطلب منـي أن أذهـب إلى قس اسـمه حنانيـا.. نهضـت خائفًـا، ومشـيت حتى وجدت مـن يدلني عليـه، فذهبت إليـه، وأخبرتـه بمـا جرى لي، فمسـح عيني، فسـقط منها مثـل القشـور، وعاد لي بصري!

انطلـت هـذه الكذبـة علـى الجهلـة والسـذج، بينمـا ظـل كثيرون متشـككين مرتابيـن، هنا.

بدأ شـاءول بممارسـة النفاق، أي التظاهر بالتخلص من ماضيه الأسود، وكان أول مـا تخلص منه هو اسـمه. اسـتبدل اسـم (شـاءول) باسـم جديد هـو (بولس الرسـول). خطـوة تعاطف البعض معـه بعدها، وصدقوا أنه رسـول.

بعدهـا.. بـدأ بتنفيـذ خطوتـه الثالثـة، وهـي الأخطـر، لأنهـا دمـرت العقيـدة المسـيحية حتـى اليـوم.





الخطوة الأخطر لشاءول

فـي أحـد الأيـام دعـا شـاءول النصـارى المصدقيـن لـه، والمرتابيـن منـه للاجتمـاع، فانطلقت الخطـوات نحوه.. كانت العيون مشـدودة، والقلوب تخفق بانتظـار جديـده، وإذ بـه ينطق كفرًا بكل رسـالات السـماء.. كفرًا بكل رسـالات الأنبياء.

بصـق (شـاءول بولـس) أمـام الجمهـور المتحلـق حولـه أكبـر أكذوبـة فـي التاريـخ، فقـال لهم: إنـه مر بطريق دمشـق مرة أخـرى. ذلك الطريـق الذي ادعى أن المسـيح ظهـر له فيه، وكان الوقت ليـلًا أيضًا، وإذ بالرعـد يقصف في الأجواء كتلـك الليلـة أيضًا، وإذ بالمسـيح يظهـر أيضًـا ويقول له:

يا شـاءول.. يا شـاءول. اذهب لأتباعي وأخبرهم أني نسـيت، وأن كل الأنبياء قبلي نسـوا أيضًا. كلنا نسـينا أن نخبر العالـم أنني ابن الله.

انفجـر المـكان بالاحتجـاج.. بصيحـات الاسـتهجان علـى هـذه الوثنيـة، ودبـت الفوضـى حول الدجـال، وكفر الحواريـون بهذا الإفـك، الذي ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرۡنَ مِنۡهُ وَتَنشَقُّ ٱلۡأَرۡضُ وَتَخِرُّ ٱلۡجِبَالُ هَدًّا ٩٠ أَن دَعَوۡاْ لِلرَّحۡمَٰنِ وَلَدٗا﴾، لكـن النصـارى كبقيـة شـعوب الأرض.. منهـم المؤمن قـوي العقيدة، ومنهم السـاذج والأبلـه، الذيـن صدقوا هـذا الأفـاك المدعوم مـن الوثنيين، وحاخامـات اليهود، فأصبحـوا أتباعًـا له.

مـرت الأيـام فبدأ (بولس. شـاءول) الدجـال يواصـل تنفيذ مخططـه في غيبة الإنجيـل الصحيـح.. بـدأ بالعبث بأحـكام التـوراة والإنجيل.. أبـاح لأتباعه أكل الخنزيـر.. أبـاح لهـم تـرك الختـان، وفي النهايـة تمكن شـاءول مـن تصميم دين جديـد.. صمـم دينًا أقرب للوثنية، فهـو متعدد الآلهة.. دين لا يبالي بالذبح باسـم الله، ولا بـأكل الخنزيـر، الذي حرمه المسـيح نفسـه، ولـم يبال بسـنن الأنبياء منذ إبراهيـم عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ وهـي الختان، لا سـيما والكتاب المقـدس كثيرًا ما يعيـر الوثنيين بأنهـم (غلف).

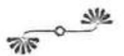
ظـل (شـاءول. بولـس) يتوسـع في البـدع لدينـه الجديـد، ليختـرع لهـم إلهًا جديـدًا، ويضيـف إلهًا ثالثًا هو المـلاك جبريل عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ، بل وتتكاثـر الأناجيل يومًا بعـد يوم مـن إنجيل واحـد إلى أكثـر من مائتـي إنجيـل متناقضة.

الكارثـة هنـا أنها تحتوي على أكثر من عشـرين ألف خطأ باعتراف القساوسـة اليوم[1].

---

(١) أجل (٢٠٠٠٠ خطأ) في كتاب يُفترض أن يبقى نقيًا كما أقرت بذلك هيئة من الخبراء الإنجليز قامت عام (١٧٢٠) بإحصاء عدد الأخطاء في (الكتاب المقدس)، فقدرتها بأكثر من عشرين ألف خطأ. ذُكر ذلك في مقال نشر في مجلة (Awake) عدد سبتمبر من عام ١٩٥٧م. انظر تفاصيل أخطر حول تلك الأخطاء في كتيب: (خمسون ألف خطأ في الكتاب المقدس).

استمر الحواريون تلاميذ عيسى الأنقياء على منهجه بعد رحيله.. استمروا بنشر التوحيد هم وتلاميذهم، وقد كانوا يشكلون الأكثرية النصرانية الساحقة لأكثر من ثلاث مئة عام، حتى جاء ذلك اليوم الأسود، الذي حكم فيه إمبراطور بيزنطي، اسمه (قسطنطين)، وهو الذي بنى القسطنطينية، وسميت المدينة باسمه، فقد كانت أمه المسماة (هيلانة) قد اعتنقت عقيدة (شاءول بولس)، وإذ بابنها قسطنطين يقلب المسيحية، ويغيرها بحد سيفه.



الدين الذي أطفأ الأنوار في أوروبا

ظل (قسطنطين) على عقيدته الوثنية، يعبد آلهة وأصنامًا متعددة.. إلهًا للحرب، وإلهًا للمطر، وإلهًا للخصب، وهكذا، لكنه تعاطف مع عقيدة أمه وهي عقيدة (شاءول)، وبدأ يناصر اتباعها، لأنها لا تتناقض مع وثنيته ذات الآلهة المتعددة.

وفي أحد الأعوام، وبالتحديد في عام ثلاث مئة وأربع وعشرين (٣٢٤م)، وبعد أن انتشرت النصرانية الإسلامية التوحيدية (عقيدة المسيح وعقيدة كل الأنبياء) انتشارًا كبيرًا قرر هذا الإمبراطور أن يفرض عقيدة أمه (الأرثوذكسية) بالسيف، ولكن بطريقة ذكية توحي بالإنصاف، لأنه يشعر بالقلق تجاه الأكثرية المسيحية، التي تؤمن أن الله واحد أحد، سبحانه لا شريك له.. لم يلد ولم يولد، وأنه ليس كمثله شيء.

قرر قسطنطين أن ينصر عقيدة أمه، لذا أصدر أمرًا بجمع قساوسة الأرض في مدينة (نيقية) الواقعة على بحيرة نيقية على أرض الأناضول، ليتباحثوا ويدرسوا ويتناقشوا، ثم يقرروا أي العقيدتين أصح: عقيدة المسيح، أم عقيدة بولس الدجال؟ انطلق رسل الدولة البيزنطية.. يعبرون الفيافي والقفار، ويشقون

البحار والأنهار.. يحملون رسائل الإمبراطور إلى كبار قساوسة ورهبان العالم في ذلك الوقت.

وصلت الرسائل، فرحب بها القساوسة النصارى، وشدوا الرحال نحو نيقية ظنًا منهم أن مؤتمرًا علميًا حرًا في انتظارهم.. أمضوا أيامًا وأشهرًا للوصول.

وفي شهر مايو من عام ٣٢٥ للميلاد، وصل أكثر من ألف ومئتين من قساوسة الأرض، فبدأت جلسات المؤتمر في العشرين من مايو، وأدلى كل عالم وراهب بدلوه في أخطر قضية مسيحية وهي هل المسيح إله أم بشر؟

تكلم أتباع (شاءول بولس) وهم الأرثوذكس وكان ق بثرثرة عجزوا فيها عن تقديم دليل على ألوهية المسيح، ثم تكلم أتباع عيسى ابن مريم فأفحموهم، وأثبتوا أن المسيح مجرد نبي ورسل كريم، ولا يتميز عن بقية الرسل إلا بمعجزة خلقه. وكان إمام هؤلاء الموحدين هو العالم والقس (إريوس).

ظن الجميع أن المسألة قد حسمت للتوحيد، ولكن.

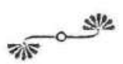
صُدم قسطنطين بنتائج المؤتمر، فقد كان ألف قس، وهم الأغلبية الساحقة على دين المسيح، يقولون: إن الله واحد أحد، لا شريك له، ولا ولد له، وأن عيسى نبي من الأنبياء، وخلق من مخلوقاته، وكان إمام هؤلاء الموحدين قس اسمه (إريوس)، أما الأقلية فكانوا على دين (شاءول بولس) الأرثوذكسية، أي يقولون: إن عيسى ابن الله. وكان قائدهم هو بابا الإسكندرية، واسمه (الكسندروس الأول).

صدم قسطنطين الوثني بنتائج مؤتمر نيقية.. تلفت فوجد أن الأغلبية الساحقة عكس توقعاته.. كلهم موحدون على دين التوحيد.. دين عيسى ابن مريم، وحدق بالأقلية، فإذا هي على دين شاءول، الذي اخترع فكرة أن عيسى ابن الله، وسمى نفسه (بولس الرسول).

غضب الإمبراطور وهو يرى دين أمه دينًا للأقلية، وبعد انتهاء المؤتمر قرر إرغام الأكثرية على دين (بولس)، وكأن النصرانية اختراع بشري، يخضع لمزاج الحاكم.

أصدر أمرًا بملاحقة الأكثرية، الذين لا يعترفون بألوهية المسيح، وأشهرهم القس (إريوس)، فانطلق الجند لمطاردتهم، وبدأت محاكم التفتيش الفظيعة، تبحث عن كل من يقول: لا إله إلا الله. لتبطش به سحلًا ونحرًا، وطالت المطاردات والتصفيات اليهود والفلاسفة أيضًا؛ لتدخل أوروبا عصور ظلمات وقمع، لا مثيل لها، حتى في العصور الوثنية.

عصور لم تفق منها إلا على يد محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.



عصور أوروبا المظلمة

على يد الطاغية الوثني (قسطنطين) ولدت أول دولة مسيحية شاءولية، وبقوة السيف بدأ فرض دين (شاءول بولس) الأرثوذكسي، ومعه بدأت عمليات إحراق الكنائس المخالفة للأرثوذكسية، ونفذت الإعدامات بحق المثقفين والفلاسفة، وسالت دماء الأبرياء، فقسطنطين هو أول حاكم لأول دولة تحكم باسم المسيح. هي أول دولة تنفذ أمر المسيح الذي يقول في أحد الأناجيل: (أعدائي هم الذين لا يرضون أن أكون ملكًا عليهم. هاتوهم واذبحوهم قدامي).

بل إن قسطنطين قام عام (٣٣٥م) ببناء عاصمة مسيحية أرثوذكسية على أنقاض مدينة (بيزنطة) الوثنية، وسماها (القسطنطينية) حيث هدم كل المعابد فيها، ولم يسمح إلا ببناء الكنائس الأرثوذكسية، التي تدين بدين أمه، وهو دين (شاءول بولس).

فـي هـذا التاريـخ بالتحديـد، وانطلاقًـا مـن القسـطنطينية. قامت هـذه الدولة بإدخـال أوروبـا في عصور الظلام، التي تسـمى القرون الوسـطى. عصور امتدت لألـف عام، فاضطر المسـيحيون الموحدون إلى الانزواء فـي الصوامع والانكفاء على الـذات، أو الهروب، أو التظاهر بالأرثوذكسـية.

ظـل هـذا الحكـم مرعبًـا للمسـيحيين الموحدين ولليهـود وللفلاسـفة، حتى بعـث الله النبـي محمدًا ﷺ، حيـث اعتنق الكثيـر من الموحدين الشـرقيين الإسـلام، وشـعر اليهـود بالأمـان. أمـا فـي أوروبـا، فأوروبـا ظلـت غارقـة فـي الظـلام، ولـم ترفـع رأسـها منـه إلا بعد عـام ألـف وأربع مئـة وثلاث وخمسـين للميـلاد (١٤٥٣م) علـى يـد حملـة القرآن.

هـذا العام بالضبط هـو الذي حدده المؤرخـون، والمثقفـون الأوروبيون لبدء عصـر النهضـة الأوروبـي، وهـو بالتحديـد تاريـخ تحـول القسـطنطينية، من أول عاصمة للمسـيحية، إلى عاصمة إسـلامية، حيـث تحولت إلى منار لـكل أوروبا، بعـد أن كانت قبـوا لمحاكم التفتيـش الأرثوذكسـية.. كانت نفقًا كنسـيًّا قبعت فيه أوروبـا أكثر من ألـف عام.

ولـذا أرخ المؤرخـون الأوربيون عصر النهضـة بدخول القرآن للقسـطنطينية، حيـث انطلقت ثورة على المسـيحية للمسـيحية نفسـها. ثـورة قادها قـس ألماني يدعـى (مارتن لوثر)، والـذي تأثر بتعاليم الإسـلام.

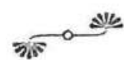
تأمـل (لوثـر) الإسـلام فلـم يجـد فيـه رجـال ديـن. لا بابـا ولا حاخامـات أو كرادلـة أو بطارقـة أو قساوسـة، أو حتـى رجـال ديـن يبيعون صكـوك غفران. أو كهنـة يغفـرون لمـن يشـاءون ويحرمـون مـن يشـاءون.

هنـا تمرد لوثـر على رجال الدين، فرفـض وجود بابا.. رفـض أن يكون للقس الحـق فـي أن يغفـر للنـاس، بـل أراد أن تكـون قـراءة الكتـاب المقـدس متاحـة للجميـع، كمـا يتـاح القرآن للجميـع، وليس حكـرًا على القساوسـة.

لكن هذا الإنجاز العظيم كان ناقصًا.. كان قاصرًا على نقد آلية عمل الكنيسة، لكنه لم يصل إلى أعماق الدين المسيحي. لم يحاول البحث عن الإنجيل الأصلي، أو الأقرب للصواب، فالله أنزل إنجيلًا واحدًا، وهم الآن لديهم أكثر من مائتي إنجيل، يناقض بعضها بعضًا، وكل إنجيل منسوب لمؤلف من البشر غير الآخر. فسبحان من حفظ القرآن بنفسه، وقال: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾.

إنه القرآن الذي أيقظ أوروبا، فتخلت عن سلطة رجال الدين والتخلف. الذين يأكلون أموال الشعوب باسم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عما يقولون، وحاشا المسيح الذي عاش مناضلًا أن يكون كما يصوره هؤلاء.

المسيح هو أخو محمد عَلَيْهِمَا ٱلسَّلَامُ، وربهما واحد، ودينهما واحد، وهو التوحيد، ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾، ورسالتهما بعد التوحيد هي العدل: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ﴾.



محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعد فترة من الرسل

على يد الإمبراطور البيزنطي (قسطنطين) وبقوة السيف، بدأ فرض دين (شاءول بولس) الأرثوذكسي، ومعه بدأت عمليات إحراق الكنائس المخالفة للأرثوذكسية، كما نفذت الإعدامات للمثقفين والفلاسفة، وسالت دماء الأبرياء على يد أول دولة للمسيحية، ولم يسمح إلا ببناء الكنائس الأرثوذكسية.

في هذا التاريخ بالتحديد، وانطلاقًا من القسطنطينية.. قامت هذه الدولة بإدخال أوروبا في عصور الظلام، التي تسمى القرون الوسطى.. عصور امتدت لألف عام، فاضطر الموحدون إلى الانزواء في الصوامع والانكفاء على الذات، أو الهروب، أو التظاهر بالأرثوذكسية.. ظل هذا الحكم مرعبًا

للمسيحيين الموحدين ولليهود وللفلاسفة، حتى بعث الله النبي محمدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، حيث اعتنق الكثير من الموحدين الإسلام، وشعر اليهود بالأمان، وذلك بعد فترة من الرسل، أي بعد فترة دامت أكثر من ست مئة عام من رفع آخر الأنبياء الإسرائيليين إلى السماء، وهو المسيح صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وقد كان ذلك بعد أن بشر أصحابه وشعبه الإسرائيلي بنبي يأتي من بعده، هو النبي محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال: ﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُم مُّصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَمُبَشِّرَۢا بِرَسُولٖ يَأۡتِي مِنۢ بَعۡدِي ٱسۡمُهُۥٓ أَحۡمَدُۖ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ قَالُواْ هَٰذَا سِحۡرٞ مُّبِينٞ﴾.

رفع المسيح وهو حزين لجحود قومه وتكذيبهم له.. بعده خلت الأرض من الرسل، وازداد تشظي الديانات السماوية، حتى اختلط بعضها بالوثنية.. نسي أهل الأرض خالقهم العظيم.. خالق السموات والأرضين، وتعلقوا بأخشاب وأحجار وأشجار وفئران وحيات وأبقار، يعبدونها من دون الله،

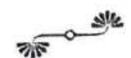
كانت الجزيرة العربية قد تحولت إلى الوثنية بالكامل.. حتى مكة معقل التوحيد.. أصبحت أسيرة للوثنية، أما كعبتها التي بناها إبراهيم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فكانت تئن من الشرك، حيث قام الوثنيون بتحويلها إلى طاولة، توضع على ظهرها أصنامهم، التي بلغت ثلاث مئة وستين صنمًا.

في تلك الفترة كان في مكة فتاة حزينة على فراق حبيبها، وزوجها الذي توفي وتركها وهي في أشهر حملها الأول، مما جعل حزنها يزداد على جنينها الذي سيولد يتيما، ولن يرى في هذه الدنيا أباه، لكن وفي إحدى لياليها تلك رأت في نومها شيئًا أبهجها.

رأت نورًا عظيمًا ينبعث منها، وكأنه شمس، أشرقت على الجزيرة العربية، حتى أضاءت قصور الشام وقلاعها[1].. استبشرت الفتاة (آمنة بنت وهب)

(١) وهو حديث قوي، له عدة طرق، رواه أحمد (٢٢٢٦١)، وغيره بألفاظ منها: «رأت أمي أنه يخرج منها نور، أضاءت منه قصور الشام».

بتلك الرؤيا، واطمأن قلبها على حملها، ولما أصابتها آلام المخاض القاتلة.. أذهلها الألم عن الدنيا، ولم يخفف تلك الآلام إلا رؤية طفلها الجميل محمد بن عبدالله بن عبد المطلب.. يوضع بين يديها الحانيتين.



من المولد إلى التكذيب

انزاحت آلام (آمنة) بجمال محمد، كما انزاحت آلام مريم عند نخلتها، وكان من عادة بعض بيوت مكة استرضاع أطفالهم في البادية، فأرسلوه مع مرضعة طيبة اسمها حليمة السعدية، حيث بادية هوازن الجميلة، ثم عاد إلى آمنة ليؤنس وحشتها، لكن فرحته بها لم تدم.

ماتت آمنة مخلفة جرحًا في قلبه لم يندمل، فتولى رعايته جده عبد المطلب، ليتجاوز سن المراهقة دون أن يعرف بطيش أو سفه أو وثنية.. اشتغل برعي الغنم في شبابه مقابل دراهم معدودة، ومارس في شبابه السفر للتجارة.

لكن سفره الأبعد، والأطول، والأجمل، فكان عبر معارج التأمل، والسياحة في الكون، والتفكر في خلق الله سبحانه. كان محمد موحدًا ينفر من الأصنام، ويأبى عبادتها، ولما تجاوز العشرين بسنوات، أعجبت به أعقل امرأة في قومه.

امرأة اسمها خديجة بنت خويلد، وكانت أكبر منه سنًّا، فعرضت عليه الزواج أو عرض عليها، وتحققت أمنيتها فرزق منها بأربع زهرات: رقية وزينب وأم كلثوم وفاطمة.

اقترب محمد من الأربعين، فأصبح أكثر تأملًا، وحبًّا وتوقًا للخلوات بربه.. يبث مناجاته لله وحده، بعيدًا عن ثقافة الأصنام، وإذ به يرى أشياء، ويسمع

أصواتًا لا يجد لها تفسيرًا، مما حدا به إلى البحث عن مكان يمارس فيه مناجاة خالقه، بعيدًا عن لوثات الوثنية.

وجد غارًا في جبل اسمه حراء، فجعل منه مكانًا للتعبد، يقضي فيه أيامًا وليالٍ، وفي ليلة من ليالي العشر الأواخر من شهر رمضان، سنة ثلاث وعشرين قبل الهجرة، وبينما كان في الغار، إذ به يرى طيفًا يدخل عليه، ويعانقه، ويأمره قائلًا: ﴿ٱقْرَأْ﴾.

كررها هذا الزائر الغامض ثلاث مرات، ومحمد ساكت لا يدري ما يقرأ، ثم تلا الشخص الغريب عليه كلام ربه قائلًا: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ① خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ② ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ③ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ④ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾، ثم أفصح له عن هويته وعرفه بنفسه وأخبره أنه الملاك جبريل، ثم بشره بالنبوة!.

انحدر محمد ﷺ خائفًا من الجبل، يتصبب عرقًا وحيرة، ولما دخل على حبيبته، طلب أن تغطيه، وأخبرها الخبر، لكن الزوجة العاقلة استبشرت خيرًا، وقدمت له أكبر دفعة معنوية. حين بشرته بأن الله لن يخزيه، لأنه رجل فذ في أخلاقه. صادق في حديثه. يكرم الضيف، ويغيث الملهوف، ويعين الناس على مصائبهم. قائلة: «كلا والله ما يخزيك الله أبدًا، إنك لتصل الرحم، وتحمل الكل، وتكسب المعدوم، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق»[1].

غفا محمد ﷺ على تلك الوسادة الفاخرة من الخلال، والصفات الحميدة، لكن خديجة لم تكتف برفع المعنويات، فقد نهضت في الصباح، وأيقظت زوجها وطلبت منه أن يصحبها، فوافق فتوجهت به إلى شيخ كبير من أقاربها، وكان من العباد النصارى الموحدين، واسمه ورقة بن نوفل، فأخبره محمد ﷺ بما جرى له، فبشره ورقة أن الذي هبط عليه.. هو الملاك الذي نزل على النبي موسى ﷺ.

(١) صحيح البخاري (٣).

بعـد أيـام. ظهر المـلاك جبريل ثانيـة لمحمد، وبشـره بالنبوة مجـددًا، فانطلق ﷺ إلـى بيتـه، وأخبـر زوجتـه الطيبة خديجة فأسـلمت رضي الله عنها، وأسـلمت بعدهـا بناتـه، وابنه بالتبني زيد بن حارثـة، وصديقه أبو بكر الذي سـمي بالصديق لتصديقـه مباشـرة، فهـو لم يعـرف عنـه كذبًا، وبعد أسـابيع نـزل المـلاك جبريل فأمـره بإعـلان نبوته والبدء بقبيلتـه، وتلا عليه قـول الله تعالى له: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾.

نهـض النبـي محمـد ﷺ مباشـرة وتوجـه نحو المسـجد الحـرام، لكنه لم يذهـب للكعبـة، بـل توجه إلى جبـل صغير على ضفاف المسـجد اسـمه جبل الصفـا، ثـم صعـده وأشـرق عليـه كالشـمس، وبـدأ يهتـف بفـروع، وأسـر قبيلته قريـش ويقول:

«**يا بني فهر.. يا بني عدي**». إلخ. إلخ.

أنصـت النـاس للصـوت المرتفـع، فتداعـوا نحـوه وأقبلـوا، فـإذا هـو صوت الرجـل الصادق الذي كانـوا ينادونه بلقـب انتزعه من احترامهـم وقلوبهم.. لقب الأميـن، ومـا دام الأمين هو مـن يهتف، فلا بـد أن الأمر خطير، لـذا أقبلوا وكلهم شـوق لخبره، وتحلقـوا حول الجبل، لدرجة أن (الرجل إذا لم يسـتطع أن يخرج، أرسـل رسـولًا لينظر ما هـو) وعندما اصطك الجبـل بحلقة من العيـون المفتوحة والقلـوب المرتجفـة والآذان المنصتـة. لم يخبرهم محمـد الأمين بالأمر؟

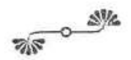
بل طرح عليهم أولًا سـؤالًا، لينتزع من إجابته اعترافًا موثقًا بمئات الشـهادات أنـه أصدقهـم علـى الإطلاق، فهتـف بهم وقـال: «**لو أخبرتكـم أن خيـلًا بالوادي تريـد أن تغير عليكـم، أكنتم مصدقي؟**».

عندهـا هتفـوا جميعًا: (نعـم)، ولم يكتفوا بنعـم.. قدموا لابنهم محمد سـبب ثقتهـم به. قدمـوا له تزكيـة بالإجماع قائليـن: «ما جربنا عليـك إلا صدقًا».

هنا أعلن النبي محمد ﷺ خطورة رسالته والأمانة التي يحملها، فقال: «**فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد**». وإذ بعمه الشقي أبي لهب، والذي زكى قبل ثوان ابن أخيه محمدًا أعظم تزكية. إذ به يصرخ كالأحمق، ويقول: «تبا لك سائر اليوم، ألهذا جمعتنا؟»[1].

انتفض بعده عشاق الظلام وسدنة الأصنام فرفضوا التوحيد، وأولهم عمه هذا. صاحب الاسم الوثني: (عبد العزى بن عبد المطلب) الملقب بأبي لهب، وتابعه حاقد من أقرانه، يكنى بأبي جهل، لكنه ﷺ لم يكف عن الدعوة.. أمضى معهم ثلاث سنوات مريرة من الدعوة والمعاناة، لم يسلم خلالها إلا عشرات.

حينها أدرك ﷺ أن بيئة مكة الوثنية طاردة، فتوجه في دعوته للخارج.



أول شخص يشيد دولة بعقد

أدرك النبي ﷺ بعد ثلاث سنوات مريرة من الدعوة للتوحيد والعدل: أن بيئة مكة الوثنية طاردة، فتوجه بدعوته للخارج عن طريقين.

إما التوجه بنفسه للمدن القريبة من مكة كالطائف.

أو انتظار القادمين من خارج مكة، لأداء الحج أو العمرة.

كان عليه السلام يبصر الجميع بالتوحيد.. ينشر الوعي بينهم، لكن عمه (أبا لهب) لم يتركه، ولم يكتف بتكذيبه.. ظل يلاحقه كظله.. يشوش عليه.. يكذبه، ويؤذيه بألفاظ بذيئة، وهو لا يلتفت إلى ذلك الظلامي الحاقد.

(١) صحيح البخاري (٤٧٧٠).

يئس أبو لهب وأمثاله من الطغاة من إيقاف دعوته، فعرضوا عليه المال والمنصب والنساء، كي يتراجع، لكنهم كمن يطلب من الشمس أن تعود من حيث أتت.. ظل صامدًا، حتى تفاقم حقدهم؛ لدرجة أن حاول طاغوت اسمه عقبة بن أبي معيط أن يقتله خنقًا بثوبه، وهو ساجد لربه عند الكعبة، فأنقذه أبو بكر، وهو يقول: ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ﴾.

ومرة أراد الطاغوت الآخر (أبو جهل) إهانة النبي ﷺ، فطلب إحضار مشيمة ناقة، ليلقوها على ظهره وهو ساجد داخل المسجد الحرام، فعلمت ابنته فاطمة بذلك، فأقبلت حزينة حتى أزاحتها عن ظهره[1].

هكذا أفقدهم حقدهم احترام ميزتهم بين العرب وهو المسجد الحرام، وبعد عشر سنوات من المعاناة والتكذيب كثر أتباع النبي ﷺ، لكنه لم يشكل منهم ذئابًا منفردة، ولا كتائب للانتقام، وتصفية الخصوم، ولم يحاول القفز على السلطة.. ظل يستخدم سلاحه الوحيد.. الكلمة.. القرآن.. الإقناع.



بعد عشر سنوات ظهر النور في نهاية النفق الوثني.. قدم رجالات من مدينة يثرب للحج بعد عام أسود كبدتهم الوثنية فيه خسائر فادحة.. جراء الشحناء بينهم والثارات، وكانوا قد رفضوا التوحيد على مدى العشر سنوات الماضية، لكن جراح الجاهلية جعلتهم ينصتون للنبي ﷺ هذه المرة بقلوبهم، فوجدوا رسالة الإسلام رسالة تصالحية ستلتئم بها جراحهم النازفة.. رسالة تدعو للتوحيد والعدل والسلم الاجتماعي، مما جعلهم يبايعونه، ويعقدون معه اتفاقًا ملزمًا له ولهم.

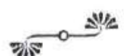
اتفاق بنى محمد ﷺ على أسسه دولة الإسلام، ليكون أول شخص في التاريخ يشيد دولة بالكلمة.. بالعقد بالمواثيق، دون أن يحمل حتى سكينًا.

---

(١) قصة أبي بكر رواها البخاري (٤٨١٥)، وقصة فاطمة رواها مسلم (١٨٩٤) والبيهقي (٢-٢٨).

بايعـه أهـل يثـرب علـى أن يكـون زعيمهـم، ولكـن بشـرط أن يهاجـر إليهم، واشـترط عليهـم أن يدافعوا عنه وعن دينه ورسـالته، التي لم تكـن للتوحيد فقط، بـل رسـالة للتوحيد والعـدل والسـلام الاجتماعي.

وبعد عامين من ذلك اللقاء.. جرى أعظم حدث بعد البعثة.



الإسلام يجعل يثرب الثارات مدينة للحب

عـاد زعمـاء يثـرب إلى يثـرب، بعـد اتفاقهـم مـع النبـي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وخاطبوا قومهـم بالاتفـاق والمعاهـدة معـه، فاقتنـع أكثرية أهل يثـرب من قبيلتـي الأوس والخـزرج ووافقـوا علـى اسـتقباله ونصرته، فقـام النبي القائـد محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بإعـداد الخطـة والترتيبـات لمغـادرة مكـة، برفقـة صاحبـه أبي بكـر الصديـق، وبشـكل سـري، لأن طواغيـت قومه الوثنيين علمـوا بأمر الهجرة، فقـرروا اغتياله قبـل أن يهاجـر، لكـن خطة الهجـرة العظيمة كانـت خطة بالغة الإحكام، طاشـت بسـببها ضربـات قريش فـي الهواء.

فـي البدايـة انتقى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جبلًا يقـال له جبل ثـور للاختباء.. انتقـاه بطريقة ذكيـة، فطريـق يثـرب يقـع فـي الشـمال، والجبـل فـي الجنـوب، ولمـا انطلـق لم يسـلك طريـق القوافل، بل سـلك طريق السـواحل، وهكذا حتـى وصل، ولما وصل اسـتقبله المسـلمون بالسـلاح تعبيرًا عن الفداء، لكنه ظل متمسـكًا بسـلاح الكلمة، ورسـالة التسـامح.

بداية غير اسـم يثرب الكئيب إلى اسـم صـار علمًا على كل المدائن.. سـماها (المدينـة)، لم يبـدأ ببنـاء قصر له، بل بـدأ ببناء المسـجد.. منبع التوحيـد، ومنارة الوعـي.. يجتمـع فيـه الرجال والنسـاء خمس مرات، بعـد أن يتطهـروا، ويطهروا

ثيابهم.. يتلقون فيه دروسًا عقدية وأخلاقية وتربوية واجتماعية واقتصادية، بل كان المسجد بيت من لا بيت له، ومأوى من لا مأوى له من المهاجرين الفقراء.

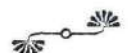
كان النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بلا زوجة بعد رحيل خديجة لأكثر من سنتين، لذا بنى له غرفة متواضعة ملاصقة للمسجد.

قام النبي عَلَيْهِ السَّلَامُ بعد ذلك بخطوة غاية في الرحمة والعظمة، وهي المؤاخاة بين أهل المدينة والمهاجرين.. إخوة فاقت إخوة النسب، لدرجة أن المهاجر يرث الأنصاري، والعكس، فهل كان ذلك يعني إهمال بقية الشعب من الوثنيين واليهود، وإقصاءهم؟

إطلاقًا، فتلك إخوة عقيدة، أما بقية الشعب فكانوا محط اهتمامه، حيث قدم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ثقافة تسامحية، تجاه مكونات شعبه المتنوعة، فهناك أقليات وثنية، وقبائل يهودية عديدة، متحصنة في حصون منيعة.

وإذ بالنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يشكل منهم نسيجًا وطنيًّا متناغمًا ومتآلفًا، ليقدم ولأول مرة في التاريخ مفهوم (المواطنة)، حتى قال أحد الصحابة: (كان رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قدم المدينة وأهلها أخلاط: منهم المسلمون الذين تجمعهم دعوة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ومنهم المشركون الذين يعبدون الأوثان، ومنهم اليهود، وهم أهل الحلقة والحصون،.. فأراد رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حين قدم المدينة استصلاحهم كلهم)، لكن ذلك أجج غضب طواغيت الوثنية الإقصائيين في مكة.





حكمة قيادية لا مثيل في احتواء الآخر

قال أحد الصحابة: (كان رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قدم المدينة وأهلها أخلاطًا: منهم المسلمون الذين تجمعهم دعوة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ومنهم المشركون

الذين يعبدون الأوثان، ومنهم اليهود، وهم أهل الحلقة والحصون،.. فأراد رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حين قدم المدينة استصلاحهم كلهم، وكان الرجل يكون مسلمًا وأبوه مشرك، والرجل يكون مسلمًا وأخوه مشرك)[1].

أراد القائد الحكيم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ استصلاحهم لا تفريقهم.. استصلاحهم لا زرع العداوة بينهم، بل كان النبي القائد محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. يتعامل مع اليهود في شأنه الشخصي بطريقة بالغة الود، لدرجة أنه كان يسرح شعره على طريقتهم، ومع ذلك قابله هؤلاء الوثنيون واليهود بالأذى والسب والتطاول، حتى قال أحد الصحابة: (كان المشركون واليهود من أهل المدينة حين قدم رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يؤذون رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأصحابه أشد الأذى، فأمر الله تعالى رسوله والمسلمين بالصبر على ذلك، والعفو عنهم، ففيهم أنزل الله جل ثناؤه: ﴿وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَذًى كَثِيرًا ۚ وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾.

بل بلغ القرآن درجة غير مسبوقة في بث روح التسامح بين شعب دولة القرآن، وذلك حين أمر نبيه بالصفح، فقال: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَٱعْفُوا۟ وَٱصْفَحُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾، ثقافة رائعة، أشرقت على يثرب.. أنستها دماءها، التي فجرتها الثارات الوثنية الجاهلية لقرون، من أجل كلمة أو بعير أو حصان.

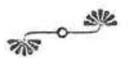
---

(١) سنده صحيح. أرسله البيهقي (٣/ ١٩٧)، ووصله أبو داود (رقم٣٠٠٠)، ومن طريقه رواه البيهقي: حدثنا محمد بن يحيى بن فارس أن الحكم بن نافع حدثهم، قال: أخبرنا شعيب عن الزهري عن عبدالرحمن بن عبدالله بن كعب بن مالك، عن أبيه. والحديث صححه الإمام الألباني في صحيح أبي داود (٣٠٠٠)، فالزهري وعبدالرحمن تابعيان ثقتان وشعيب ثقة ثبت من أثبت الناس في الزهري. التهذيب (٤/ ٣٥١): وتلميذه ثقة ثبت من رجال الشيخين. التقريب (١٧٦)، وتلميذه هو الحافظ الجليل والإمام الثقة المشهور (الذهلي).

إنجـازات راقية ومتمدنة، أصابت زعماء قريش بالجنون.. خاصة حين تجاهل ﷺ مراراتهم وقمعهم له على مدى ثلاثة عشـر عامًا، فمنذ أصبح قائد دولة لم يفكر يومًا بالانتقام ممن ظلمه، بل قابل صلف قريش بالتسـامح.

حمـى قوافلهـا، وسـمح لمواطنيـه باسـتقبال طواغيتهـا، الذيـن اضطهـدوه، واضطهـدوا أصحابـه: كأميـة بـن خلـف، وأبي جهـل، الذي دخـل المدينـة فلم يمـس أحـد منـه شـعرة، بل لبـى ﷺ طلبـه، وحصـل علـى مـراده، ورجع لمكـة آمنًا.

جـن جنـون قريـش، فحاولت إفسـاد هـذا الإنجـاز الحضـاري فـي المدينة.. قـرر طواغيـت مكة خلق جيوب خيانيـة، وخلايا إرهابية وثنية، داخل جسـد دولة النبي ﷺ.. أرسـلوا رسـالة سـرية لزعيـم الأقليـة الوثنية، ويدعـى (عبدالله ابـن سـلول) يهددونـه فيهـا أنـه إن لم يطرد محمـدًا وصحبـه فسـتغزوهم قريش بجيـش لا قـدرة لهم علـى صده، فجهز ابن سـلول كتيبته، وتسـلحوا واسـتعدوا، لكن تلـك الرسـالة والتحـركات وصلت لقائـد الدولة ﷺ.



إبداع النبي ﷺ لمفهوم (المواطنة)

حيـن تكـون القيادة عادلة وحكيمة، يصبح الشـعب عيونًا للوطـن.. علم النبي ﷺ برسـالة طواغيـت قريـش الوثنييـن التحريضيـة، واسـتجابة الشـريحة الوثنيـة مـن شـعبه لها، وعزمهـم على الخيانـة والتمـرد، فلم يستبشـر بما حدث، ويسـتغله لتصفية ابن سـلول وبقايـا الوثنيين.

كان أرقـى مـن ذلك بكثيـر، لدرجـة أن ابن زعيـم الوثنيين عبد الله ابن سـلول جـاء غاضبًـا لله ورسـوله ﷺ وعارضًـا قتل أبيـه المشـرك، والتخلص منه، نظرًا لخياناته، وقائلًا: (يا رسـول الله، والذي أكرمك لئن شـئت لأتيتك برأسه؟).

وإذ بالنبي محمد ﷺ يكشف عظمة القيادة ورحمة النبوة.. لم يفرح بتلك الكلمات، للتخلص من رأس الخيانة، بل حول حياة ذلك المنافق إلى ربيع داخل دولة القرآن.. حين هدأ ابنه المؤمن، وقال له: «**لا، ولكن بر أباك، وأحسن صحبته**»[١]، ثم توجه ﷺ إلى ابن سلول وكتيبته الخيانية، فخاطبهم من منطلق المواطنة الراقية، وقال لهم: (لقد بلغ وعيد قريش منكم المبالغ، ما كانت لتكيدكم بأكثر مما تريدون أن تكيدوا به أنفسكم، فأنتم هؤلاء تريدون أن تقتلوا أبناءكم وإخوانكم. فلما سمعوا ذلك من النبي ﷺ تفرقوا)[٢].

فشلت محاولة طواغيت قريش الوثنيين، فانتقلوا للخطة البديلة وهي تحريض القبائل اليهودية، وأرسلوا لهم رسائل تهديد، قالوا فيها: (إنكم أهل الحلقة والحصون، وإنكم لتقاتلن صاحبنا، أو لنفعلن كذا وكذا، ولا يحول بيننا وبين خدم نسائكم شيء)[٣]، فعلم ﷺ بوصول تلك الرسالة، وترحيب اليهود بها.

هنا اختلف موقف القائد ﷺ، فاليهود ليسوا أهل البلد، بل هم ضيوف لاجئون، ومع ذلك لم يستغل الفرصة لطردهم، أو اضطهادهم كما فعلت بهم الأمم التي لجأوا إليها على مدار التاريخ، بل تعامل ﷺ معهم كما تتعامل الدول الراقية مع اللاجئين، بل وأرقى.

توجه إليهم قبيلة قبيلة، ولم يتركهم حتى وقع معهم وثيقة مواطنة تكفل

---

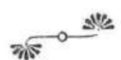
(١) سنده قوي رواه البزار (٧٩٧٨): حدثنا محمد بن بشار وأبو موسى حدثنا عمرو بن خليفة حدثنا محمد بن عمرو عن أبي سلمة عن أبي هريرة، وابن عمرو بن علقمة حسن الحديث من رجال الشيخين وابن خليفة قال عنه البزار ثقة، والبقية ثقات.

(٢) صحح إسناده الإمام الألباني في كتابه صحيح سنن أبي داود (٢/ ٥٨٢ رقم ٣٠٠٤)، فقد قال: صحيح الإسناد. ولمزيد من التفصيل راجع كتابي الصحيح من أحاديث السيرة.

(٣) هو جزء من الحديث السابق.

كافـة حقوقهـم وتحافـظ في الوقت نفســه على سـيادة الدولة التي يقيمـون فيها.. وثيقة ملزمـة للطرفين.

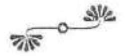
هكذا أفشـل النبي القائـد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كل خطط الوثنيين لشـق اللحمة الوطنية، فلـم يبق أمام طواغيت قريش سـوى محاولـة كالانتحار.



أكبر جريمة لقريش بعد الشرك

جريمـة لم يجـرؤ عليها أحد قبلهـم، وذلك حين أصـدر أبو جهل قـرارًا بمنع أهـل المدينـة وأي مسـلم مـن حقهـم، وحق كل إنسـان علـى الأرض منذ إنشـاء مكـة.. هـذا الحق هـو أداء الحـج والعمرة.. هنـا ارتكبت قريش أكبـر جريمة بعد الشـرك، وهـي الصـد عن المسـجد الحـرام، فأصبـح السـكوت عن ممارسـات الوثنييـن مسـتحيلًا عنـد أهـل المدينـة، لـذا أصدر أحـد الـوزراء النافذيـن، وهو سـعد بن معـاذ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قـرارًا مماثلًا.

أصـدره وهو في مكـة، حيث منعه الطاغوت الوثني أبو جهـل من أداء العمرة، فأصـدر قـرارًا بمنـع قوافل قريـش من المـرور نحو الشـام، فأقـره صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من بـاب المعاملة بالمثل.. هنا شـعر الوثنيون بالفشـل، فقرروا شـن الحرب.



نبي يصنع دولة قوانين ووثنيون يؤججون الحروب

فشـلت كل محـاولات طواغيـت قريـش الوثنييـن فـي إشـعال حـرب أهلية، وفتنـة طائفيـة داخـل دولة النبـي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لذا قرروا غـزو المدينـة، وقد حدث ذلك في أشـهر وأهم معركة، وهي (بدر)، ففشـلوا فشـلًا ذريعًا، وخسـرت قريش أهـم طواغيتها جملـة واحدة.

عـاد بعدهـا النبي القائد محمد ﷺ لاسـتئناف بناء دولته وشـعبه، حيث نزلـت عليـه أحـكام الـزكاة، ليتكافـل المجتمـع، ويحنو الغنـي على الفقيـر، ولو كان الفقيـر يهوديًّا أو مسـيحيًّا أو مشـركًا، ثم شـرع الصيام تلك العبادة التي تشـع روحانيـة وصحـة وتكاتفًـا بينهم، ثـم نزلت أحـكام القضاء، وحـق الترافع لحفظ الحقـوق فـي نظـام قضائـي راق، طبقـه النبـي ﷺ علـى نفسـه، وهـو قائد الدولـة، وكان خصمـه في ذلـك أعرابـي وثني غريـب، لا ناصر له.

فـذات يـوم دخل هـذا الأعرابي سـوق عاصمة دولـة القرآن (المدينـة)، ومعه فـرس يريـد بيعهـا.. كان قائـد الدولـة محمـد ﷺ حينهـا فـي السـوق بين شـعبه، فـرأى الفـرس فأعجبتـه، فاقترب مـن صاحبها وسـامها.

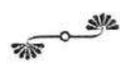
وافـق الوثنـي وتمـت الصفقـة، فطلـب قائـد الدولـة ﷺ مـن الأعرابي أن يلحـق بـه ليعطيـه الثمـن، لكـن نظـرات رجـال جـاءوا متأخريـن، حاصـرت الوثنـي وفرسـه، فصـاروا يسـومون الفرس، فطمـع الوثنـي، وأبطأ الخُطـى، فلما زادوا السـوم ازداد طمعـه، فصـاح بالنبي ﷺ: (إن كنـت مبتاعًا هذا الفرس فابتعـه، وإلا بعته)؟

اسـتغرب قائـد الدولة وقاضيها ﷺ تلـك الكلمات، فالصـدق والأمانة أبـرز صفاتـه، حتـى قبـل أن يكـون نبيًّا، لـذا عاد نحـو ذلـك الوثني، مستفسـرًا.. لا مهـددًا ومتوعـدًا، فقال: «**أو ليس قد ابتعته منك؟**» فأنكـر الوثني، وحلف كذبًا، وقـال: (لا والله، ما بعتـك) فقـال النبـي ﷺ: «**بلى، قـد ابتعته منك**».

هنـا تداعـى المواطنون حول قائدهـم، غاضبين من وقاحة هـذا الغريب، لكن الغريـب لم يخـف، ولـم يأبـه بمشـاعرهم، لأنـه أدرك لأول مـرة أنـه لا يتواجـد داخـل قبيلة أو عشـيرة قد تنحاز لشـيوخها، بـل داخل دولة يحكمها نظام يسـري علـى الجميـع.. نظـام يحتكم لـه حتى قائدهـا، لذا طلـب الوثني من قائـد الدولة

محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إثباتًا قائلًا: (هلم شهيدًا يشهد أني بايعتك؟)[1] عندها أكد النبي القائد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لشعبه مبدأ استقلال القضاء في الإسلام.

فامتثل للنظام وهو نبي الله، وامتثل وهو قائد الدولة، وهو القاضي أيضًا، فصار يبحث عن شاهد عيان، أما المواطنون فتفاقم غضبهم من هذا البائع الذي بلغت به الوقاحة تكذيب نبيهم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وبخسه حقه داخل دولته، لكنهم لم يمسوه بسوء، لأن لدولتهم قانونًا يكفل حماية حقوق المواطن وغير المواطن.



مواصلة التحضر الإسلامي وتواصل الحقد الوثني

نزلت أيضًا على النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أحكام جنائية، لضبط الأمن، والحفاظ على الأرواح والممتلكات، جعلت الأمن يسود في دولة القرآن.. أمن أثار جنون قريش مرة أخرى، فكررت الاعتداء في غزوة أحد، ففشلت، أيضًا رغم تحقيقها لنصر معنوي، جراء استشهاد بعض المسلمين العظماء، أمثال حمزة عم النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

كانت بدر وأحد بالنسبة للمسلمين دفاعيتين.. لم يسعوا لهما، ولم يبدأوهما، أما الغزوة الثالثة (الخندق)، فكانت أشنع غزوة وثنية على دولة القرآن، لكن المحير أن الذي خطط لهذه الغزوة بالغة الخطورة لم يكن طواغيت قريش، فقد تعبوا وملوا من الفشل.

---

(١) أخرجه أبو داود (٣/ ٣٤٠ رقم ٣٦٠٩)، وصححه الألباني في إرواء الغليل (٥/ ١٢٧)، سنده صحيح رواه أحمد (رقم٢١٨٨٣)، وغيره من طرق عن شعيب بن أبي حمزة عن الزهري، قال: حدثني عمارة بن خزيمة الأنصاري: أن عمه، حدثه وهو من أصحاب النبي. وشعيب من أثبت تلاميذ الإمام الثقة الزهري. وشيخ الزهري ثقة، وثقه ابن سعد والزهري.

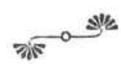
كانـت هـذه الغـزوة المرعبـة للأسـف مـن تخطيـط مواطنيـن ينتمـون لأقلية مـن دولـة النبـي ﷺ هم قبيلـة بنـي النضيـر اليهودية، فهـذه القبيلـة قررت ذات يـوم اغتيـال النبـي ﷺ، وذلـك عـن طريـق استدراجه لمناظـرة مع حاخاماتهـا، ثـم قتله في أثنـاء الحوار، لكـن مواطنـة يهودية أمينة، سـربت الخبر لقائدهـا ﷺ وهـو فـي طريقـه للمناظـرة، فرجـع هـو والوفـد المرافـق لـه للمدينـة مباشـرة، ثـم حشـد كتيبـة، وتوجـه بها نحـو الخونـة لا ليبيدهـم، ولكن ليلزمهـم بتوقيـع اتفاقيـة ووثيقـة مواطنـة أخـرى، لا خيانـة فيهـا ولا تآمر.

اتفاقيـة ملزمـة للجميـع، وتضمـن أمـن الجميـع، لكـن بنـي النضيـر رفضـوا المواطنـة، وفضلـوا الجـلاء إلـى مدينـة خيبـر، فوافـق النبـي ﷺ، ولـم يعاملهـم حسـب شـريعتهم، التـي تحكـم علـى المـدن الخائنـة بقتـل شـيوخها وشـبابها ونسـائها وأطفالهـا، كمـا تأمـر بتنجيـس بيوتهـا.

سـمح النبي القائد ﷺ لهم بالمغادرة بسـلام إلى خيبر، حتى إن بعضهم صار يقتلع أبواب بيته ويأخذها، خشـية أن يسـتفيد المسـلمون منها، ولما وصلوا خيبـر بـدأ زعيمهـم حيي بـن أخطب يخطـط لحشـد أكبر جيـش عرفتـه الجزيرة العربية، لسـحق دولة القرآن.. تم تشـكيله مـن معظم القبائل العربيـة الوثنية، وقد أقنعهـم هـذا الحاخـام بشـن هجوم خاطـف علـى المدينـة، والقضاء علـى النبي والإسـلام، ودولته في سـاعات قليلة.

كانـت المعركة سـهلة على الخريطة، وكانـت أعظم خطر مر على المسـلمين ودولتهـم، حيـث ضاقـت بهـم الأرض، وهـم يـرون الآلاف تصطـك حولهـم، لا سـيما والتوقيـت كان فـي الشـتاء، حيـث يشـتد البـرد، ويقـل الطعـام، لكـن دهـاء النبـي القائد ﷺ العسـكري أفشـل غـزوة الأحزاب تلـك، فقد كانت المدينـة محصنـة بالجبال مـن ثلاث جهات، لـذا أمر ﷺ بحفـر خندق في الجهـة المكشـوفة، التـي لا جبال فيهـا، فلما وصلـت الجيوش الوثنيـة، صعقت

بالخنـدق، وتلاشـت أحلامها، لكنهم رابطوا لأسـابيع، انهـارت بعدها عزائمهم، جـراء الانتظـار والملـل والبـرد، وعدم القـدرة على الاقتحـام، ثم أكملـت الريح المعجـزة المهمـة، فاقتلعـت خيامهـم، ونشـرت طعامهـم.. بعدهـا أصبـح وثنيو قريش فـي حالـة ضعف لا أمـل معه.



دولة القرآن موجهة للإنسان والسلم والبناء

انسـحبت جيـوش الأحـزاب الوثنية تجرجر أذيال الفشـل، بينمـا واصل النبي ﷺ نشـر الوعـي والثقافة، فـأدرك الكثير مـن الوثنيين أن محمـدًا نبي، بعد أن رأوا المعجزات وسـلمية التعامل.

كثـر المتأثرون بحسـن خلقه ﷺ وإدارته وتعامله مـع الضعفاء والفقراء والعبيـد مـن شـعبه ومن غيـر شـعبه، لدرجة أنـه كان يومًا بيـن رجال دولتـه، وإذ بطيـف امـرأة من شـعبه فـي عقلها شـيء.. تقبـل من بعيـد نحوهم، فيخفـق قلبها لـه وحـده، وتناديـه من بينهـم، فيقبـل رأس الدولة وسـيد حقـوق المـرأة.. تاركًا عظمـاء الرجـال نحـو مواطنة مسـكينة، ولما اقترب منهـا، قالت: (يا رسـول الله، إن لي إليـك حاجة؟).

فبشـرها أن كل الشـوارع تـؤدي لقلبـه، وأن كل الـدروب في خدمتهـا، قائلًا: «**يا أم فـلان، انظري أي السـكك شـئت حتى أقضي لك حاجتـك**»[1]، فأخذته كما شـاءت، ثم نحتـت في مسـامعه حاجتها، ولـم تنصرف حتى حصلـت عليها.

النبـي محمـد ﷺ الـذي يصفـه أعـداؤه بقاطـع الطريـق.. يشـاهد يومًا مجموعـة مـن الوثنييـن الجيـاع الحفـاة، ليسـوا من شـعبه.. كانوا شـبه عـراة من

---

(١) صحيح مسلم (٢٣٢٦).

شـدة الفقـر.. يدخلـون عاصمة دولتـه، فلم يشـتمهم، أو يهنهم، أو يشـمت بهم، بـل تغير وجهـه حزنًا ورحمة وشـفقة بهم، لأنهم بشـر، ثم فز من مكانـه، وانطلق نحـو بيتـه.. يبحـث عما يسـد جوعهم، ويكسـوهم، ويخفـف ما بهـم، فلم يجد، فانطلـق صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نحـو مركـز التثقيـف والتنوير والشـعور بالآخر.

انطلـق نحـو المسـجد، فرقى منبره وخاطب شـعبه، وقـال ملغيًـا كل الفوارق الدنيويـة بيـن الشـعوب بآيـة مـن القـرآن، تفيـض رقيًـا، وقـرأ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾، ثـم حثهم علـى الصدقة فقال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«تصـدق رجـل من دينـاره، مـن درهمه، من ثوبـه، من صـاع بره، من صـاع تمره، حتى قـال: ولو بشـق تمرة»**.

وإذ بالمشـهد داخـل المسـجد يتـلألأ رحمة، حتى قـال أحد الحضـور: فجاء رجـل مـن الأنصـار بصـرة، كادت كفـه تعجـز عنهـا، بـل قد عجـزت، ثـم تتابع النـاس، حتـى رأيت كوميـن من طعام وثيـاب. ثم يصف مشـاعر النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وتأثره وسـروره بهذا المشـهد الإنسـاني فيقول: رأيت وجه رسـول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يتهلل كأنه مذهبة، فقال رسـول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«من سـن في الإسـلام سنة حسنة، فلـه أجرهـا، وأجر من عمل بها بعـده، من غير أن ينقص من أجورهم شـيء، ومن سـن في الإسـلام سـنة سـيئة، كان عليه وزرهـا ووزر من عمـل بها مـن بعده، من غيـر أن ينقص من أوزارهم شـيء»**[1].

تهلـل وجـه النبي محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لأنه كسـا وأشـبع وثنيًّا فقيـرًا مُعدمًا غريبًا، ليـس مـن مواطنيـه، وليس علـى دينه.. أشـرق وجهه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لأنه كسـا إنسـانًا فقيـرًا، وطيـب خاطـره، ولـم يسـأله قبـل أن يطعمه عن دينـه، ولا عـن ولائه، بل قـرأ فيه إنسـانًا كرمه الله، وأمـر برحمته.

---

(١) صحيح مسلم (١٠١٧)، والنسائي الصحيح (٢- ٥٣٩).

لـم يأمـر أرحـم الراحمين جَلَّ وَعَلَا نبيه محمـدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بـأن يكـون رحمـة للعالميـن فقط، بل جعله رحمـة لهذا الكوكب ومن عليه، ومـا عليه.. كان محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يرقـق قلـوب أتباعـه علـى الحيـوان، بـل يخيفهـم مـن أذيتـه، فيقول: «دخلـت امـرأة النار فـي هرة ربطتهـا، فلا هـي أطعمتهـا، ولا هي أرسـلتها تأكل مـن خشـاش الأرض، حتـى ماتـت هـزلًا»[1]، دخلت النـار رغم عباداتها بسـبب ظلمهـا لهـرة، بينمـا «غُفر لامرأة مومسـة، مـرت بكلـب على رأس ركـي يلهث، كاد يقتلـه العطـش، فنزعت خفهـا، فأوثقته بخمارهـا، فنزعت له مـن الماء، فغفر لهـا بذلك»[2].

كان النبـي محمـد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جنّـة مـن المشـاعر.. ينعـم بهـا الشـعب، حتـى ضعـاف العقـول.. حتى العصافيـر والطيور.. كان صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جدول حب يشـرب منـه الجميـع فيرتـوون.. يشـاهد طيـرًا مفجوعًـا فيخفـق قلبـه رأفـة بـه، فيهتـف بأصحابه في مشـهد رآه، ورواه أحد الشـباب، فقال: كنّا مع رسـول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فـي سـفر، فانطلـق لحاجته، فرأينـا حمَّرة معها فرخـان، فأخذنا فرخيهـا، فجاءت الحمـرة، فجعلـت تفرش. فجـاء النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقـال: «**من فجع هـذه بولدها؟ ردوا ولدهـا إليها**»[3].



ومـن رحمته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه قام بغـرس وكبس ثلاث مئة نخلة لوحده، وبيديه.. فعل ذلك من أجل تحرير عبد اسـمه سـلمان الفارسـي من سـيده اليهودي، الذي

(١) صحيح مسلم (٢٦١٩).

(٢) صحيح البخاري (٣٣٢١).

(٣) سنده صحيح رواه أبو داود (٢٦٧٥) وغيره من طرق عن أبي إسحاق الشيباني عن الحسن بن سعد عن عبد الرحمن بن عبد الله بن مسعود، عن أبيه.. الشيباني ثقة وكذلك شيخه وشيخ شيخه، وقد روي مفرقا على قصتين بالسند نفسه.

اشـترط عليـه ذلـك، ولـو كان ﷺ يظلـم اليهود، كمـا يتهمه أعـداؤه لحرر العبـد، واسـترق اليهـودي، فهل تعـرف الدنيـا قائدًا يلطـخ يديه بالطين والسـماد كرامة لعبد.

إنـه نبـي الرحمـة محمـد ﷺ.. يفعل ذلـك بعد غـزوة الأحـزاب، التي مـرت بسـلام، فأصبحـت دولـة القـرآن مهابـة، ولا أحد يسـتطيع منع شـعبها من التوجـه لمكـة لأداء العمرة.

لـذا أمـر ﷺ أصحابـه بالاسـتعداد لذلـك، فأوقفتـه قريـش، وهـي في حالـة لا تسـتطيع منعه، لكنها رجتـه أن لا يدخلها هـذا العام، لحفـظ كرامتها بين العـرب، فوافق ﷺ.

ولأنـه بنـى دولته علـى المواثيـق، فإنه لم يرجـع إلا بوثيقة موقعـة تضمن حق شـعبه فـي زيـارة مكـة بعـد عـام، متـى شـاءوا مثلهم مثـل غيرهـم، وبعـد نقاش وحـوار في مـكان يسـمى (الحديبيـة)، قـدم القائـد ﷺ تنـازلات، وأبدى مرونـة كبيـرة، لدرجـة أنه سـمح لمـن أراد أن ينضم لمعسـكر الشـرك من شـعبه أن يفعل.

بـل وقـع على شـرط مريـر، وهـو أن يلتزم برد أي مسـلم أو مشـرك مـن مكة، يريـد الالتحاق بدولته، كما كفلت الوثيقة السـماح لأي قبيلـة بالدخول في حلف مـع دولة الإسـلام، أو حلف مع معسـكر الشـرك القرشـي، وأن تتوقـف المعارك بين الطرفين لمدة عشـر سـنوات.

شـروط كشـفت مـدى التسـامح الإسـلامي أمـام الصلـف الوثنـي، ممـا دعا بعـض القبائل الوثنية للدخول فـي حلف مع دولة القـرآن، أو التخلي عن الوثنية، والدخول في الإسـلام، واعتنـاق التوحيد، لكن رغـم ذلـك.. قامت قريش بخرق المعاهـدة بعـد عامين، فدفعت الثمـن غاليًا.

الفتح العظيم

خرقت قريش معاهدة الحديبية رغم أنها مجحفة بحق دولة الإسلام وشعبها، وهنا طفح الكيل، فالصبر على هذا العبث الوثني غير مجد.

فقد حدث ذلك حين غزا الوثنيون قبيلة (خزاعة)، التي دخلت في حلف مع دولة القرآن، فطالبت قبيلة (خزاعة) نبي الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بتفعيل الاتفاقية الموقعة بينهما، مما نتج عنه فتح مكة، وزوال سلطة الوثنية للأبد.

المدهش هنا أن فتح مكة كان دون قتال! كما أنه لم يكن جهاد طلب ولا جهاد دفاع. كان قمة في التحضر، لأنه يعرب عن مدى رقي دولة الإسلام حين استجابت. ملتزمة بمعاهدتها لقبيلة وثنية مظلومة. تمت خيانتها والاعتداء عليها، من قبل طواغيت قريش الوثنيين.

تم فتح مكة، فاستسلمت زعامات مكة الوثنية كلها وهي صاغرة، أما المبهر هنا، فهو أن النبي القائد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لم ينتقم منهم، ولم يذكرهم بجرائمهم بحقه، واضطهادهم له ولأصحابه، وقمعهم له لأكثر من عشرين عامًا، بل تهادى نحو الكعبة، ولما أصبح أمامها صلى، ولما فرغ من صلاته نهض ليلقي خطاب النصر. في وقت كان الطواغيت يرتجفون داخل بيوتهم، وبعضهم دخل الكعبة خوفًا من سيف الفاتح العظيم.



كان المسجد مزدحمًا، لأنه قد أعلن أنه من دخل المسجد فهو آمن.

انحشر الوثنيون داخل المسجد ورائحة عرقهم وخوفهم تزكم الأنوف، والقلوب ترتجف. خيم السكون بانتظار بيان النصر الأول، ورفعت الرؤوس المنكسرة، نحو هذا القائد المنتصر عليها، وهو يمسك بخشبتي باب الكعبة، فإذ به عالم مهيب من التواضع والخضوع لربه سبحانه، الذي فضله واختاره لرسالته.

بدأ النبي القائد محمد بن عبد الله بحمد الله الواحد الأحد لا شريك له.

أثنى عليه سبحانه، ثم جال بطرفه، ونظر للجموع الوثنية التي كانت تقلب اسمه محمدًا، فتسميه بعد بعثته: (مذممًا)، وتصفه بالساحر، والكاذب. جال بطرفه نحو قوم اضطهدوه وقتلوا أحبابه وطردوه من مدينته، وقاتلوه وحرضوا عليه ومنعوه من بيت ربه لأكثر من عشرين عامًا. نظر للجموع الوثنية ثم هتف بها وهو يمسك بعضادتي الباب، ثم قال:

«**يا معشر قريش ما تقولون؟**».

وإذ بالطغيان يتلاشى وهم يردون بكل أدب ويقولون: نقول ابن أخ، وابن عم رحيم كريم. ثم كرر سؤاله: «**يا معشر قريش ما تقولون؟**». قالوا: نقول ابن أخ وابن عم رحيم كريم. ثم قال: «**يا معشر قريش. ما تقولون؟**». قالوا نقول: ابن أخ وابن عم رحيم كريم.

هنا تفجرت شلالات الرحمة. تطهرهم من دنس الحقد الجاهلي، والغل الوثني. هنا تألق محمد ﷺ كالبدر. في سماء الوثنية المعتمة، ليزيل سوادها ويلهج بكلمة كادت تقتلهم فرحًا، حين هتف بهم فقال: «**فإني أقول كما قال أخي يوسف: لا تثريب عليكم اليوم. يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين**»(١).

بعد هذا الخطاب المحلق في سماء الرحمة والتسامح. امتلأ المسجد بصراخ الفرح والابتهاج والتهاني، ليحتل هذا القائد القلوب، لدرجة أن دخلت قبائل الجزيرة العربية كلها في الإسلام دون قتال، وانضمت لدولة القرآن. بعد هذا الخطاب المتسامح للغاية. هذا يعني شيئًا واحدًا. هو أن الحلف الوثني

---

(١) سنده صحيح رواه النسائي في الكبرى (١١٢٣٤)، وغيره من طريق الثقة سلام بن مسكين عن شيخه الثبت ثابت البناني، عن عبد الله بن رباح وثقه ابن سعد والنسائي، عن أبي هريرة. وله شواهد قوية عن ابن السني وغيره.

كان حلفًا هشًّا. كان حلفًا عاطفيًّا لا عقل له. كان حلفًا غير مقنع على الإطلاق. حلف عصبية يقوده طواغيت وثنيون.

لم تكن لديهم قضية أو قناعات. مجرد عصبية جاهلية عمياء.

بعد دخول القبائل العربية في الإسلام. انتهى الخطر الوثني العربي، وبرز خطر أكبر منه. ظهر الخطر العالمي على دولة النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

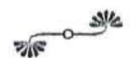
بدأت إمبراطوريتا الروم وفارس بالتوجس من هذه الدولة الناشئة، لذا بدأتا التحرش، من خلال بث الجواسيس، وحشد الجيوش، بل والاعتداء على دولة الإسلام، فقد شنتا حربين على دولة الإسلام. هما: (ذات السلاسل) و(مؤتة). بل وصلت النبي القائد عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ أنباء عن تحركات إمبراطورية الروم باتجاه دولة القرآن.

هنا حشد النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جيشًا هائلًا بعد أن وصلته الأخبار بأن الروم سيغزون دولته. سار بجيشه وسار حتى وصل منطقة تبوك ثم عسكر هناك، ليبقى في تبوك قرابة الشهر.



ترى لو كان هدفه التوسع في المناطق المجاورة، والاعتداء على دولها. هل يتوقف، ثم يعود للمدينة؟

بعد تلك الغزوة أصبحت الجزيرة العربية آمنة برسالتي الأنبياء (التوحيد والعدل)، ولما حان موعد الحج. أدى النبي القائد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الحج. هو والمسلمون في حجة تسمى (حجة الوداع).



الوداع المرير

الختام..

وبعد الفراغ من الحج عاد النبي ﷺ للمدينة، وبعد أشهر أصابه مرض ألزمه الفراش. بعدها ضعف الحبيب عليه السلام ضعف الموت، ثم رحل عن الدنيا، بعد أن أخذ معه القلوب والذكريات والأشواق.

أهالوا عليه التراب والحب والدموع ﷺ، وبكاه من في المسجد، ومن في الطرقات والمنازل. بكت أمهات المؤمنين، وبكت النساء، وبكى الرجال والأطفال، وبكته المدينة.

احترقت القلوب على ساكن القلوب. بكى الشعب ذلك النبي، الذي كان أرحم الناس بهم، وأحب الناس إليهم.

بكوا محمدًا الذي هداهم الله به، ووحدهم به، وبنى لهم دولة مهيبة، ومجدًا شاهقًا، لكنه لم يبن لنفسه قصرًا، ولا لشعبه سجنًا.

مات الحبيب دون أن يترك في منزله دينارًا أو درهمًا، أو يترك بعده عبدًا أو أمة، فقد كان ﷺ لا يدخر شيئًا لغد، فكل ما يأتيه يقسمه بين شعبه، ولذا كانت مصيبة موته تخفف كل المصائب، التي تمر بهم.

فارق محمد ﷺ الحياة جسدًا، لكنه بقي سنةً ومنهجًا، فنهض الصحابة من عند قبره مثقلين بالحزن واللوعة. محملين بسنته وقرآن ربه وربهم.

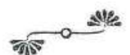
نهض الصحابة بعد أن دفنوه في غرفة زوجته عائشة رضي الله عنها، فلم يعكفوا عند قبره، أو يبنوا على قبره قبابًا، أو مباني، أو حتى يكتبوا عليه شيئًا.

لم يحولوا ذلك القبر الكريم إلى بناء مرصع بالجواهر، أو مطلي بالذهب، بل إن عائشة استمرت في السكن في بيتها، ولم تفارقه. أما الصحابة فلم

يمضـوا أوقاتهـم عند قبـره بتـلاوة الأشـعار والمدائـح والبكائيات، بـل ولا حتى بقـراءة القرآن.

لقد علمهم محمد عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ كيف يصنعون الحياة. كيف يشـرقون كالشـمس فـي عروق المسـتقبل والأجيال. نهضـوا من عند قبـره، فحملوا رسـالته (التوحيد والعـدل) إلـى العالـم؛ لينقـذوه بها، كمـا أنقدهم هـو قبل ذلـك بها. فـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عـدد خلقـه، ورضا نفسـه، وزنة عرشـه، ومـداد كلماته، وجـزاه عنا خيـر ما جزى نبيًّـا عن أمته، وجمعنـا به وبأنبيائـه في جناته فـي الفردوس[1].

◀ محمد الصوياني





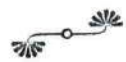
(١) للمزيد من التفاصيل الصحيحة حول سيرته عليه السلام، راجع (كتاب السيرة النبوية كما جاءت في الأحاديث الصحيحة)، ومختصره (مختصر السيرة)، وهما للمؤلف.

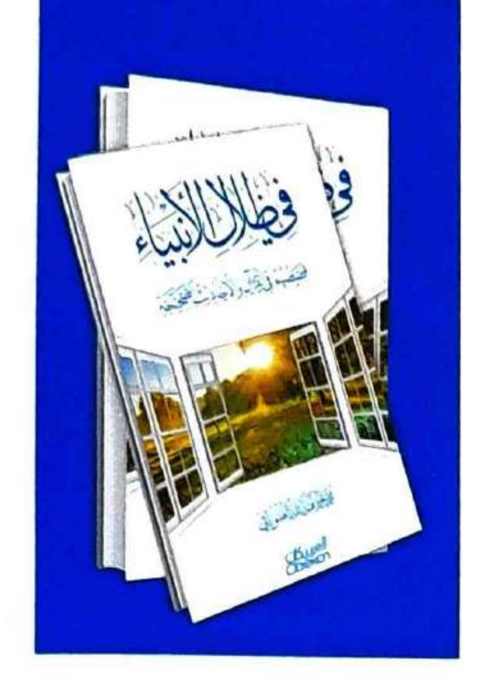
المحتويات











عن أي أحبة ستتحدث هذه الورقات؟ عن أبي آدم عليه السلام.. الذي يأخذني الشوق إليه، والانصات لقصصه حين كان يضج جمالًا ودهشة وسط النعيم بين الملائكة، وقصة ارتباكه وتردده على تلك الثمرة المحرمة بتحريض من عدوه الذي تزداد عداوته له ولنا كل يوم.

أم عن التحرق لتقبيل يدي أمي حواء وعناقها، ومسح دمعاتها الحرى وأنينها وحنينها لفلذة كبدها الذي حرمت منه في عز شبابه؟ أم عن نوح... النبي الصامد كجبل قرابة ألف عام، أم عن النبي الأمة إبراهيم الخليل وحياته التي أمضاها في الترحال والأسفار والغربة والتضحية؟ أم عن النبي الأمي... حبيب القلب ونوره... محمد بن عبدالله الذي طالما أبكتنا سيرته ومواقفه ورحمته وجرأة الحاقدين عليه...؟

صلى الله وسلم على كل أحبتي، ما أعظمهم وأجملهم...! كانوا أنبياء مذهلين...! عانوا وعانوا لنشر أعظم رسالتين... تتعطش البشرية لهما:

- رسالة للسماء، وهي التوحيد التي يقول مرسلها سبحانه: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾.

- ورسالة لإعمار الأرض بالنظام... رسالة العدل الذي أمرهم الحق بإرسائه ونشره بين خلقه فقال سبحانه: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾.

فمنهم من وصل، ومنهم من قضى في الطريق، ومنهم من قطعته السيوف والسواطير، ومنهم من مات في الزنازين، وبعد سنوات وسنوات من المعاناة... يأتي النبي منهم يوم القيامة ومعه الأمة، ويأتي النبي ومعه الخمسة أو الثلاثة، ومنهم من يأتي ومعه رجل واحد فقط، ومن الأنبياء من يأتي وحيدًا ليس معه أحد...، خذله أهله وقومه.

لم تكن رحلة الأنبياء نزهة ولا استجمامًا... كانت بذلًا وتضحيات ونبلًا.

هذه ورقات قطفتها من أصح كتاب في هذا الكون...؛ قرآن وكلام ربي عز وجل، ومن أحاديث حبيبي عليه الصلاة والسلام الصحيحة، والصحيحة فقط، فلا مكان في ديننا للكذب والتلفيق، والتزييف من أجل التشويق والإثارة والتأثير.

جمعني الله وإياكم بهم في جناته ونعيمه... في يوم لا ينفع فيه مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم...، حينها سننصت لهم، وهم يروون لنا تفاصيل مبكية ومذهلة طالما اشتقنا لمعرفتها.

محمد الصوياني



تواصل معنا
CONTACT US

قصص الأنبياء


ISBN:9786035093927
9 786035 093927